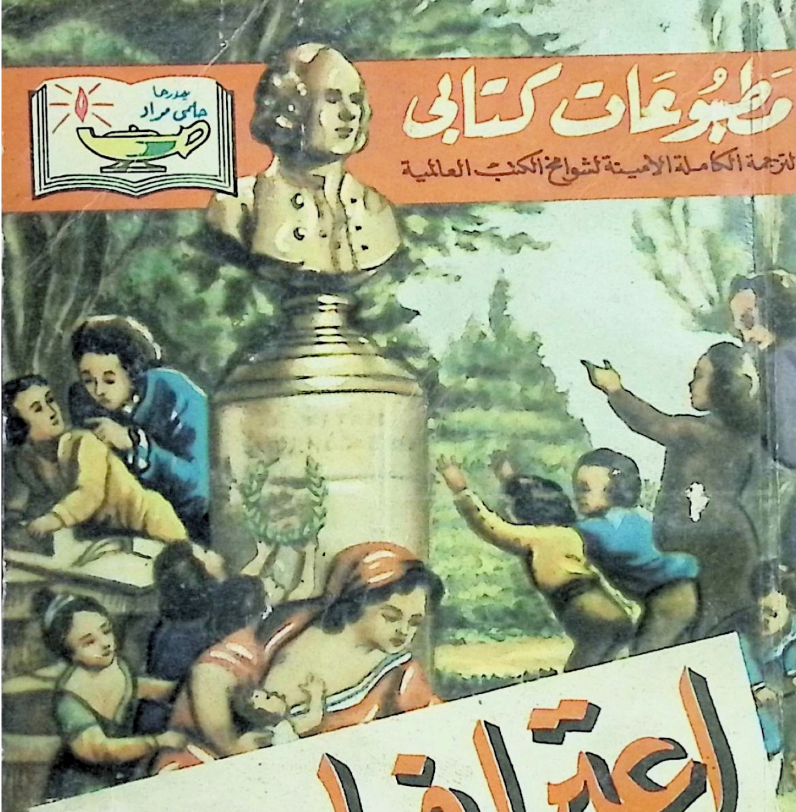

مطبوعات كتابي

للترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها حلمي مراد

اعترافات

جان جاك روسو

الجزء الرابع

عترافات

چان چاك روسّو

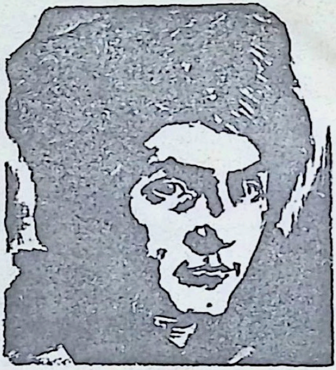

LES CONFESSIONS

DE

J.J. ROUSSEAU

٢٣٠ صفحة
١٢ قرشا

مطابع
الناشر العربي
٨ شارع الصحافة القاهرة

مطبوعات

كتابي

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية
يصدرها : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب الحادى والثلاثون

« اعترافات جان جاك روســـو »

ترجمة : محمد بدر الدين خليل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن سبعة وستون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد اول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص اجرة البريد المسجل ، ما عدا العدد العاشر وثمنه عشرون قرشا ، والأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، أما الأعداد الستة الأولى والعدد العشرون فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها .

◆ الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والأردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة اجر البريد المسجل ، وفى المانيا ١٦٠ قرشا بخلاف اجر البريد الجوى .

◆ ملحوظة : ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة او تحويلات عليه . واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بان الكوبونات الدولية فئة الأربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الأبيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امراة (جزءان) ، الخطيئة الأولى ، اوديب ، مدام بوفارى (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظما للحب ، جين اير (ثلاثة اجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثار للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، أسرار الجاسوسية ، بيللا دونا (ثلاثة اجزاء) ، بوشكين ، وجان جاك روسو .. وثمن النسخة من كل عدد عشرة قروش ، فيما عدا الأعداد : ١ و٤ و٧ و١٩ و٢٢ فثمن النسخة عشرون قرشا ، والأعداد : ١٢ و٢٨ و٢٩ و٣٠ اثنا عشر قرشا ، والأعداد : ٣ و٥ و٦ ثمانية قروش ، ويضاف الى هذا السعر قرشان مقابل اجر البريد المسجل .

اعترافات

جان جاك روسو (الجزء الرابع)

الاجزاء السابقة .. فى سطور

الكتاب الأول

• **ولدت** فى (جنيف) ، فى سنة ١٧١٢ ، لأب كان يعمل فى صناعة الساعات ، ولأم توفيت عند مولدى . وبدلا من ان يكرهنى أبى لذلك ، فانه أسرف فى حبه لى ، لأننى كنت شديد الشبه بأمى

• **تنبه** احساسى قبل ان يتنبه فكرى . ثم عمد أبى الى اسلوب خطر ، اذ اشركنى فى قراءة الروايات والكتب الدسمة

• **اضطر** ابى الى ان يهجر (جنيف) عقب مشاجرة بينه وبين عسكرى فرنسى ، كادت تلقى به الى السجن دون مبرر قانونى . فبقيت فى كنف خالى «برنار» ، الذى كان متزوجا من عمتى ، والذى أرسلنى مع ابنه الى (بوسى) لنقيم فى رعاية ألقس البروتستانتى « لامبرسييه » ، ولنتلقى العلم على يديه ويدى اخته . وكانت الآنسة «لامبرسييه» تولينى حنان الأم ، ولكن عقابها اياى نبه المشاعر الحسية والشهوانية فى كيانى !

• **على أثر** عقاب ظالم ، لذنب لم ارتكبه ، كرهت الظلم ، وولت طمأنينة طفولتى . وتركت الدراسة فألحقنى خالى بمكتب موثق للعقود ، على أمل أن أشق طريقى فى المحاماة — فيما بعد — ولكنى لم استسغ هذا العمل ، فرأى خالى ان من مصلحتى أن أتعلم حرفة . وألحقنى كصبى — أو تلميذ صانع — لدى حفار كان ينقش على المعادن . وهناك اختلطت بالعمال الذين كانوا يكبروننى سنا ، فتعلمت السرقة ، لا سيما وان معلمى كان يقسو على بالعقاب والحرمان . ومع ذلك فاننى لم

أكن أسرق حبا فى المال أو الحيازة .. والى جانب هذا ، اشتد شغفى بالقراءة حتى أصبح تهوسا

• **واضطرتنى** قسوة معلمى ، ونفورى من حياتى هذه ، الى الهرب من (جنيف) .. فانتهى بى المطاف الى سيدة محسنة فى (انيسى) ،كان ملك سردينيا قد خصها بمعاش ،لأنها اعتنقت الكاثوليكية .. تلك هى «مدام دى فاران» ،التى اشفقت على ، وأرسلتنى الى دير نبذت فيه عقيدتى البروتستانية، وأصبحت كاثوليكيا

• **واستطبت** بعد ذلك حياة الترحال ، وعانيت الفاقة والمتاعب . ثم انتهيت الى العودة الى السيدة دى فاران ، التى رحبت بى ، وانزلتنى من نفسها منزلة الابن ، وافردت لى غرفة فى دارها ، وراحت تنفق على تعليمى الموسيقى ، رغم تضاؤل مواردها .. وتعلقت بهذه السيدة تعلقا ملك على كل حواسى وعقلى .. وبمرور الأيام صرت أدعوها «ماما» !

• **وكانت** هذه الحياة أبهج من أن تدوم . فقد أوفدتنى «ماما» مرة لأعاون السيد «لوميتر» ، الذى كان رئيسا لفرقة الموسيقى بكنيسة (انيسى) ، والذى اختلف مع بعض رهبان الكنيسة فشاء ان يفر من وجوههم .. وقد رافقته الى (ليون). وعندما عدت الى (انيسى) ، اذا بى أفاجأ بأن «ماما» قد رحلت فى بعض شئونها ، ولم ادر لها مقصدا أو مقرا !

• **وأقمت** فترة مع «فينتور» ، وهو شاب كنت أعرفه من قبل، وكان يزعم أنه موسيقى موهوب . وكان لبقا ،انيقا ، مرحا، يستهوى النساء .. وفى تلك الاثناء ، كان أبى قد تزوج من امرأة على شىء من الدهاء والقول المعسول ، وشغل عنى !

• **انتهى** بى المطاف الى (لوزان) ، حيث رحت أتكسب

عيشي بتدريس الموسيقى ، باذلا جهدى - فى الوقت ذاته - الى تنمية معرفتى بها . وحاولت اذ ذاك أن أكون ملحنا ، دون ما المام كاف بأصول التلحين ، فمنى لحنى الاول بفشل ذريع ، جعلنى اعيش فى حزن وهوان لفترة من الوقت

• ولم أكف طيلة هذه الأحداث عن الحنين الى «ماما» ، لا لحاجتى المادية فحسب ، وانما لحاجتى القلبية قبل كل شىء ! .. ومع ذلك ، فان تعلقى بهـا - رغم ما كان عليـه من تأجج وقوة - لم يكن ليحول بينى وبين أن أحب غيرها . ولكن ، على غير شاكلة حبى لها !

• وقدر لى ان اذهب الى باريس، ولكننى لم ألق فيها الحظ الذى كانت تصوره لى احلامى . على اننى ظفرت هنـاك بنبأ جعلنى انطلق من جديد بحثا عن السيدة دى « فاران» . وهكذا اخذت أجوب الاقاليم على غير هدى ،متعرضا للتشرد ،والتضور جوعا ، والنوم فى الطرقات .. حتى عرفت أخيرا ان « ماما » الحبيبة قد استقرت فى (شامبيرى) ، فخففت اليها .. وما كان احلاه من لقاء !

• واستطاعت «ماما» ان تحصل لى على منصب فى «المساحة»، فبدأت اكسب عيشى بعمل مشرف ! .. وكانت هذه خير خاتمة لباكورة صباى !

• واقمت فى دار « ماما » ، فى (شامبيرى) .. ولكنها لم تكن فى بهاء دارها الأخرى فى (انيسى) ، اذ كانت موارد «ماما» فى تضاؤل ، وكانت أمورها مضطربة . وفى هذه الحياة الجديدة، اكتشفت ان «ماما» كانت على علاقة بخادمها الوفى «كلود آنيه» . وكان شابا لايكبرنى بكثير ، ولكنه كان رزينا وقورا ، غدا منى بمثابة المربى . ومـع اننى لم أنج من الألم ، اذ أدركت ان ثمة من استطاع ان يعيش مع «ماما» فى مودة تفوق مودتى كثيرا ،

الا ان وفائى للسيدة امتد الى الشاب ، فقد كنت راغبا فى سعادتها هى قبل كل شىء !

• **وانصرفت** الى الموسيقى – فى تلك الاثناء – فى استغراق ملك على حواسى ، وحملنى على ان استقيل من عملى فى « المساحة » ، وأن أستعين على الحياة بتدريس هذا الفن . وقادنى هذا الى المجتمع الراقى ، والى دور ذوى الجاه والثراء . وبقدر ما تعرضت للمغازلات من فتيات ونساء هذا الوسط ، فان سذاجتى – التى ذهبت الى درجة الغباء – كانت تفوت على الفرص . الى ان احست «ماما» بأن احدى السيدات كانت توشك ان توقعنى فى احابيلها ، فأشفقت على من مخاطر شبابى ، ورأت ان تنقذنى منها بأغرب طريقة خطرت لامرأة فى مثل ظروفها .. بأن تمنحنى نفسها ! .. وهكذا اخذت « ماما » تروى عطشى الى النساء من مغينها .. على ان العلاقة البدنية لم تفسد شيئا من براءة علاقاتنا العاطفية والروحية والفكرية ، كما انها لم تؤثر على علاقة كل منا بخادمها وعشيقها «كلود آنيه» ، بل قامت بين «ثلاثتنا» زمالة قد لا يكون لها مثيل على الأرض!

• **وما لبث** « آنيه » ان مات – وهو فى ريعان شبابه – فحللت محله فى تدبير شئون « ماما » وماليتها . ولاحظت ان مواردها كانت فى نضوب ، فأخذت أعمل جاهدا على أن اجنبها هاوية الافلاس . وانتهى بى التفكير الى وجوب الحصول على عمل ، كى أعول من دخله «ماما» اذا ألمت بها الفاقة . وفى سبيل ذلك رأيت أن أتعلم التلحين ، فكان هذا الاتجاه عاملا جديدا على تبديد مواردها المتضائلة ! .. وكذلك شرعت فى تأليف الأغانى .

• **وقضيت** عامين او ثلاثة بين الموسيقى ، ومجالسة الحكام وذوى الجاه ، والرحلات .. وما لبثت صحتى أن أخذت تتداعى ، وغلبنى الاكتئاب والاسى والتشاؤم ، فنصح لى الطبيب بأن أقيم

فى الريف ، وسرعان ما استأجرت « ماما » منزلا ذا حديقة وبستان ، فى ضيعة (شارميت). وهناك ، نعمت بأهنأ فترة فى حياتى .. مع « ماما » !

• **ولكنه** كان هناء قصير الأجل .. ففى تلك الأثناء ، شعرت بضعف فى القلب ، وضيق فى التنفس ، وطنين فى الاذنين ، وتراخ فى حيويتى ، مما أوحى الى بأن عمرى لن يطول ، فرأيت ان استمتع بما تبقى منه اعظم استمتاع . وأقبلت على دراسة العلوم والآداب ، كما اكثرت من الأسفار ، انشد علاجا لعللى.

• **وفى احدى** هذه الاسفار ، التقيت بالسيدة دى «لارناج» وكانت تكبرنى فى السن كثيرا ، ولكنها راحت تعمل على اغوائى ، حتى اذا رأت ما كان الخجل والتردد يخلقانه من قيود تشل اقبالى عليها ، لم تتورع عن ان تكون هى البادئة بالعناق والتقبيل .. واصبحت عشيقتى خلال الرحلة ! ولو اننى عشت مائة عام ، لما استطعت ان افكر قط فى هذه المرأة الفاتنة دون ان يطغى السرور على ! .. كانت متعتى مع « ماما » مشوبة بالأسى والضيق .. اما مع السيدة دى لارناج ، فقد كنت فخورا برجولتى ، مزهوا بسعادتى

• **وكانت** صدمة لى ان عدت الى «ماما» ، فوجدت ان شابا غيرى قد حل محلى اثناء غيابى .. وكان جاهلا ، مغرورا ، استطاع ان يفرض على «ماما» سلطانه ، فلم استطع ان اطيق بقاء الى جوارها ، وقررت ان اهجر الدار ، وان ارحل الى باريس ، لأعرض على « الأكاديمية » طريقة ابتكرتها لتسجيل « النوتة » الموسيقية بالأرقام بدلا من العلامات

الكتاب الثانى

• **وصلت** الى باريس فى خريف سنة ١٧٤١ .. واستطاع

بعض من حملت اليهم خطابات للتوصية ، ان يمكنني من التقدم الى «الاكاديمية» برسالتى التى قدر لى ان يناقشنى فيها علماء لم يكن بينهم من له المام كاف بالموسيقى ، فانتهوا الى الحكم بعدم صلاحية طريقتى . وبدلا من ان استسلم للقنوط ،اسلمت نفسى للخمول وللقدر ، ورحت اقتر على نفسى لأفيد بما تبقى من مواردى المتضائلة

• **واخرجنى** الأب « كاستيل » من استسلامى للكسل ، اذ عرفنى بالبارونة « دى بوزينفال » وابنتها المركيزة « دى بروجلى » ، وبالسيدة «دوبان» .. وكن يملن الى الموسيقى .. ولقد ابدت لى السيدة «دى بروجلى» عطفا خاصا ، ونصحتنى بتعلم « الاتيكيت » ! .. اما السيدة « دوبان » ، فكانت فاتنة الشخصية . وقد تعرفت لديها على السيد « دى فرانكويى » ، ابن زوجها . وقد اطمعنى لطفها ، فهمت حبا بها ، وكتبت لها رسالة غرامية ، ردتها الى مع تانيب جمد له دمى ! .. وارتد عقلى الى ـ بعد ذلك ـ فقنعت بصداقتها والتردد على دارها.

• **وفى** تلك الأثناء ، اقبلت على وضع « اوبرا » عن حياة ثلاثة من الشعراء ، هم «تاس» ، و «اوفيد» ، و«اناكريون» .. وقد اسميتها «عرائس الشعر اللطاف» . وقبل أن أفرغ منها، التحقت بالعمل كسكرتير للسيد الكونت « دى مونتيجى » ، سفير فرنسا فى البندقية .. ورحلت الى هناك .

• **واستطعت** فى هذا المنصب أن أبدى مهارة وحكمة ، وان اكتسب محبة الفرنسيين المقيمين فى (البندقية) ، وان اكتسبت عداء السفير ، اذ كان رجلا احمق ، جاهلا ،جشعا ، اسلم قياده لمستشارين من الايطاليين استغلاه اشنع استغلال ، واوقعا بينه وبين الفرنسيين هناك .. واستطاعا ان يوغرا صدره على لأننى كنت مخلصا لعملى ، جادا فى مسلكى ، معتزا بكرامتى .

وكان من جراء ذلك ان راح السفير يضايقنى ويكثر من مشاكستى ، حتى اضطررت - فى النهاية - الى أن اترك العمل فى السفارة ، رغم ان السيد « دى مونتيجى » ابى ان يسوى حسابى ، وان يدفع الى استحقاقى

• **وفى** (باريس) ، رحت اشكو تصرفات السفير معى لذوى النفوذ ، فكان كل امرىء يقرنى على اننى أوذيت وظلمت ، ولكن احدا لم يحاول ان ان ينصفنى .. على ان الرجل لم يلبث ان جنى على نفسه بتصرفاته الحمقاء ، فاستدعى الى باريس ، واقصى عن منصبه ، واوعز اليه ان يرد الى ما كنت استحق من نقود لديه . على ان عدالة شكاياتى ، وعدم اكتراث احد بانصافى طيلة تلك الفترة ، خلفت فى نفسى بذور السخط على المدنية الحمقاء ، التى تضحى نظمها بالمصلحة العامة ، والعدالة الحقة ، وتخلع شرعية السلطة العامة على جور الأقوياء واستبدادهم بالضعفاء !

• **وتفرغت** لاستكمال « الاوبرا » التى كنت قد بدأتها . . وفى تلك الاثناء ، تعلقت بفتاة محتشمة ساذجة كانت تعمل فى الفندق الذى نزلت فيه ، فسرعان ما برح بنا الهوى .. واعترفت لى بزلة وحيدة تعرضت لها فى فترة مراهقتها ، فلم يحل هذا دون أن ازداد حبا لها !

• **واكتملت** «اوبراى» ، فعرضتها على «رامو» - الذى كان واسع النفوذ فى الوسط الفنى - ولكنه تحامل عليها ، واذكت تحامله تلميذته - السيدة ديلا بوبلينير - فراح يتهمنى بأننى سرقت الالحان .. على ان السيد «ريشيليو» شجعنى ، وسألنى ان اغير الفصل الأخير من «الاوبرا» ، ليسعى لعرضها على مشهد من الملك . وما لبث ان شغلنى عنها بأن اناط بى تعديل «اوبرا» كانت من تأليف «فولتير» وتلحين «رامو» . وادى اشتراكى مع

هذين العظيمين فى عمل كهذا ، الى اذكاء روحى المعنوية . غير ان «رامو» استطاع ـ بالتواطؤ مع السيدة ديلابوبلينيير ـ ان يحول دون ان يعرف الراى العام نصيبى فى ذلك العمل !

• **وادت** كل هذه الظروف الى تثبيط عزيمتى نحو الرقى، فلم اعد افكر فى اكثر من كسب قوتى وقوت تيريز ، بالعمل كسكرتير للسيدة دوبان ، والسيد دى فرانكويى . . واقبلت فى تلك الاثناء على دراسة الكيمياء مع الأخير .

• **وانتجت** علاقتى بتيريز ثمرة اسلمناها الى ملجأ اللقطاء . . وكذلك فعلنا بابنائنا الذين تعاقبوا حتى صاروا خمسة !

• **وما لبثت** ان قرأت صدفة عن الموضوع الذى حدده المحفل العلمى بديجون لمباراته فى العام التالى ، وهو : « هل ساعد تقدم العلوم والفنون على افساد اخلاق او على تطهيرها؟» . . وانتابتنى شبه غيبوبة، واتانى خلالها الهام اوحى الى بمقال فى الموضوع ارسلته الى المحفل

• **وفى** تلك الاثناء كنت قد اثثت لنفسى مسكنا خاصا ، ضممت فيه «تيريز» الى . . وسرعان ما اقبلت اسرتها تعيش معنا . وبقدر ما سعدت بلحظات هانئة مع فتاتى، فاننى شقيت بأهلها الذين كانوا يستنفدون مواردها ـ من عملها ـ ومواردى

• **وقدر** لمقالى ان يفوز فى العام التالى ـ ١٧٥٠ ـ بجائزة محفل ديجون ، فأيقظ ذلك فى نفسى حب التحرر من خدمة الغير ، والسعى الى ان اكون انسانا فاضلا ، ذا استقلال ذاتى .

• **واضمحلت** صحتى ـ فى هذه الفترة ـ فأوحى الى طبيب شهير بأننى لن ابقى فى الحياة لأكثر من ستة اشهر . فقررت ان اعيشها حرا مستقلا ، ولو اضطرنى هذا الى حياة الكفاف . واشتد عزمى على ان اتمسك باستقلالى، فاستخدمت

كل قواى الروحية فى تحطيم اغلال الرأى العام ، وفى ان اقدم بشجاعة على ما اراه خيرا ، دون ان أحفل بآراء الناس. فأوغر مسلكى هذا صدور اصدقائى

• **وعملت** كناسخ للقطع الموسيقية ، بعد ان استقلت من خدمة السيدة دوبان والسيد دى فرانكويى . . وأخذت انحو نحو التقشف لأصلح من امر نفسى . وكان مقالى قد احدث فى تلك الاثناء ضجة ، فكثرت شواغلى الأدبية ، حتى الهتنى عن عملى فى نسخ الموسيقى . وأثار المقال انتقادات مريرة، اشترك فيها الملك « ستانيسلاس » البولندى بنفسه ، فانصرفت الى الذود عن آرائى فى جراة خشى على بعض اصدقائى منها

• **وما لبثت** ان ادركت ان العيش فى فقر وحرية ، ليس بالسهولة التى يتصورها المرء دائما ! . . ولقد حاول بعض المعجبين بى ان يعوضونى عن ذلك بالهدايا، ولكنى رحت ارفض جميع الهدايا ، دون ما استثناء .. ولم يصادف هذا المسلك هوى من نفس السيدة لوفاسير ــ أم تيريز ــ ولا أفلح ما اتسمت به ابنتها من تجرد من النفع الذاتى ، فى صدها عن قبول الهدايا من وراء ظهرى، ومن اغرائها ابنتها على ان تقبلها هى الأخرى، او تكتم عنى امرها ، على الاقل !

• **ومن** هنا اشتد الخلاف بينى وبين السيدة لوفاسير التى راحت تحرض ابنتها على ، وتذمنى لدى اصدقائى ، وتتآمر مع من كانوا يحاولون منهم ان ينالوا منى. . ولقد ادى اندماجى فى المجتمع الى ان اعمل على اذكاء اعتدادى بنفسى ، فأحالنى الحياء الى هجاء لاذع، والى ان ازدرى آداب اللياقة .. فاضطر الساخرون الى ان يحدوا من سخريتهم

• **وادت** قصة « عراف القرية » الى تألقى فى المجتمع، فكثر معارفى. . وكانت هذه «الاوبرا» من طراز جديد، وقد استطاعت

ان تكسب اعجاب الجمهور ، كما حضر الملك وحاشيته عرضها فى البلاط . ولقيت من التكريم ما أثار خجلى ، حتى اننى عندما دعيت الى القصر الملكى ، وقيل لى ان من المعتقد ان الملك قد ازمع ان يعلننى بأنه قرر منحى معاشا سنويا، بادرت الى التهرب من المناسبة ، وتخليت عن المعاش .

• **وزاد** النجاح من تنكر أصدقائى لى ، وتألبهم على .. وفى تلك الاثناء ، وضعت رسالتى عن : « حديث فى عدم المساواة »، التى اثارت فيما بعد ضجة كبيرة ، واجتلبت على نقمة الحكومات، لاسيما حكومة (جنيف)

• **وفى** ذات يوم ، دعتنى السيدة ديبيناى الى مرافقتها الى ضيعتها (لاشيفريت) ، حيث كان العمل جاريا فى اضافة جناح الى القصر .. وهناك ، وجدتها قد جددت بناء كوخ صغير كان فى طرف المتنزهات الملحقة بالقصر، فى متاخمة غابة (مونمورنسى) .. وكنت قد ابديت من قبل اعجابى به ، لقيامه فى موقع منعزل جميل ، فعملت السيدة على اعداده لسكناى ، ودعتنى للاقامة فيه . وبالرغم مما اثاره هذا من تخرصات «اصدقائى!»، الذين راحوا يروجون اننى اعيش على كرم السيدة ديبيناى، فاننى لم اتردد فى هجران باريس ، والاقامة فى (ليرميتاج) ــ كما كان ذلك الكوخ يسمى ــ مصطحبا «تيريز» وامها .

• **وهناك** ، تفرغت للانتاج الادبى . ومع اننى بدات اشعر بأن اقامتى على مقربة من السيدة ديبيناى ، وفى ضيافتها ، قد حد بعض الشىء من حريتى ، الا ان هذا لم يحد من اقبالى على الانتاج

• **وفى** هذه الفترة بالذات ، اشتد توثق العلاقات بينى وبين «تيريز» ، وازداد فهم كل منا للآخر .. وقد يعجب القارىء لهذه الرابطة التى توجتها فى شيخوختى ــ وبعد خمس وعشرين

السيدة ديبيناى

سنة من المعاشرة ـ بالزواج .. قد يعجب القارىء لهذه الرابطة، اذا صارحته بأننى لم أحب يوما «تيريز» ولا اشتهيتها .. ومع ذلك فانها كانت « وماما » أعز امـرأتين لدى ! .. والواقع ان مادفعنى الى التعلق بتيريز ـ من البداية ـ هو اننى كنت أتوق الى زميلة اندمج معها روحا وقلبا . . وكان لطفها وسذاجتها واخلاقها كفيلة بأن توحى الى بأنها خير من تصلح لذلك . ولكن ولاءها لأمها واسرتها ، وجشع هؤلاء، كانا يفسدان علينا هناءنا ! .. وكانا يجعلان تيريز ملكا لأهلها ، اكثر مما كانت ملكا لى ، او ملكا لنفسها !

والآن.. تعال نعش مع « روسو » فى العالم الذى كان يعيش فيه منـذ قرنين كاملين :

* * *

• ولم يكن جشعهم مؤديا الى افلاسها، بقدر ما كان نصحهم مؤذيا لها !.. وقصارى القول انها اذا لم تكن جارية لهم بمعنى الكلمة ـ والفضل فى ذلك لحبها لى ولنفسها المفطورة على الطيبة ـ فانها كانت من الخضوع لهم بدرجة تمنع ، الى حد كبير ، اثر المبادىء الطيبة التى سعيت الى أن أبثها فيها .

هـذا هو السر فى أن فـراغ قلبى لم يلق فى علاقة خالصة متبادلة كهذه ـ اودعتها كل ما فى هذا القلب من عاطفة ـ مايملأه تماما . وكان الاطفال كفيلين بملء هـذا الخواء .. وقد رزقنا بهم ، ولكن انجابهم زاد الأمر سوءا . فلقد كنت أرتجف لمجرد التفكير فى اسلامهم الى هذه الأسرة السيئة النشأة ، لتكفل لهم نشأة أسوأ !.. كان ما لتربية اللقطاء فى الملجأ ـ من احتمالات سيئة ، أهـون من ذلك بكثير !.. وهـذا التبرير للقرار الذى اتخـذته ، كان الوحيـد الذى لم أجـرؤ على ذكـره للسيدة دى فرانكويى ، رغم أنه أقوى بكثير من تلك التى سقتهـا فى خطابى اليها . فقد آثرت ان أبقى فى غير منجـاة من لوم ثقيل الوطأة ، لكى أعول أسرة امرأة كنت أحبها . ولكن من الممكن ـ على ضوء اخلاق أخيها التعس ، ان لم نقل على أضواء أخرى ـ الحكم بما اذا كان من واجبى،اذ ذاك، ان اعرض ابنائى لأن يتلقوا تربية كتربيته !

واذ لم استطع أن أستمتع تمام الاستمتاع بهـذه الصحبة الوثيقة التى كنت أشعر بحاجة اليها ، فقدسعيت الى معززات وان لم تملأ فراغ قلبى ، الا أنها جعلتنى اقل شعورا به . واذ كنت أفتقد صديقـا يؤثرنى بكل وده ونفسـه ، فقد وجدتنى بحاجة الى أصدقاء أوتوا من التحريض والتحفيز ما يطغى على تراخى وكسلى. ومن ثم فقد رحت أنمى وأعزز علاقاتى بديدرو

والراهب دى كونديللاك، واقبلت على علاقات جديدة ـ ولكنها اكثر توثقا .. بجريم ، **وما لبثت انوجدتنى فى النهاية ـ بفضل تلك «الرسالة» التعسة، التى رويت قصتها من قبل ـ مرتميا، دون ما تفكير، بين احضان الأدب، الذى كنت أظننى قد هجرته الى الأبد !**

ولقد افضى بى ارتيادى الأول للأدب ـ خلال طريق جديدة ـ الى عالم فكرى آخر ، لم اكن أملك ان اتأمل بساطته وايجازه السامى ، دون ما تحمس ! . . وسرعان ما أصبحت بفضل انهماكى لا أرى فى معارف فلاسفتنا سوى خطأ وحماقة ، ولا ارى فى نظامنا الاجتماعى سوى ظلم وتعاسة . وفى انسياقى لضلال الغرور الأرعن، خيل الى اننى انما خلقت لكى أبدد جميع هذه الأباطيل .. واذ رأيت انه لابد لى من ان أجعل تصرفى يتمشى مع مبادئى ـ اذا شئت ان يكون رأيى مسموعا ـ فاننى انتهجت المسلك الأوحد الذى لم يتح لى أن استمر فيه، والذى لم يغتفر لى أصدقائى المزعومون ان جعلت نفسى مثالا وقدوة فيه ، والذى جعلنى ـ فى البداية ـ اضحوكة ، وكان خليقا بأن يجعلنى ـ فى النهاية ـ موضع الاحترام ، لو انه تسنى لى ان أثابر عليه !

★★★

• **ولقد** كنت حتى ذلك الحين طيبا ، فأصبحت من تلك اللحظة فاضلا ، أو نشوانا بالفضيلة، على الأقل !.. وقد بدات هذه النشوة فى رأسى ، ولكنها سرت الى قلبى . وعلى اطلال الغرور المقوض ، نبتت أنبل كبرياء .. ولم أكن متظاهرا بشىء، بل اننى غدوت كما كنت أبدو حقا . **وفى خلال السنوات الأربع ـ على الأقل ـ التى دامها هذا الفوران فى أقصى قوته ـ لم اعجز عن أن أعتنق ، بينى وبين السماء ، كل جليل وجميل يمكن أن ينتاب قلب بشر . ومن هنا نبعت بلاغتى المفاجئة .. ومن هنا**

تولد ذلك اللهب السماوى الصادق الذى ألهبنى وانتشر فى كتبى الأولى ، والذى لم يكن ـ ابان اربعين عاما ـ قد فقد شرارة واحدة . لأنه لم يكن قد استعر بعد خلالها !

ولقد تغيرت تغيرا حقيقيا ، حتى ان أصدقائى ومعارفى لم يعودوا يعرفوننى. لم أعد ذلك الرجل الخجول، الذى كان حييا أكثر منه متواضعا ، والذى لم يكن يجرؤ على أن يظهر نفسه ، ولا على أن يتكلم ، والذى كانت الكلمة الماجنة تربكه ، والنظرة الصادرة من أية امرأة تبعث حمرة الخجل فى وجهه !.. وفى جراة، وفخر ، واقدام ، رحت أحمل فى كل مكان اعتدادا كان وطيدا بقدر ما كان بسيطا ، وكان مقره فى اعماقى ، وليس فى مظهرى .. وكان من جراء الازدراء الذى الهمتنيه تأملاتى العميقة ـ نحو اخلاق ومبادىء واوهام عصرى ـ ان اصبحت ابعد من ان أتأثر بسخريات أصحاب تلك الأخلاق والمبادىء . فكنت اسحق ملحهم ونكاتهم الصغيرة بحكمى وامثالى ، كما أسحق حشرة بين اصابعى . فيا له من انقلاب !.. لقد راحت باريس بأسرها تردد السخريات الوخازة اللاذعة التى أخذت تنبعث من رجل لم يكن قبل عامين ـ ولا بعد عشرة أعوام ـ يعرف كيف يهتدى الى ما ينبغى عليه ان يقوله ، ولا الكلمة التى يجدر به ان يستعملها!.. ان أى فرد يسعى الى العثور على أشد الحالات مناقضة لطبيعتى، لن يعثر الا على حالى هذه.. واذا هو رغب فى أن يذكر. فترة واحدة من الفترات القصار التى تخللت حياتى وكنت فيها على غير ما أنا بفطرتى ، فلن يعثر على بغيته الا فى هذا الزمن الذى أتحدث عنه.. ولكنها فترة لم تدم ستة أيام، أو ستة أسابيع، وانما دامت ست سنوات، ولعلها كانت قمينة بأن تدوم حتى الآن، لولا الظروف الخاصة التى أدت الى انتهائها، والتى ردتنى الى فطرتى التى حاولت ان أنتشل نفسى منها !

وبدأ هذا التغير بمجرد أن بارحت باريس ، ولم تعد مناظر الرذائل ، فى هذه المدينة الكبيرة ، تغذى الاستنكار الذى كانت

تبعثه فى نفسى . ذلك أننى اذ أصبحت لا أرى الناس ، كففت عن ازدرائهم .. واذ لم أعد أرى أهل الخبث ، كففت عن بغضهم . فان قلبى المفطور على العزوف عن الكراهية ، لم يعد يملك سوى الرثاء لتعسهم ، اذ انه لم يكن قادرا على أن يتبين فيه مكرهم . وسرعان ما أخمد هذا الاتجاه ـ الاكثر لطفا، ولكنه اقل سموا من اتجاهى السابق ـ حدة الاندفاع الذى ظل يجتاحنى طويلا .. وعدت ـ دون أن يفطن أحد ، بل ودون ان أفطن انا نفسى تقريبا ـ خجولا ، مجاملا ، هيابا .. عدت ـ بايجاز ـ جان جاك الذى كنته من قبل ، تماما !

ولو أن الانقلاب لم يؤد الا الى ردى الى حالى الطبيعية ، فلم يتجاوز ذلك ، لكان الأمر خيرا .. ولكنه ـ لسوء الحظ ـ ذهب الى ابعد من ذلك ، وحملنى مسرعا الى النقيض . ومنذ ذلك الحين، لم تعد نفسى ـ فى اضطرابها ـ تستقر فى نطاق الطمأنينة، ولامكنها التذبذب المتجدد باستمرار، من ان ترين هناك وتبقى . فلنخض دقائق هذا الانقلاب الثانى .. فقد كانت فترة رهيبة، مشئومة ، فى مصير لا مثيل له بين البشر !

* * *

. لما كنا مجرد ثلاثة أفراد فى مأوانا المنعزل (١) ، فقد كان من الطبيعى ان يؤدى الفراغ والوحدة الى توثيق تآلفنا . وهذا ما حدث بينى وبين « تيريز » ، فرحنا نقضى ـ تحت الاشجار الوارفة الظلال ـ ساعات عذبة ، ننعم خلالها بعزلة لم أتذوق من قبل مثل حلاوتها !.. ولاح لى أن ((تيريز)) هى الأخرى كانت اكثر اسمتاعا بخلواتنا منها فى أى وقت مضى ، ففتحت لى قلبها دون ما تحفظ، وأطلعتنى على أمور ـ عن أمها وأسرتها ـ أوتيت المقدرة على ان تكتمها عنى زمنا طويلا . فقد اعتادت وامها أن،

---

(١) (ليرميتاج) .. الكوخ الثانى الذى افردته له السيدة ديبيناى

يتلقيا من السيدة «دوبان» هدايا كثيرة ، كنت أنا المقصود بها ، ولكن العجوز الماكرة آثرت بها نفسها وأبناءها الآخرين ـ لتفادى غضبى ـ دون أن تدع شيئا لتيريز ، ومع تحذيرها ، أشد تحذير ، من أن تقول لى شيئا عنها .. وهو أمر كانت الفتاة المسكينة تنفذه فى طاعة تفوق التصور !

ومما أدهشنى أكثر من أى شىء آخر ، أن تبينت انه الى جانب الأحاديث المتكتمة ـ التى اكثر «ديدرو» و «جريم» من عقدها مع الأم وابنتها ليصرفاهما عني ، والتى لم تفلح بفضل مقاومة تيريز ـ فان الاثنين راحا يعقدان كثيرا من الاجتماعات السرية مع الأم ، دون ان تدرى الابنة شيئا مما كان يدبر بينهم .. كان كل ما علمته هو ان الهدايا الصغيرة كانت تلعب دورا فى الموضوع ، وانه كانت ثمة جيئات وروحات ، كانوا يحاولون التستر عليها ، وكانت هى تجهل الباعث عليها جهلا تاما !..

وعندما رحلنا عن (باريس)، كان قد انقضى وقت طويل، اعتادت خلاله السيدة لوفاسير زيارة ((جريم)) مرتين أو ثلاثا فى الشهر، حيث كانت تقضى بضع ساعات فى أحاديث كان الحرص على تكتمها يدعو الى اقصاء خادم ((جريم)) عن المسكن فى كل مرة !

وقدرت ان الباعث لم يكن سوى ذلك المشروع الذى حاول ديدرو وجريم أن يستدرجا الابنة اليه ، حين وعدا بأن يحصلا

لها ولأمها ـ بمعونة السيدة ديبيناى ـ على تصريح بالاتجار بالملح ، أو حانوت لبيع التبغ .. وبايجاز : عندما لوحا لهما بفرص الكسب . ولقد أوحى الى هاتين المراتين بأننى لم اكن فى وضع يمكننى من أن أفعل من أجلهما شيئا ، بلَ ولم اكن املك ـ بسببهما ـ أن أفعل شيئا لنفسى. ولما كنت لم أر فى كل هذا سوى نوايا حسنة، فاننى لم أحمل لأحد ضغينة، على الاطلاق. ولم يثرنى سوى الغموض ، لا سيما من جانب العجوز التى راحت ـ فوق كل هذا ـ تزداد رياء ودهاء نحوى ، يوما بعد يوم ، دون أن يمنعها ذلك من أن تلوم ابنتها باستمرار ـ وفى الخفاء ـ على انها كانت مسرفة فى حبها اياى ، وانها كانت تصارحنى بكل شىء، وانها لم تكن سوى غبية لن تلبث أن تتبين انها كانت ضحية غفلتها !

لقد أوتيت هذه المرأة أعلى درجات البراعة فى اصطياد عصفورين بحجر واحد ، وفى ان تخفى عن احد المتواطئين معها ما تلقته من الآخر، وان تخفى عنى أنا ما تسلمته من الجميع!.. وكان بوسعى أن أغفر لها جشعها ، ولكننى لا استطيع ان اغفر لها رياءها . اى شىء كان يجوز لها اخفاؤه عنى .. عنى انا ، الذى كانت تدرك تماما ان سعادته تكاد تعتمد كل الاعتماد على سعادة ابنتها وسعادتها هى ؟.. ان ما بذلته لابنتها ، انما كنت أبذله لنفسى . . أما ما فعلته من أجلها هى ، فقد كان جديرا بالعرفان منها .. كان حريا بها ان تعترف بالفضل لابنتها، على الاقل ، وأن تحبنى اكراما لحبها لابنتها التى كانت تحبنى !.. لقد انتشلتها من البؤس الكامل ، وكانت تستمد قوتها منى ، وكانت مدينة لى بكل أولئك المعارف الذين عرفت كل المعرفة كيف تفيد منهم !.. ولقد ظلت «تيريز» وقتا طويلا تعولها بما كانت تكسبه من عملها، وأصبحت تغذيها من خبزى !.. كانت مدينة بكل هذا لابنتها ، دون ان تفعل لهذه الابنة شيئا !.. وكانت بناتها الأخريات ـ اللائى منحتهن تيريز مهورا (دوطات)

استنفدت كل مالها ـ أبعد من ان يساعدنها ، بل انهن رحن يلتهمن مواردها ومواردى . وتبينت انه كان حريا بالسيدة «لوفاسير» ـ فى مثل هذا الموقف ـ أن تتطلع الى كصديقها الأوحد ، وكأصدق من يذود عنها ويكفلها ، **وبدلا من أن تكتم عنى الأمور التى كانت من ذات شئونى ، وبدلا من ان تتآمر ضدى فى عقر دارى ، كان عليها ان تطلعنى فى اخلاص على كل ما كان خليقا بأن يهمنى ، اذا ما علمت به قبلى .** فبأية عين كان بوسعى ـ اذن ـ ان أرى مسلكها الغادر ، الغامض ؟ .. وما الذى كان ينبغى ان اظنه ـ فوق كل شىء ـ عن المشاعر التى تذرعت بها لدى ابنتها ؟ .. أى جحود هائل كان جحودها، عندما سعت الى أن توسوس اليها ؟

كل هذه الخواطر ألبت فؤادى ـ فى النهاية ـ ضد هذه المرأة ، حتى اننى لم أعد أنظر اليها دون احتقار .. على أننى لم اكف قط عن أن اعامل أم شريكة حياتى باحترام ، وان ابدى لها ـ فى كل شىء ـ ما يبديه الابن من اعتبار وتقدير .. بيد أننى لم اكن ـ فى الحق ـ لأحب أن أمكث معها وقتا طويلا، ولم يكن بوسعى ان أغصب نفسى على مالا تحب !

وهنا أيضا كانت احدى تلك اللحظات القصيرة التى مرت بحياتى ، والتى رأيت فيها السعادة جد دانية ، دون ان أقوى على نيلها ، ودون أن يكون لى ذنب فى فواتها !.. ولو ان هذه المرأة كانت طيبة الشخصية ، لظل ثلاثتنا سعداء حتى نهاية أعمارنا .. ولكان آخر من يبقى منا على قيد الحياة وحيدا ، جديرا بالرثاء . ولكنكم سترون ـ بدلا من ذلك ـ تطور الأمور، وستحكمون بأنفسكم : أكان بوسعى أن أغير حال هذه المرأة ؟

ذلك ان السيدة لوفاسير ـ حين رأت أننى وطدت مكانتى فى فؤاد ابنتها ، وانها فقدت الفتاة ـ راحت تناضل لاستعادتها ، وبدلا من أن تتقرب منى عن طريقها ، أخذت تسعى الى ايغار صدرى عليها . وكان من الوسائل التى استخدمتها، أن استدعت

أسرتها الى معاونتها . وكنت قد رجوت تيريز بأن لاتستقدم احدا الى (ليرميتاج) ، فوعدتنى بذلك .. غير أنهم كانوا يستدعون فى غيابى ، ودون استشارتى ، وكانت تيريز تحمل على ان تعد بان لاتقول لى شيئا . وما ان تمت الخطوة الأولى ، حتى غدا كل شيء سهلا . فان المرء اذا أخفى ـ مرة ـ عمن يحب أمرا، فانه لايلبث أن يكتم عنه كل شىء ، دون تورع . فما أن كنت اذهب الى (لاشيفريت) (١) ، حتى كان (ليرميتاج) يزخر بأناس يقبلون على الاستمتاع بالمقام هناك فى استمراء . والأم دائما ما تكون قوية السلطان على الابنة التى فطرت على الطيبة .. ومع ذلك فان العجوز لم تستطع ـ رغم كل جهودها ـ أن تغرى تيريز على ان تأخذ بآرائها ، او ان تستدرجها الى التآمر ضدى . اما عن نفسها ، فانها كانت قد وطنت عزمها ـ دون انتكاس ـ على وضع خاص : فكانت تنظر ـ من ناحية ـ الى ابنتها والى انا ، كشخصين تستطيع أن تقيم فى دارهما فحسب .. وكانت تنظر ـ من ناحية اخرى ـ الى ديدرو ، وجريم ، ودولباخ ، والسيدة ديبيناى ، كأشخاص يعدون بأمور كثيرة ، ويمنحون بعض أشياء .. وما خطر لها قط انها كانت تخطىء اذ تسير فى ركاب زوجة ناظر عام للزراعة ، وبارون . **ولو اننى كنت دقيق النظر ، لرأيت ـ منذ ذاك الحين ـ اننى انما كنت أغذى أفعى فى أحضانى . بيد أن ثقتى العمياء ، التى لم يغيرها شىء حتى الآن ، كانت لاتدع لى سبيلا الى أن أحدس أن هناك من يبغى الشر بمن هو جدير منه بالحب !** .. وفى الوقت الذى كنت أرى فيه ألف دسيسة تحيط بى ، لم أكن أملك أن أشكو الا من جور أولئك الذين كنت أدعوهم أصدقاء لى ، والذين كانوا يسعون الى أن يجعلونى ـ بالرغم منى ـ سعيدا على نسقهم ، لا على

---

(١) (لاشيفريت) الضيعة التى كان بها قصر آل ديبيناى ، والتى كان (ليرميتاج) فى أقصى الغابات الملحقة بها .

النسق الذى كان يحلو لى !

ومع أن تيريز أبت أن تنحاز الى أمها فى تآمرها ، الا انها ابقت على سرها ، وكان باعثها على ذلك خليقا بالتقدير ، ولن أقطع بما اذا كانت قد أحسنت أو أنها أساءت ! .. **وعندما يكون بين امرأتين سر ، فانهما تشغفان بالثرثرة معا . وقد قرب هذا بين تيريز وأمها .** وأصبح مسلك تيريز – اذ وزعت ولاءها – يشعرنى ، فى بعض الأحيان ، بالوحدة ، لأننى لم أعد أعتبر ما كان بيننا نحن الثلاثة صحبة ومعاشرة . وفى تلك الفترة ، اشتد شعورى بالخطأ الذى ارتكبته ، فى بداية رابطتنا ، اذ اننى لم أستغل اللين الذى كان حبها يوحى به اليها ، لكى أزينها بمواهب ومعرفة كانت كفيلة بأن تقرب بيننا فى معتكفنا ، وبأن تملأ وقتها ووقتى على خير وجه ، دون أن تدعنا نشعر قط بفوات الوقت فى عزلتنا . وليس معنى هذا ان الحديث بيننا كان مجديا ، ولا انها أبدت آية بادرة تمت عن ملل خلال نزهاتنا ، وانما معناه انه لم يكن لدينا عدد من الآراء المشتركة يكفى لكى يكون موردا مدخرا .. ولم يكن بوسعنا أن نتكلم بلا انقطاع عن مشروعاتنا ، التى اقتصرت – منذ ذلك الحين – على لهونا . وكانت الأشياء المحيطة بنا توحى الينا بخواطر كانت فوق ادراك تيريز .

ولم تكن علاقة كعلاقتنا – دامت اثنتى عشرة سنة – بحاجة الى كلام ، اذ اصبح كل منا يعرف الآخر الى درجة لم يعد يجد معها سبيلا الى مزيد . ومن ثم فان المورد الوحيد الذى تبقى للحديث بيننا ، تمثل فى الثرثرة غير المجدية ، والفضائح ، والنكات الركيكة ! .. ولا يشعر المرء بقيمة العيش مع شخص يعرف كيف يفكر ، قدر ما يشعر فى العزلة ، بوجه خاص . أما أنا ، فلم أكن بحاجة الى هذه الميزة كى اهنأ بصحبة تيريز . بيد أن تيريز كانت بحاجة اليها كى تجد دائما مايسرها فى صحبتى . **وكان أسوأ ما فى الامر ، اننا كنا مضطرين الى أن نعقد لقاءاتنا**

الخاصة فى الخفاء ، اذ ان أمها أصبحت تضايقنى وتضطرنى الى ان أتحين الفرص لتلك الخلوات . . كنت مقيد الحرية فى دارى ، بأوجز تعبير . وكان جو الحب يفسد جو الصداقة . ومن ثم فاننا كنا نمارس علاقة بدنية ، دون أن نعيش فى محبة قلبية !

وما أن خيل الى اننى لاحظت على «تيريز» انها كانت تتعلل أحيانا للتهرب من النزهات التى كنت أعرض عليها أن تشاركنيها على الاقدام ، حتى كففت عن أن أقترحها عليها ، دون أن أطلعها على أى استياء من انها لم تكن تلقى فيهـا من المسرة ما كنت ألقى . ذلك لأن السرور شىء لا يتوقف على الارادة . ولقد كنت واثقا من ولاء قلبها ، فكان فى هذا الكفاية لى . . وطالمـا كانت مسراتى هى عين مسراتها ، فاننى كنت أقبل على الاستمتاع بها معها . . أما حين لا يكون الأمر كذلك ، فقد كنت أوثر رضاها على رضائى !

وهكذا قـدر لى ، وأنا نصف مخدوع بآمالى ، وقد رحت أمارس حياة تتفق ومزاجى ، فى بقعة منعزلة اخترتها لنفسى ، ومع شخص كنت أعزه . . هكذا قدر لى أن اشعر ـ رغم كل هذا ـ بأننى وحيد ! . . كان ما ينقصنى يحول دون تذوقى لما أوتيت ، فقد اعتدت ـ فيمـا يتعلق بالسعادة والسرور ـ أن أنال كل شىء ، أو لا أنال شيئـا على الاطـلاق ! . . ولسوف يتجلى ـ فيما بعد ـ السر فى ان هذا الايضاح بدا لى لازما . أما الآن ، فاننى أمضى فى رواية قصتى :

* * *

• **كنت** اؤمن بأننى أمتلك كنزا حقيقيا ، تمثل فى المخطوطات التى دفع بها الى الكونت دى « سان ـ بيير » . فلما فحصتها ، تبينت أنها لم تـكن أكثر من مجموعة من مؤلفات عمه ، التى نشرت من قبل ، وقد نقحت وصححت بيده ، وأضيفت اليها بضع قطع صغيرة أخرى لم تر الضوء من قبل . ومما كتبه فى

الموضوعات الخلقية ، تأكدت لى فكرة ، كانت قد أوحت لى بها بعض رسائل منه اطلعتنى عليها السيدة « دى كريكى » ، ومؤداها انه اوتى من العقل فوق ما كنت أتصور . **بيد أننى حين تعمقت فى فحص مؤلفاته السياسية ، وجدت انها لم تكشف لى الا عن آراء سطحية ، ومشروعات نافعة ولكنها ليست عملية بفضل الرأى الذى لم يقدر للمؤلف أن يتخلص منه .. الرأى القائل بأن البشر يهتدون فى أعمالهم بمعارفهم وليس بعواطفهم ! .. كانت الفكرة العظيمة التى داخلته بصدد ألوان المعرفة الحديثة ، جعلته يعتنق هذا المبدأ الزائف ، عن امكان وصول العقل الى درجة الكمال** .. المبدأ الذى قامت عليه كل النظريات التى اقترحها ، والمنبع الذى فاضت منه كل سفسطاته السياسية . ان هذا الرجل الفذ ، الذى كان مفخرة عصره وجنسه ، قد يكون الأوحد ــ منذ وجود العنصر البشرى ــ الذى لم يشغف فى حياته بغير العقل . ولكنه ــ مع ذلك ــ كان يتخبط من خطأ الى آخر فى آرائه ونظرياته ، رغبة منه فى أن يجعل كل الناس على نسقه ، بدلا من أن يأخذهم على علاتهم ، وعلى ما هم عليه ، وما سيظلون عليه ! .. ومن ثم فهو لم يكن يشقى الا من أجل كائنات وهمية ، وهو يخال انه انما يعمل من أجل معاصريه !

واذ تبينت كل هذا ، ألفيتنى فى حيرة من أمر القالب الذى أصوغ فيه عملى . فلو اننى أبقيت على آراء المؤلف ، لما أديت شيئا نافعا . ولو اننى عدلتها كما كان ينبغى ، لجاء عملى منافيا للأمانة ، اذ ان تسلمى المخطوطات كان الزاما لى بأن أكون أمينا ازاء مؤلفها . وأنتهيت اخيرا الى الراى الذى بدا لى أكثر ملاءمة ولياقة ، وأعظم حكمة ونفعا .. وذلك بأن أعرض آراء المؤلف وآرائى ، كلا على حدة ، وبذلك اخوض نظرياته ، وأوضحها ، وأوسع نطاقها ، دون أن أضن بشىء لكى تنال حظها من التقدير !

ومن ثم فقد كان لا بد لعملى من أن يتألف من جزءين منفصلين

تمام الانفصال .. أحدهما يخصص لشرح مختلف غايات المؤلف ، على النسق الذى ذكرته .. أما الثانى ــ الذى لم يكن ليظهر الا بعد أن يحدث الأول مفعوله ــ فكان على أن أعرض فيه حكمى على تلك الغايات ذاتها .. مما كان خليقا بأن يبينها، فى بعض الأوقات ، كقصيدة من نظم شخص مبغض للبشرية !.. وكان لا بد من أن يتوج هذا الكتاب كله بايراد حياة المؤلف ، **وكنت قد جمعت لذلك كمية لا بأس بها من المواد ، التى رحت أزين لنفسى اننى لن أشوهها اذ استخدمها . وكنت قد التقيت بالأب « دى سان ــ بيير » مرتين أو ثلاثا ــ فى شيخوخته ــ فكان التبجيل الذى أكنه لذكراه ضمانا يطمئننى الى ان السيد الـكونت لن يستاء من الطريقة التى عاملت بها قريبه ، فى مجموعها !**

وأجريت محاولتى الأولى على « السلام الدائم » ، أهم الأبحاث التى تضمنتها المجموعة وأكثرها نصيبا من العناية . وقبل أن استغرق فى أفكارى ، تجلدت فقرأت كل ما كتبه الراهب ــ فى هذا الموضوع البديع ــ بحذافيره ، دون أن أضيق قط بما كان يتخلل حديثه من اطالة وتكرار . ولقد اطلع الرأى العام على هذه الرسالة المستخلصة ،ومن ثم فليس لدى ما أقوله عنها . أما الحكم الذى ارتأيته بصددها ، فلم يطبع قط ،ولست أدرى ان كان سيطبع يوما ، ولكنه كتب فى ذات الوقت الذى أعدت فيه كتابة الرسالة . وانتقلت من ذلك الى نظرية « البوليسينودى » ، أو تعدد المجالس .. وهى الرسالة التى وضعها فى عهد الوصاية على العرش ، ليروج للنظام الحكومى الذى اختاره الوصى ، والذى أدى الى اقصاء الراهب « سان ــ بيير » عن المحفل الفرنسى ــ « الأكاديمى فرانسيز » ــ من جراء بعض رسالات كتبت ضد النظام الحكومى السالف الذكر ، الذي أحنق الدوقة «دو مين» ، والكاردينال « دى بولينياك» . وقد أتممت هذا العمل كما فعلت بسابقه ، سواء الرسالة أو

الحكم . ولكننى توقفت عند هذا الحد ، دون ما رغبة فى مواصلة هذا المشروع ، الذى ما كان ينبغى أن أبدأه !

وكان الخاطر الذى أوحى الى بنبذه ، قد وافانى من تلقاء ذاته . وكان من المدهش انه لم يخطر لى قبل ذلك. فان معظم كتابات الراهب ، كانت فى مجموعها - أو كانت تشتمل على - ملاحظات نافذة لبعض نواحى نظام الحكم فى فرنسا . وكان بعضها من الصراحة والتحرر بدرجة يعتبر معها الراهب مجدودا لأنه أفلت من العقاب الذى كانت خليقة بأن تجره عليه . على أنه كان يعتبر فى الأوساط الوزارية - طيلة الوقت - كواحد من المبشرين ، أكثر منه كسياسى حقيقى ، ومن ثم فقد ترك يقول كل ما كان يحلو له ، لأنه كان من الجلى أن أحدا لم يكن يصغى اليه . **غير أن الامر كان يختلف اذا ما حملت انا انتقاداته الى الاسماع .. ولقد كان فرنسيا ، ولم اكن أنا كذلك ، فاذا كررت انتقاداته - ولو باسمه - لتعرضت لأن اسال عنها سؤالا عسيرا صارما - ولكن دون ماظلم - عما كنت اقحم نفسى فيه. وقبل أن أوغل فى ذلك ، فطنت - لحسن الحظ - الى المأخذ الذى كنت اتيحه ضد نفسى ، وتراجعت مسرعا . فلقد كنت أدرك اننى - اذ اعيش وحيدا وسط رجال ، ورجال كلهم اقوى منى - لن اقوى قط ، ومهما تكن وسائلى ، على ان اقى نفسى أى اذى يحلو لهم ان يوقعوه بى .** ولم يكن ثمة فى وسعى - ازاء ذلك - سوى أمر واحد ، ذلك هو أن أجعل من المستحيل عليهم - اذا هم راموا ايذائى - أن يفعلوا ذلك ظلما . وهذا المبدأ - الذى جعلنى أهجر الأب « سان - بيير » - كثيرا ما حملنى على أن أطرح عنى كثيرا من المشروعات التى أعتز بها. والذين يبادرون دائما الى أن يجعلوا من المحنة جريمة ، كانوا خليقين بأن يدهشوا ، اذا عرفوا كل ما تجشمت فى حياتى ، لكى لا يقال لى - عن صدق - فى أوقات محنى : «لقد استحققتها تماما ! »

• **وتركنى** نبذ هذا العمل حائرا ــ بعض الوقت ــ بشأن ما اتولاه بعده . وكانت هذه الفترة من البطالة مضيعة لى ، اذ جعلتنى أحول أفكارى الى نفسى ، نظرا لعدم وجود مايشغلنى. فلم تعد لدى مشروعات للمستقبل تروق لخيالى ، كما أنه لم يكن من الميسور أن أدبر شيئا من هذه المشروعات ، لأن وضعى الراهن كان هو عين الوضع الذى جمع كل رغباتى .. ومن ثم فاننى لم أفكر فى مشروعات جديدة ، ومع ذلك فقد ظللت أشعر بفراغ . ومما زاد هذه الحال قسوة ، اننى لم أكن أجد مايفضلها اذ كنت قد أوقفت أرق عواطفى على امرأة راقت لفؤادى ، وقد بادلتنى هذه العواطف ، فعشت معها على سجيتى ، وفق ماحلا لى ، كما ينبغى أن يقال. **ومع ذلك فان ضيقا خفيا ظل يستولى على فؤادى ، لا يبرحه فى قربها ولا فى بعدها . وكنت أشعر ــ وأنا ضجيعها ــ انها ما زالت غير خالصة لى .. وكان مجرد التفكير فى اننى لم أكن لها كل من لها ، يجعلها تبدو لى شيئا لا يذكر تقريبا !**

وكان لى أصدقاء من الجنسين ، ارتبطت بهم بأخلص الود ، وبأكمل التقدير ، وكنت مطمئنا الى انهم يكنون لى ــ فى مقابلها ــ أصدق المشاعر ، فلم يخطر ببالى قط ــ ولو مرة واحدة ــ أن أرتاب فى اخلاصهم . ومع ذلك فقد كانت هذه الصداقة مبعث عذاب ــ لا نعيم لى ــ نظرا لعنادهم ، بل ولالحاحهم فى معارضة كل ميولى وأهوائى وطريقة حياتى ، الى درجة انه كان يكفينى أن أبدى رغبة فى شىء لا يهم سواى وحدى ، ولا يتوقف عليهم ، حتى أراهم يتآزرون ــ فى الحال ــ لاقناعى بالتخلى عنه . هذا الاصرار على السيطرة على كل أهوائى ــ الذى كان يزيده جورا أننى لم أكن بمنأى عن محاولة السيطرة على أهوائهم فحسب ، بل اننى لم أعن قط بتعرف هذه الأهواء ــ لم يلبث أن أصبح مرهقا لى الى درجة قاسية ، حتى اننى لم أعد ــ فى النهاية ــ أتسلم رسالة منهم ، الا وشعرت ، وأنا أفضها ، بشىء من

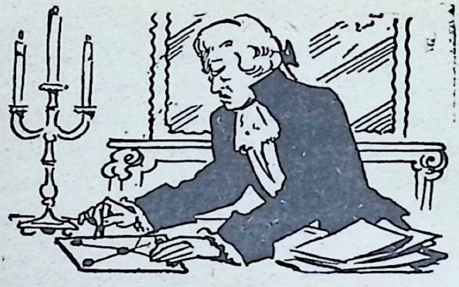

الخوف كانت مطالعة الرسالة لاتلبث أن تبرره ! . . ولقد تبينت ـ بالنظر الى انهم كانوا يصغرونني سنا ، وكانوا فى أشد الحاجة الى الدروس التى يخصونني بها ـ ان معاملتهم لى كانت أقرب ما تكون الى معاملة الكبار لطفل صغير . وكنت أقول لهم : **((أحبونى ، كما أحبكم . وفيما عدا ذلك ، فلا تتدخلوا فى شئونى ما دمت لا أتدخل فى شئونكم . وهذا جل ما اسألكم اياه !))** . واذا كانوا قد اولونى أحد المطلبين ، فمن المؤكد انه لم يكن المطلب الأخير !

ولقد كان لى مسكن ناء ، فى عزلة فاتنة ، وكنت سيد دارى وربها ، وكان بوسعى أن أعيش هناك على هواى ، دون أن يفرض على مخلوق سيطرته . ولكن هذه السكنى فرضت على واجبا كان اداؤه يحلو لى ، لولا انه كان محتوما على . فلم تكن حريتي بأسرها سوى أمر موقوت . بل انها كانت خاضعة لسلطان يفوق مجرد الأوامر . . وكنت مضطرا الى قبولى هذا الوضع باختيارى . . **لم أكن أملك صباحا واحدا أستطيع ان أقول فيه لنفسى ، وانا استيقظ : ((سأستغل هذا اليوم كما يحلو لى)) . فالى جانب اننى كنت رهنا لتدبيرات السيدة ديبيناى ، كنت رهنا كذلك لازعاج اكبر .. ازعاج الجمهور والوافدين** . اذ ان المسافة التى كانت تفصلنى عن باريس ، لم تحل دون أن يأتى

الى يوميا زرافات من المتبطلين ، الذين كانوا لايعرفون كيف يفيدون من وقتهم ، اللهم الا ان يبددوا وقتى دون اى اكتراث! .. وكنت افاجأ بهجومهم دون رحمة ، وانا ابعد ما اكون عن توقعهم . . ونادرا ما رسمت خطة بديعة لنهارى ، دون ان اراها تقلب راسا على عقب ، من جراء وصول وافد !

وقصارى القول اننى ــ فى غمرة النعم التى كنت أشد ما اكون شوقا اليها ــ لم أحظ قط بالسرور الخالص . . فرحت أرتد وثبا الى أيام صباى الصافية ، وكنت أهتف لنفسى أحيانا، وأنا أتنهد : « آه !.. لست هنا فى (شارميت) ! » (١)

* * *

• وأفضت بى ذكريات المراحل المتباينة من حياتى ، الى التفكير فيما انتهيت اليه، ورأيتنى وقد بلغت أعتاب الشيخوخة، فريسة لشرور اليمة .. واعتقدت اننى كنت اقترب من نهاية حياتى العملية ، دون أن أكون قد نعمت فى أوجها بشىء من تلك المتع التى كان القلب يصبو اليها .. ودون ان أكون قد أفسحت المجال لتلك المشاعر المتوقدة . التى كنت اشعر بأن قلبى كان يدخرها .. ودون أن أكون قد استمرأت ، بل دون أن أكون قد تذوقت ــ على الاقل ــ تلك اللذة المسكرة، التى كنت أحس بها فى أعماقى ، فى عنفوانها ، والتى كان افتقادها الهدف والمجال يجعلها دائما مكبوحة ، عاجزة عن أن تنطلق بكل قواها اللهم الا خلال زفراتى !

فكيف قدر لرجل حبته الطبيعة بروح واسعة الآفاق،وكانت الحياة لديه هى الحب .. كيف قدر لى ان أعجز ــ حتى ذلك

---

(١) « شارميت » بقعة فى الريف السويسرى ، قضى فيها « روسو » فترة النقاهة التى قدر له بعدها ،ان يفترق عن عن السيدة « دى فاران »

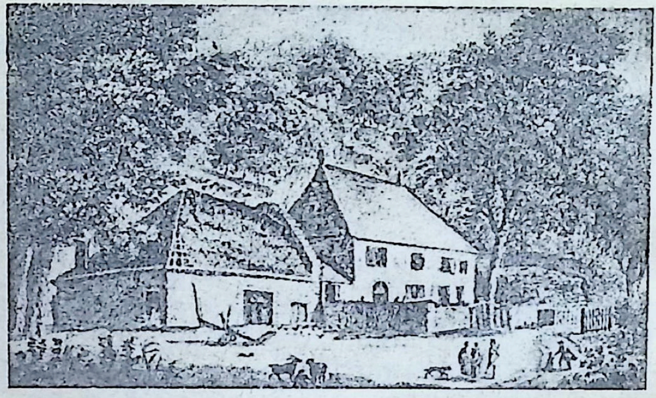

(لاشارميت) .. البيت الذى شهد اجمل ايام الغرام بين ((روســو)) ومدام دى فاران ، والذى ظــل ((روســو)) يحن اليــه فى شيخوختــه

الحين ـ عن العثور على صديق يكون لى كل نفسه .. صديق صادق ، وأنا الذى كنت أشعر اننى خلقت لكى أكون كذلك؟.. كيف قدر لى ، وقــد أوتيت مشاعر متأججة ، وقلبــا مفعما بالحب ، أن لا أكتوى مرة واحــدة ـ على الأقل ـ بلهب هــذا الحب ، من أجــل شخص معين ؟ .. ورأيت نفسى اقترب من أعتاب الشيخوخة ، والحاجة الى الحب تفرى فؤادى، دون أن أملك قط لها ارضاء أو اشبــاعا .. رأيتنى أوشك ان أموت ، دون ان أكون قد نعمت بالحياة !

هذه الخواطر الحزينة ـ وان كانت ناعمة مفعمة بالحنان ـ حملتنى على أن أرتد بأفكارى الى نفسى فى حسرة لم تخــل من

لذة !.. فقد لاح لى ان القدر كان مدينا لى بشىء لم يستطع أن يمنحنيه . فلماذا خلقت اذن بميزات ومواهب طيبة ، اذا كان قد قدر لى ان أتركها الى النهاية دون أن أستغلها ؟.. كان الشعور بقيمة الميزات الكامنة فى نفسى ، يوحى الى بالشعور بالغبن ، ولكنه كان ـ فى الوقت ذاته ـ يعوضنى بما يخفف من وطأته ، ويحملنى على ان أذرف الدمع الذى كنت ارتاح الى أن أتركه ينساب !

* * *

• **وافتنى** هذه الخواطر فى أجمل فصول السنة .. فى شهر يونيو، وفى البساتين الرطبة، بين شدو البلابل وخرير الجداول .. لقد تكالبت جميعا على دفعى الى أحضان هذا النعيم المغرى الذى خلقت له .. ولكنها دفعتنى فى حالة ذهنية قاسية ، صعبة ، تولدت عن المشاعر التى ظلت تتفاعل طويلا فى نفسى ، فكانت كفيلة بأن تسلمنى الى هذا الوضع الى الأبد!.. ووجدتنى ـ لشقوتى ـ أميل الى تذكر مائدة العشاء فى قصر (تون) (١) ، والتقائى بتلكما الفتاتين الساحرتين(٢) ، فى فصل من العام كهذا الذى كنت فيه ـ فى هذه المرحلة ـ وفى بقعة قريبة الشبه من هذه التى كنت فيها فى الآونة التى اتحدث عنها.. ولقد اجتلبت لى هذه الذكرى ـ التى زادها فتنة ما كان فيها من ريح البراءة ـ ذكريات أخرى من نوعها . **وما لبثت أن رأيت الاشخاص والأشياء التى أيقظت مشاعرى فى صباى ، تتجمع حولى : الآنسة جالى ، والآنسة دى جرافينرييه ، والآنسة دى بريى ، والسيدة بازيل ، والسيدة دى لارناج ، وتلميذاتى الحسان .. حتى «جولييتا» اللاذعة، التى لم يستطع قلبى ان يسلوها !..**

---

(١) ورد ذكر هذه المناسبة فى الجزء الاول ، صفحة ١٥٤ .

(٢) روى « روسو » قصة هذا اللقاء فى الصفحات من ٢١٦ الى ٢٢١ من الجزء الاول .

وألفيتني محوطا بسراب من الحوريات ، من معارفي القديمات ، اللائي لم يكن الشوق المتأجج نحوهن ، بالشعور الجديد لدي .. وفار دمي وسخن ، ودارت رأسي بالرغم من شعري الذي دب اليه الشيب ، واذا بالمواطن الجنيفي الجاد الوقور ، واذا بجان جاك المتقشف الذي أشرف على الخامسة والأربعين من عمره ، يرتد فجأة هائما وراء الحب .. ومع ان النشوة التي تملكتني، كانت مباغتة وجامحة ، الا انها كانت قوية وثابتة ، فلم يكن من سبيل الى شفائي منها ، الا عن طريق نوبة الشقاء الفظيعة ــ غير المرتقبة ــ التي اسلمتني اليها هذه النشوة ذاتها !

بيد ان هذه النشوة لم تصل ــ رغم ما ذهبت اليه ــ الى الحد الذي يجعلني انسى سني ومركزي، فأخدع نفسي بأن لدي القدرة على ان أوحي الحب الى الحسان، مرة أخرى .. أو الى الدرجة التي تجعلني أحاول ان افرج عن هذا اللهب المتأجج ، وان كان غير مثمر ، اللهب الذي كنت اشعر ــ منذ طفولتي ــ بقلبي يحترق فيه عبثا !.. بل انني ما كنت آمل في ذلك ، ولا كنت اشتهيه ، فقد أدركت ان زمن الهوى قد ولى، وكنت من الشعور بالسخرية التي تنهال على العشاق اذا ما غووا في كبرهم، بحيث انني كنت أربأ بنفسي ان اتعرض لها .. وما كنت بالرجل الذي ينقلب مغرورا معتدا بنفسه في سني التداعي، بعد ان كنت مقسطا في سني ازدهاري !.. ثم انني ــ كمحب للسلام ــ كنت أخشى العواصف المنزلية ، وكنت أحب تيريز في اخلاص بالغ يجعلني اربأ بأن اعرضها للوعة رؤيتي منساقا الى سواها ، بمشاعر أشد احتداما من تلك التي كانت تثيرها في نفسي !

فما الذي تراني فعلت ، في هذه المناسبة ؟

لابد ان يكون قارئي قد حدس تصرفي، لو انه كان قد تتبعني ــ حتى الآن ــ في شيء من الانتباه !

ذلك ان استحالة اقتناص المخلوقات الحقيقية ، طوحت بي الى عالم الأوهام والخيالات .. وعندما عز على ان ارى في

الوجود من هم أهل لصبابتى ، وحتى اغذى هذه الصبابة من عالم مثالى ، سرعان ما عدره خيالى الخصب باناس ممن يميل اليهم فؤادى !.. ابدا ما لقى هذا المنبع منى مثل هذا الترحيب، وابدا ما كان يوما مثمرا الى هـذا الحد ! .. ورحت فى نوبات الهيام أسكر بجرعات دسمة من أبهج المشاعر التى دبت يوما فى قلب انسان !

وتناسيت العنصر البشرى تماما ، فجعلت لنفسى مجتمعات من مخلوقات اتسمت بالكمال.. مخلوقات سماوية فى فضائلها وجمالها .. أصدقاء أمناء ، موفورى الحنان والوفاء ، لا سبيل الى مثلهم فى العالم الدنيوى . وشغفت بالتحليق فى هذه الآفاق، بين الأطياف الفاتنة التى كانت تحف بى ، حتى أننى أصبحت أنفق الساعات ، بل الأيام فى ذلك ـ دون حساب ـ وانسى كل شىء آخر ، فما ان التهم لقمة من طعام فى عجلة ، حتى أتحرق لهفة الى الفرار ، لكى أهرع الى الاحراش ثانية. فاذا قدر لى ـ وقد تأهبت للانتقال الى عالمى السحرى ـ أن أرى تعسا من أهل الأرض يفد ، فاننى كنت أعجز عن أن أتلطف أو أن أكتم غيظى ، وكنت ـ اذ أفقد سيطرتى على نفسى ـ أستقبلهم فى جفاء ، يكاد أن يوصف بالعنف غير المهذب. ولم يؤد هذا الا الى زيادة اشتهارى بأننى مبغض للبشر ، فى حين أنه كان خليقا بأن يكسبنى شهرة مناقضة لذلك ، لو أتيح للناس ان يقرأوا قلبى، حق القراءة !

* * *

• وفى أوج نشوتى الكبرى ، وجدتنى أجذب كما تشد الطائرة الورقية بالخيط ، لأرد الى مكانى الطبيعى ، بفضل نوبة حادة من نوبات دائى . فاستخدمت العلاج الأوحد الذى كان يسرى عنى، الا وهو المجسات (١)، الأمر الذى أوقف غرامياتى

(١) روى « روسو » حديث مرضه وعلاجه ابتداء من صفحة ١٣٨ (٥٩٢) من الجزء الثالث .

الملائكية !.. ذلك لأنه الى جانب ان المرء لايميل الى الهوى وهو يعانى الألم ، فان خيالى ـ الذى اعتاد أن يذكو فى الريف وتحت الأشجار ـ يذوى ويحتضر داخل الحجرات ، وتحت ألواح السقوف الخشبية. ولكم كنت اتحسر اذ أذكر أن ليس لجنيات الغاب(١) وجود ، فلا مراء فى اننى كنت خليقا بأن اوقف عليها عواطفى !

وضاعف من أساى ان حدثت فى تلك الفترة ذاتها ، متاعب منزلية أخرى . فلقد كانت السيدة لوفاسير ماضية فى بذل قصارى جهدها لتؤلب ابنتها على، فى الوقت الذى كانت تؤثرنى فيه بأبدع المجاملات.. ولقد تلقيت رسائل من جيرانى القدامى، انبئت فيها بأن العجوز الداهية ، كانت قد تورطت ـ دون علمى ـ فى ديون عديدة ، باسم «تيريز» وبعلمها .. ولكن هذه لم تذكر لى شيئا عنها . ولم استأ لاضطرارى الى دفع هذه الديون ، بقدر ما استأت لأنها ظلت مكتومة عنى ! .. كيف تسنى لمن لم أكتم عنها سرا ، أن تخفى عنى مثل هذا السر ؟.. وهل للمرء أن يخفى امرا عن اولئك الذين يحبهم ؟ .. وكانت عصبة «دولباخ» قد بدأت تخشى جديا ـ اذ رأتنى لا أزور باريس ـ أن أكون قد استطبت الاقامة فى الريف ، واننى قد أكون من الحماقة ـ فى رأيهم ـ بحيث أبقى هناك . ومن ثم بدأت المشاغبات التى أريد بها حملى ـ بأسلوب غير مباشر ـ على العودة الى المدينة . وبدأ « ديدرو » ـ الذى لم يشأ أن يكشف عن دوره سريعا ـ بأن صرف عنى « ديلير » الذى كنت قد عرفته به ، والذى تلقى ماشاء ديدرو ان يوحى به اليه من مجازات ، فنقلها الى دون أن يدرى الغرض الحقيقى الذى كان مقصودا بها !

---

(١) « الدرياد » .. جنيات الغاب . فقد ورد فى أساطير الاغريق ذكر غابة كانت تتقمص كل شجرة فيها حورية ، او جنية فاتنة .

ولاح كأنما اجمع كل شىء على انتزاعى من أوهامى الناعمة ، الطائشة !.. وقبل أن أفيق من نوبة المرض ، تلقيت نسخة من قصيدة خراب (برشلونة) ، التى ظننت انها أرسلت الى من لدن المؤلف (١) ، فألزمنى هذا بأن أكتب اليه ، وبأن اتحدث عن قصيدته .. وهذا ما فعلته فى خطاب طبع بعد ذلك دون أن أستشار فى أمر نشره ، كما سيرد فيما يلى :

فلقد ذهلت اذ رأيت هذا المسكين يتخبط فى حيرته – كما ينبغى أن يقال – ازاء الثروة والمجد ، فيحمل فى مرارة على محن الحياة وتعاساتها ويخلص الى أن كل ما فى الحياة شر وسوء ، فتولتنى رغبة رعناء فى أن أرده الى رشده ، وأن اثبت له أن كل ما فى الحياة خير وطيب. **فالواقع أن «فولتير» – وان بدا دائما مؤمنا بالله – لم يؤمن قط بغير الشيطان !.. اذ ان الهه المزعوم لم يكن سوى كائن شرير ، لايجد لذة – فى رأى فولتير – الا فى الأذى . واذا كان سخف هذا الرأى واضحا، الا أنه مثير لصدوره – بوجه خاص – من رجل أثقل بالخيرات من كل نوع ، فاذا به يسعى – من أحضان هنائه – لبث القنوط فى نفوس أقرانه، بأن يصور لهم كل النكبات – التى كان هو بمنجى عنها – فى صورة بشعة قاسية !..** ولما كنت أحق منه بأن أعدد مساوىء الحياة الانسانية وأن أزنها ، فقد استعرضتها فى غير تحيز ، وأثبت له أن الحكمة الالهية براء من كل هذه المساوىء .. وان هذه انما تدين بأصولها الى سوء استخدام الانسان لمواهبه ، أكثر منها الى الطبيعة ذاتها . ولقد عاملته فى هذا الخطاب بكل اعتبار، وكل مراعاة، وكل تلطف.. بل انى لأذهب الى القول بأننى عاملته بكل احترام ممكن. ولما كنت اعرف مدى سهولة اهتياج حبه لنفسه ، فانى لم أبعث بهذه الرسالة اليه شخصيا ، وانما أرسلتها الى الدكتور «ترونشان» – طبيبه

---

(١) كانت من قصائد « فولتير » .

وصديقه ــ وخولته مطلق السلطان فى أن يسلمهـا اليه أو ان يكتمها عنه ، وفقا لمـا يراه مناسبـا .. وقدم « ترونشـان » الرسـالة ، فرد على فولتير ببضعة سطور أبدى فيهـا انه كان مريضا ، وسـاهرا على مريض ، ومن ثم فانه رأى ان يرجىء رده الى وقت آخر .. ولم يقل شيئا فى الموضوع . **واذ أرسل لى ترونشان هذا الخطاب ، ارفقه بآخر منه ، أعرب فيه عن قلة تقدير للشخص الذى عهد به اليه !**

ولم اقدم قط على نشر هذين الخطابين ، بل ولا على اطلاع احد عليهمـا ، فما أحببت قط عرض مثـل هـذه الانواع من الانتصارات الصغيرة ، بيد ان اصولها موجودة فى اضابيرى (الملف «أ» ، رقما ٢٠ و ٢١) . ولقد نشر فولتير ــ بعد ذلك ــ الرد الذى وعـدنى به ، والذى لم يرسله الى قط . وما هـذا الرد سوى قصة «كانديد» ، التى لا املك ان اتحدث عنهـا ، لأننى لم أقرأها !

* * *

• **كانت** كل هـذه الشواغل خليقـة بأن تبرئنى تماما من غرامياتى الوهمية . . ولعلها كانت وسيلة أرسلتها السماء الى لتحول دون معقباتها المشئومة . ولكن نجمى المنحوس كان فى صعود ، فما ان شرعت فى الخروج ثانية ــ بعد شفائى ــ حتى عاد رأسى وقلبى وقدمى الى عـين الدروب السـالفة . وأقول «عين» فى نطـاق ضيق ، اذ أن آرائى كانت ــ فى هـذه المرة ــ أقل سموا وجمـوحا ، فظلت على الارض . ولـكنها أحسنت اختيار نخبة من كل ما أمكنها العثور عليه من الاشياء المستحبة ، فلم تكد هذه النخبة تقل فى وهميتها عن العـالم الوهمى الذى هجرته !

فلقد رسمت لنفسى الحب والصداقة ــ وهما معبودا قلبى ــ فى أبدع الاشكال الخلابة . وطاب لى أن أزينهمـا بكل ما كنت

اعجب به دائما من مفاتن الجنس . ولقد ملت الى تصورهما صديقتين ، وليسا صديقين ، لان مثل هذا المثال من الصداقة، وان كان نادرا ، الا أنه أكثر ملاءمة ولطفا فى الوقت ذاته ! . وخلعت عليهما شخصيتين متجانستين وان كانتا مختلفتين ، ووجهين ليسا بالغى الكمال ، ولكنهما يلائمان مزاجى ، يشعان رحمة واحساسا. وجعلت احداهما سمراء، والأخرى ناصعة البياض .. احداهما كثيرة الحركة والمرح ، والأخرى رقيقة هادئة .. احداهما عاقلة حكيمة ، والأخرى ضعيفة ، ولكنه ضعف يهفو بالأفئدة ، الى الدرجة التى تمكن الفضيلة من

الكسب بفضله !.. ووهبت احدهما حبيبا ، كانت الاخرى صديقته الحنون .. بل واكثر من ذلك. ولكننى لم ادع مجالا لتزاحم ، أو خصام ، أو غيرة ، لأنه من العسير على ان أتصور المشاعر المؤلمة ، ولم أشأ ان اشوه الصورة الفاتنه بشىء يحط من قدر الطبيعة . واذ شغفت بالنموذجين الفاتنين ، تمثلتنى - قدر الامكان - العاشق والصديق.. بيد أننى جعلته مليحا وشابا ، وخلعت عليه - فوق ذلك - ما كنت أراه فى نفسى من فضائل وعيوب .

ولكى أضع هاتين الشخصيتين فى وسط يلائمهما ، رحت أستعرض - تباعا - أجمل البقاع التى رأيتها خلال أسفارى .

ولكنى لم أهتد الى أحراش ذات بهجة كافيــة ، ولا بلد كاف لتحريك العواطف ، وفق ما كان يروق لى. ولقد كانت ودبان (تيسالى) خليقة بأن ترضينى، لو اننى كنت قد رأيتها. ولكن خيالى كان قد تعب من الابتكار، فرغب فى بقعة حقيقية تصلح لأن تكون أساسا ، ولأن توحى الى بصورة عن حقيقــة أولئك الذين كنت أزمع أن أسكنهم هذا المكان . ولقــد فكرت طويلا فى جزر بوروما (١) ، التى كان منظرها الساحر قد أطربنى . ولكنى وجدت فيها من الوشى والزينة المصطنعةأكثر مما كنت أبغى لشخصيــاتى . ومع ذلك ، فقــد كان لابد من بحيــرة ، فانتهيت الى اختيــار تلك التى لم يكن قلبى يكف عن التحويم حولها . واستقررت على ذلك الجزء من الشاطىء الذى كانت أمانى قد أقامت عليه مقامى منذ أمد بعيد ، فى السعادة الوهمية التى جعلنى حظى اقتصر عليهــا .. فلقد ظل مسقط رأس «ماما» المسكينة ينطوى على سحر خاص بالنسبة لى . وأدى تباين المواقع ، وغنى البقاع وتنوعها ، وروعة ، وجلال المنظر فى مجموعها .. هذه الصفات التى تبهر الحواس، وتهز القلب، وتســمو بالروح ، أدت الى ان أقــر الرأى ، وان أوطد مقــام شخصياتى الشابة الحبيبة فى (فيفاى) .. كان هــذا جماع ما تصورته اذ ذاك ، أما الباقى فلم يضف اليه الا فيما بعد .

ولقد قصرت نفسى على هــذا المشروع المبهم المعالم ، زمنا طويلا ، اذ انه كان كافيا لأن يملأ خيالى بأطياف مستحبــة ، وفؤادى بعواطف كان يحب ان يتغذى عليها . ولم تلبث هذه التصورات أن أكتسبت ــ بحكم تكرر ترددها على ــ قــدرا كبيرا من الثبات، فوطدت نفسها فى عقلى، تحت شكل محدد. واذ ذاك ، خطر لى أن أعبر على الورق عن بعض المواقف التى كانت توحى الى بها ، فاسترجعت كل مشاعر شبابى ، لأتيح

---

(١) فى بحيرة ماجيورى .

المجال ــ الى مدى معين ــ للرغبة فى الحب .. تلك الرغبة التى لم أستطع قط ان أشبعها، والتى كنت أشعر بأنها تلتهمنى !

والقيت على الورق ــ فى البداية ــ بضعة حروف متناثرة ، دون تسلسل او ترابط . **وكنت كلما حاولت ان اضم بعضها الى بعض ، أجد نفسى فى حيرة شديدة . والامر الذى لايكاد أن يبدو معقولا ، وان كان هو الحقيقة بعينها ــ رغم ذلك ــ هو أن الجزءين الأولين كتبا بأسرهما ــ تقريبا ــ بهذه الطريقة، دون ان يكون لدى خطة مكتملة التكوين ، بل ودون أن أتوقع أن انساق يوما الى أن أجعل منهما عملا أدبيا منسقا .** ومن ثم فسوف يرى ان هذين الجزءين المؤلفين ــ بعد وقت طويل ــ من مواد لم تكن مهيأة للمكان الذى وضعه فيه، مليئان بحشو من كلام مسهب ولكنه مقل فى معناه ، مما لايوجد فى الأجزاء الأخرى .

* * *

• **وفى** عنفوان تخيلاتى، زارتنى السيدة «دوديتو»: فكانت هذه أول زيارة تؤديها لى فى حياتها، ولكنها ــ لسوء الطالع ــ لم تكن الأخيرة ، كما سيبدو فيما بعد .. وكانت الكونتة «دوديتو » ابنة المرحوم السيد دى بيلجارد ، الناظر العام للزراعة ، واخت السيد ديبيناى والسيدين دى لاليف وديلا بريس ، اللذين صارا من «مقدمى السفراء» (١) . ولقد ذكرت من قبل ، كيف تعرفت اليها قبل زواجها . ولكنى لم أرها بعده الا فى الحفلات التى كانت تقام فى (لاشيفريت) ، وفى ضيافة اخت زوجها ، السيدة ديبيناى. واذ قدر لى ان اقضى عدة أيام معها ، سواء فى (لاشيفريت) أو فى (ايبيناى)، فاننى لم أجدها مفرطة اللطف فحسب ، بل اننى خلت اننى رأيت منها

---

(١) مقدمو السفراء ، كانوا موظفين يتولون تقديم السفراء والامراء الاجانب عند زيارتهم الملك او رئيس الدولة .

ميلا نحوى . وكانت جد مشغوفة بالتريض معى على الاقدام، وقد كان كل منـــا قديرا على المشى ، ولم يكن الحـــديث يفتر بيننا . بيد اننى لم ازرها قط فىباريس،بالرغم من انها دعتنى بل والحفت على فى ذلك . ولقد زاد من اهتمامى بها، علاقاتها مع السيد « دى سان ـ لامبير » ، الذى كانت عرى الصداقة قد بدأت تتوثق بينى وبينه . . ومن أجــل ابلاغى أنباء هذا الصديق ، كان مجيئها الى (ليرميتاج) .

ولقد بدت هذهالزيارةـ الى حد ما ـكفاتحة قصة غرامية. ذلك لأنها ضلت الطريق ـ اثنـاء قدومها ـ اذ انحرف سائق عربتها عنالطريق عند منحنى فيها، وأراد أن يقتضبالمسافة، بأن يسعى فى خط مستقيم بين الطاحون القـائمة فى (كليرفو) و (ليرميتاج) . ولكن العربة غاصت فى الوحل فى قاع الوادى الصغير ، **فقــررت السيدة أن تبرحهــا وان تقطع ما بقى من الرحلة على قدميها . ولكن حذاءيها الرقيقين لم يلبثا أن ابتلا، ثم غاصت هى فى الوحل ، ولقى خدمها أشد العناء فى تخليصها**

.. وقدر لها أن تصــل أخيرا الى (ليرميتاج) ، وقــد ارتدت حذاءى رجل، وسط رنين الضحكات التى مزجت بها ضحكاتى حين شــهدت منظر الوصول !.. وكانت السيدة مضطرة الى أن تغير جميع ثيابها . وقد تولت « تيريز » هذه المهمة ، بينما

اقنعتها انا بأن تطرح عنهـا كبرياءها ، وان تشاركنـا وجبة (تصبيرة) ريفية ، لم تلبث ان استمرأتها . وكان الوقت قـد فات ، فلم تمكث سوى برهة وجيزة . بيد أن اللقاء كان مرحا ، وقد راق لها ، وبدا عليها الميل الى أن تأتى مرة أخرى . ومع ذلك فانها لم تحقق ذلك الا فى العام التالى . ولكن ، واأسفاه .. ان هذا الارجاء لم يعصمنى فى شىء !

* * *

• وقضيت خريف تلك السنة فى عمل لا يخطر ببال احد .. ذلك هو حراسة فواكه السيد ديبيناى . فلقد كان خزان المياه التى تروى بساتين (لاشيفريت) يقوم عند مبنى (ليرميتاج) ، وكانت ثمة حديقة محوطة بأسوار حجرية ، وقد زرعت فيها اشجار متباينة ، كانت تمد السيد ديبينـاى بفواكه تفوق فى كميتها انتاج الحديقة الملحقة بمطابخ (لاشيفريت) ، رغم ان ثلاثة ارباعها كان يسرق . ولـكى لا اكون ضيفا عديم النفع ، فانى تكفلت بشئون الحديقة ، وبالاشراف على البستـانى . وسار كل شىء على ما يرام ، حتى حان موسم الفاكهة ، فاذا بها تختفى تباعا ، كلما نضجت ، دون ان ادرى ما كان يحل بها . واكد لى البستانى ان جرذان الحقل التهمتها جميعا ، ومن ثم فقد اعلنت الحرب على الجرذان حتى قضيت على كثير منها . ومع ذلك فقد ظلت الفاكهة فى اختفاء . **واحكمت الرقابة حتى اكتشفت اخيرا ان البستانى نفسه ، كان الجرذ الاكبر .. فلقد كان يقيم فى (مونمورنسى) ، وكان يفد مع زوجته واولاده فى جنح الليـل ، فيحملون الكويات التى يكون قـد اعدها ــ فى النهار ــ من الفاكهة ، ليعرضها الرجل للبيع فى سوق (باريس) جهارا ، وكأنه اوتى بستانا ملك يمينه !..** وكان هـذا التعس الذى اغرقتـه بخيراتى ، والذى كسمت تيريز اولاده ، والذى اصبحت أعول اباه تقريبا ، بعد ان كان يتسول .. هذا التعس

كان يسرقنا نحن ايضا ، بسهولة وقحة ، اذ لم يكن بيننا نحن الثلاثة من اوتى يقظة كافية لأن توقفه عند حده ! . ولقد استطاع ــ فى ليلة واحدة ــ ان يفرغ قبو مسكنى ، فاذا بى لا أعثر فيه على شيء ، فى الصباح التالى !

ولقد كنت أحتمل أعماله، عندما كان يبدو انه يقصر نشاطه على وحدى .. أما وقد رغبت فى تحمل مسئولية الفاكهة ، فاننى اضطررت الى ان أفضح السارق . ورجتنى السيدة ديبيناى أن انقده اجره ، وأسرحه من الخدمة ، وابحث عن سواه. ففعلت.. ولما راح هذا الشقى يحوم حول (ليرميتاج) فى كل ليلة ، متسلحا بقضيب حديدى ضخم ، كان يبدو كالهراوة ، ومتبوعا بأنذال آخرين من صنفه ، فقد رأيت لكى اطمئن «الدادتين» (١) اللتين افزعهما هذا الرجل الى اقصى حد، ان أدعو خليفته لأن ينام فى (ليرميتاج) كل ليلة . ولكن هذا لم يهدىء من روعهما ، فطلبت من السيدة ديبيناى بندقية احتفظت بها فى غرفة البستانى، مع تنبيهه الى عدم استعمالها الا عند الحاجة ــ عندما تبدر محاولة لاغتصاب الباب أو تسور الحديقة ــ وان لا يطلق فى هذه الحال سوى البارود ، لمجرد ارهاب اللصوص . ولا مراء فى أن هذا كان أقل احتياط يتخذ من اجل السلامة العامة لرجل معلول ، يقضى الشتاء وسط الغابات ، وحيدا مع امرأتين رعديدتين . وحصلت أخيرا على كلب صغير ليستخدم فى الحراسة .

واذ جاء «ديلير» لزيارتى فى تلك الفترة ، فقد رويت له قصتى ، وضحكت معه من استعدادى العسكرى . فلما عاد الى (باريس) ، رغب فى ان يضحك «ديدرو» بدوره . . ومن هنا علمت عصبة «دولباخ» اننى كنت أعتزم جادا ان أقضى الشتاء فى (ليرميتاج) ، فأسخطهم هذا الاصرار على عزمى ، اذ

---

(١) « الدادتان » هو الاسم الذى اطلقه أصدقاء « روسو » على تريز وأمها .

لم يكن بوسعهم ان يتصوروه وعملوا ــ ريثما يرسمون بعض الأحابيل لكى يعكروا اقامتى (١) ــ الى الوقيعة ، عن طريق «ديدرو» ، بينى وبين «ديلبير» ، الذى اعتبر احتياطى ــ فى البداية ــ مجرد أمر طبيعى ، ولكنه لم يلبث أن انتهى الى انه أمر مناقض لمبادئى ، واسوأ من أن يستحق السخرية فحسب.. وصارحنى بذلك فى خطابات أغرقنى فيها بنكات لاذعة ، بلغ من لذعها انها كانت تمس كرامتى ، لو ان مزاجى كان ميالا الى هذا الاتجاه . ولكننى كنت مغرقا ــ اذ ذاك ــ فى المشاعر الرقيقة ، اللطيفة ، فلم أشك فى أى شىء آخر ، واعتبرت سخرياته اللاذعة مجرد مداعبات للاضحاك ، كما اعتبرت «ديلبير» مجرد ماجن ، فى حين ان أى امرىء غيرى كان خليقا بأن يعتبره مخبولا ! (٢)

وبفضل اليقظة والعناية ، افلحت تماما فى حماية الحديقة ، التى درت ثلاثة أمثال ما درته من الفاكهة فى العام السابق ، رغم أن المحصول كان فاشلا ــ تقريبا ــ فى هذه السنة . بل اننى رافقت الشحنات التى أرسلتها الى (لاشيفريت) و (ايبيناى) ، وحملت بنفسى بعض السلال . وانى لأذكر اننى و «العمة» (٣)

---

(١) عقب « روسو » على هذه النقطة ــ بعد الفراغ من كتابة اعترافاته ــ بقوله : « اننى ــ فى لحظتى هذه ــ اعجب من غبائى اذ لم ابصر ، عندما كنت أكتب هذه السطور ، ان الاستياء الذى استشعرته عصبة « دولباخ » ــ حين تبينت اننى كنت مزمع الاقامة فى الريف ــ لم يكن راجعا الا الى انهم لم يعودوا يجدون السيدة لوفاسير ، فى متناول يدهم ، لترشدهم فى خططهم بان تحدد لهم الاماكن والمواعيد . وهذه الفكرة ــ التى لم تتوانى الا أخيرا جدا ــ توضح تماما غرابة مسلكهم الذى يبدو غير واضح تحت أية افتراضات أخرى » .. ولم يوجد هذا التعقيب فى اية طبعة سابقة على سنة ١٨٠١ مما ينم عن ان هذه الفكرة واتته عندما لم تعد النسخة الثانية من المخطوطات فى حوزته .

(٢) أضاف « روسو » الى هذه العبارة : « ومن ثم فان الذين حرضوه ، اضاعوا جهدهم سدى فى هذه المناسبة . فقضيت الشتاء فى هدوء بالغ ! »

(٣) العمة : لقب اعتاد « روسو » ان يطلقه على « تيريز »

حملنا فى احدى المرات سلة بلغ من ثقلها اننا اضطررنا ـ لكى نتفادى التداعى تحت وطأة الحمل ـ الى أن نستريح كل اثنتى عشرة خطوة .. ووصلنا ـ فى النهاية ـ مبللين بالعرق !

سنة ١٧٥٧

• **عندما** شرع فصل الطقس السىء فى الزامى مسكنى ، وددت ان أعاود مهامى التى تؤدى فى البيت ، ولكننى لم أجد الى ذلك سبيلا ، اذ اننى لم أعد أرى فى كل مكان سوى الصديقتين الفاتنتين (١)، وصديقهما، وما يحيط بهما، والبلد الذى يقيمان فيه ، والاشياء التى خلقهما خيالى أو هذبها من اجلهما . ولم أعد ملك نفسى لحظة واحدة ، فان هذا الحلم لم يعد يفارقنى ، وبعد جهود كثيرة ، غير مجدية ، لاقصاء هذه الرؤى الخيالية عنى ، وجدتنى انساق لغوايتها ، فلا اشغل منذ ذلك الحين الا بمحاولة توفير شىء من النظام وشىء من التتابع فيها ، لكى اجعل منها نوعا من القصص الخيالى .

وكان أعظم ما حيرنى ، هو ذلك الخجل الذى ساورنى ، اذ شعرت باننى أناقض نفسى صراحة وفى جرأة . أفبعد المبادىء الصارمة التى أرسيتها بكل هذا الضجيج، وبعد الآراء التقشفية التى رحت ابشر بها بكل هذه القوة ، وبعد الحملات اللاذعة التى حملتها على الكتب الناعمة (المخنثة) التى كانت تفوح بالحب والميوعة .. أفبعد كل هذا يكون ثمة ما هو أبعد عن الارتقاب، وأدعى للدهشة والاستنكار ، من ان أرى فجأة وقد انضويت ـ بمحض ارادتى ـ بين مؤلفى تلك الكتب التى انتقدتها بكل هذه القسوة ؟!.. لقد أحسست بهذا التذبذب فى عنفوان قوته، فرحت ألوم نفسى ، واستحيى منها ، واسخط عليها .. ولكن كل هذا لم يكن كافيا لأن يردنى الى حجاى . وكان على ـ فى

---

(١) يقصد الشخصيتين اللتين ابتدعهما خياله ـ

انصياعى التام ـ ان أخوض كل المخاطر، وان أتهيأ لمواجهة كل مايقال .. وان أعد ذهنى لكل شيء اللهم الا ان اتعرض لأن اقرر ـ فيما بعد ـ ما اذا كنت أنشر كتابى على الناس، أو لا انشره. اذ انني لم اكن اعتقد انني قد أنشره !

واذ انتهيت الى هذا الرأى ، ألقيت بكل نفسى فى غمرة تصوراتى ، وبفضل تقليبها فى ذهنى مرارا ، رسمت فى النهاية مشروع الخطة التى شاهد الرأى العام الكتاب يخرج بمقتضاها. ومن المحقق ان هذا كان خير ما يستمد من نزواتى .. فان حب الخير ، الذى لم يغادر قلبى البتة ، حول هذه النزوات تحويلا طبيعيا نحو أهداف نافعة ، كان من الممكن ان تغدو مثمرة وذات نفع خلقى . لقد كانت مناظرى المستوحاة من الحب خليقة بأن تفقد بهاءها، لو أعوزتها صبغة البراءة اللطيفة. ان الفتاة الضعيفة تكون موضع اشفاق، قد يجعله الحب مادة مشوقة لاتفتر متعتها فى كثير من الأحيان . ولكن منذا الذى يطيق ـ دون استنكار ـ منظر الآداب والاخلاق فى اطار حديث؟ .. اى شيء ادعى للتقزز من غرور الزوجة الخائنة ، التى تدوس كل واجباتها تحت قدميها جهارا، ثم تزعم ـ رغم ذلك ـ ان زوجها خليق بأن يتقبل فى عرفان عميق ، ما تمنحه من صنيع، اذ تتكرم فلا تدع نفسها تباغت وهى تمارس الخيانة؟! .. ليس للمخلوقات المثالية الكاملة وجود ، ومن ثم فان الدروس التى توحى بها جد بعيدة عن ان نستسيغها . **اما اذا قدر لشابة ، منحتها الطبيعة قلبا يزخر بالشرف بقدر ما هو مفعم بالحنان ، ان تدع الحب يغلبها وهى فتاة عذراء، ثم تجد من نفسها القوة على ان تهزمه بدورها ـ وقد غدت امرأة ثيبا ـ لتغدو عفيفة من جديد ...! ان الذى يقول لك ان هذه الصورة فى مجموعها فاضحة ، وغير مفيدة ، لكاذب ومنافق ، فلا تصغ اليه ، مهما يكن !**

وكان لدى الى جانب الاخلاق والامانة الزوجية ـ اللذين

مدام دودينو (للفنان مورو الشاب)

الغرام الحقيقى الذى جلب على «روسو» المصائب والحزازات

٦٠٤ يرتبطان ارتباطا جوهريا بكل نظام اجتماعى ــ هدف أعمق واكثر تواريا .. ذلك هو التوافق، والوئام العام.. وهو هدف اعظم من سابقه، وربما كان ــ فى حد ذاته ــ اكثر قيمة واهمية .. بل انه كان كذلك فى تلك الآونة حقا .. ولم تكن العاصفة التى اثارتها «الموسوعة» (١) قد خمدت، بل انهـا كانت ــ فى هذه الفترة ــ فى أوج احتدامها. فقد انطلق كل من الفريقين (٢) يهاجم الآخر فى سعار جامح، وكأنهمـا قطيعان من ذئاب مسعورة، تأهب كل منهمـا لأن يمزق الآخـر فى هياجه .. لا فريقان من مسيحيين (٣) وفلاسفة تواقين لتبادل المعرفة والاقناع، كى يهدى كل منهما الآخر الى طريق الحقيقة !.. بل انه لمن الجائز ان يقال ان كلا من الفريقين لم تكن تنقصه سوى قادة عاملين ذوى شهرة، كى ينقلب النزاع الى حرب اهلية !.. ويعلم الله ما كان يترتب على حرب أهلية دينيـة، كانت أقسى ألوان التعصب تكمن فى قرارة كل من الجانبين !

* * *

• ولما كنت بفطرتى عدوا لكل تحزب، فاننى افضيت الى كل من الجانبين بالحقائق المريرة التى أبوا ان ينصتوا اليهـا. وانطت بنفسى مهمة أخرى تراءت لى ــ فى سذاجتى ــ جديرة بالاعجاب. تلك هى ان اخفف من العداء المتبادل بين الفريقين، وان أقوض اباطيلهما ونعراتهما، وابين لكل كفاءة الآخر وفضائله وجدارته بالتقدير العام، وباحترام الجنس البشرى بأسره (٤).

---

(١) اورد « روسو » ذكر « دائرة المعارف » أو « الموسوعة » فى صفحة ١١٥ (٥٦٩) من الجزء الثالث .

(٢) يقصد أنصار المشروع ومعارضيه .

(٣) يستعمل « روسو » كلمـة « المسيحيين » هنا بمعنى المتمدينين المتنورين .

(٤) كان تنفيذ هذه المهمة يتمثل فى انتاج كتاب هو محور حديثه فى هذه الفقرات .. وهو كتاب « جولى » .

ولقد ظفر هــذا المشروع غير المعقــول ــ الذى قادنى الى عين الخطأ الذى اخذته على الأب «سان بيير» ــ بالنجاح الذى كان يستحقه . اذ انه لم يقرب بين الفريقــين ، وانما ألبهمــا معا ضدى !.. والى ان تكشفت لى حمــاقتى ، اقبلت عليها بكل حماس جدير بالحــافز الذى ألهمنيها ، كما ينبغى ان يقــال ، فرسمت شخصيتى «فولمار» و«جولى» ، وأنا فى نشوة حملتنى على ان آمل فى ان اجعلهما معــا خليقين بالحب ، وان يتسنى ذلك عن طريق حب كل منهما للآخر !

واذ ارتحت الى رسم الهيكل البــدائى لمشروعى ، عدت الى المواقف التى كنت قد عينتها للتوسع والتفصيل. فأدى النظام الذى رتبتها بمقتضاه ، الى الجزءين الأولين من كتاب «جولى»، الذى كتبته وفرغت من نسخه خلال شهور الشتاء ، فى غبطة لا سبيل الى وصفها ، مستعملا ابدع ورق مذهب الحواف ، ومستخدما مســحوقا ازرق وفضيا لتجفيف مداد الــكتابة ، وشريطا ازرق لا مثيل له لربط صفحات كراساتى . وموجز القول اننى لم اضن بكل شىء انيق وبديع على فتاتى الفاتنتين ، اللتين عشقتهما وكأننى «بيجماليون» آخر (١) . فكنت فى كل مساء ، أقرأ ــ الى جانب مدفأتى ــ هذين الجزءين وارددهما على سمع «الدادتين» . فكانت الأبنة تذرف معى الدمع حنانا، دون ان تنبس ببنت شفة . اما الأم التى لم تجــد فيما كنت أقرأ أية مجاملات، فانها لم تفقه شيئا ، فكانت تمكث ساكنة، مكتفية بأن تردد لى دائما ، فى لحظات الصمت : «هــذا بديع جدا يا سيدى» !

وأقلق السيدة «ديبيناى» ان تعلم اننى كنت وحيدا ــ فى

---

(١) « بيجماليون » ملك زعمت الأساطير الاغريقية أنه صنع تمثالا من عاج ، للمرأة ــ كما كان يراها ــ فاذا به يتدله فى هوى التمثال ، حتى بثت «افروديت» الحياة فى العاج ، فانقلب التمثال انثى تزوجها الملك الفنان .

الشتاء ـ وسط الغابات ، وفى منزل منعزل، فراحت تكثر من ايفاد من يتسقطون أنبائى. وما تلقيت قط مثل هذه الشواهد الصادقة على مودتها لى ، كما ان مشـاعرى لم تكن يوما اكثر حرارة ممـا كانت فى مقابلة ودها . وانى لأذنب اذا اغفلت ان أذكر من هذه الشواهد انها أرسلت الى صورتهـا ، وسألتنى ان آذن لهـا بالحصول على صـورتى ، بريشة «لاتور » ، ثم عرضتها فى قاعة جلوسها (صالونها) . كذلك ينبغى الا اغفل لفتة أخرى من لفتاتها ، قد تبدو مضحكة ، ولـكنها من معالم تاريخ شخصيتى ، وذلك بفضل الاثر الذى احدثته فى نفسى. ففى ذات يوم ، وقـد اشتد تكاثف الصقيع ، فضضت حزمة ارسلتها هى لى ، وضمنتها عدة اشياء تكفلت باعـدادها لى ، فوجدت بينها «جونلة» داخلية قصيرة، من «الفانيلا» الانجليزية، ذكرت انها اعتادت ان ترتديها، وأعربت عن رغبتها فى ان اصنع منها صدارة . وكان اسلوب رسالتها ساحرا ، مليئا بالحنان والسذاجة . **وبدا لى هـذا الدليل على العنـاية ـ الذى كان يفوق كل ما تمليه الصداقة ـ بالغ الحنـان ، حتى لكأنها قد تعرت لـكى تكسونى ، وحتى اننى ـ فى جيشـان عواطفى ـ قبلت الرسالة و ((الجونلة)) عشرين مرة ، وانا أبكى ! وظنت ((تيريز)) اننى قد اختبلت !..** ومن العجيب حقا ان شيئا من دلائل الود ـ التى أسبغتهـا على السيدة ديبيناى ـ لم يؤثر فى نفسى قدر ما أثر هذا الدليل الذى ما اعتدت أن أتذكره دون أن تخفق مشاعرى ، حتى بعـد القطيعة التى ضربت بيننا . وقد احتفظت برسالتها القصيرة أمدا طويلا ، وكنت خليقا بأن أظل محتفظا بها ، لولا انها لقيت مصيرها مع رسائلى الأخرى التى تمت الى هذه الفترة (١)

---

(١) نشرت هذه الرسالة فى مذكرات السيدة ديبيناى ، وقد جاء بها :

←

ومع ان احتباس البول لم يدع لى نصيبا يذكر من الراحة ، فى ذلك الشتاء ، ومن اننى كنت أضطر — لفترة من الزمن — الى استخدام المجسات .. مع ذلك فان هذا الفصل كان أمتع الفصول التى قضيتها — منذ وصولى الى فرنسا — واكثرها هدوءا ! .. ففى خلال الشهور الأربعة أو الخمسة التى ساعد سوء الطقس على زيادة اعتكافى وعزلتى عن الزائرين ، استمرأت هذه الحياة المستقلة ، المسترسلة ، البسيطة ، كما لم أستمرئها من قبل .. ولم يزدها الاستمراء — فى نظرى — الا قيمة .. ولم يكن لى من انيس سوى « الدادتين » — فى عالم الحقيقة — وابنتى جنسيهما ، فى عالم الفكر . وفى ذلك الوقت بالذات ، رحت أهنىء نفسى يوما بعد يوم ، على القرار الذى اوتيت من حسن الادراك ما مكننى من اتخاذه ، دون ان أحفل بنصيحات أصدقائى .. الذين أغضبهم ان رأونى أفلت من تسلطهم (١) .. ولكم حمدت السماء عندما سمعت عن محاولة معتوه (٢) ، وحين حدثنى « ديلير » والسيدة « ديبيناى » ، فى خطاباتهما ، عن الاضطرابات والقلاقل التى سادت باريس ، اذ كنت بمنأى عن مناظر الارهاب والجريمة ، التى لم يكن لها من أثر سوى تغذية وشحذ المزاج الصفراوى ،

ارسل الى ناسكى هذه الأشياء للسيدتين لوفاسير . ولما كان الرسول الذى استخدمه جديدا ، فهاك بيان ما أرسلت معه » .. وفى نهاية الأشياء قالت : « وقطعة من « الفانيلا » الحريرية جد صالحة لها (اى السيدة لوفاسير) لتصنع منها صدارة مناسبة لها ، او لك أنت ، وعم صباح يامالك الدببة ! » .. ومن الواضح أن هذه الرسالة لا تستحق كل هذا الاسهاب الذى ذكرها به «روسو» ، ولكن ايرادها فى سياق ذكرياته — على هذا النحو — يدل على مدى تقديره لما كان أصدقاؤه يؤثرونه به من كرم وعطف ، وعلى أن ما لقيه من بعض هؤلاء الأصدقاء ، لم يحمله على أن يجد أفضالهم فى أوقات الصفاء !

(١) يقصد قرار النزوح عن باريس والاعتكاف فى الريف .

(٢) محاولة اغتيال الملك لويس الخامس عشر ، فى ٤ يناير سنة ١٧٥٧ .

الذى كان مرأى الاضطرابات العامة يثيره فى نفسى .. فى حين اننى لم اكن ارى نفسى ـ فى هذه الفترة ـ محوطا بغير أطياف باسمه ، وادعة ، فكان فؤادى غير منســاق لغير الأحاسيس المستحبة اللطيفة . اننى لأسجل هنا فى انتشــاء ، سير تلك اللحظات الوادعة التى كانت آخر ما أتيح لى أن أنعم به . فان الربيــع الذى أعقب هذا الشتاء الهادىء ، شهد تفتــح بذور المصائب التى بقى على أن أصفها ، والتى لن يقــدر لامرىء أن يرى ـ خلال نسيجها ـ فترة تشبه هذه التى كنت استطيع ان اجد فيها متنفسا !

* * *

• ومــع ذلك ، أرانى أتذكر اننى ـ خــلال هــذه الفترة المطمئنة ، بل وفى أعماق عزلتى ـ لم أبق بمنجى تام من عصبة « دولباخ » . فقد أثار « ديدرو » بعض مضايقات لى ، وما لم اكن موغلا فى الخطأ ، فاننى اظن ان « ابناء السفاح » ـ وهى القضية التى سأتحدث عنها توا ـ ظهرت فى هــذا الشتاء . ولست بحاجة الى أن اذكر عــددا جد ضئيل من الوثائق التى يمكن الاستناد اليها فيما يتعلق بهذه الفترة .. بل ان الوثائق التى تركت لى منها ، غير دقيقة التواريخ الى حد كبير . فان ديدرو لم يكن يثبت التاريخ على رسائله قط ، وكذلك لم تكن السيدة ديبيناى والسيدة دوديتو تؤرخان خطاباتهما بغير ذكر إسم اليوم ، وكان ديلير يحذو حذوهما فى اكثر الاحيان . فلما اردت ان ارتب هذه الرسائل ، كان على ان اتحسس طريقى فى الظلام لأحدس تواريخ لايمــكن الجزم بصحتها ، ولا املك ان اركن اليها . **ومن ثم فاننى ـ اذ اعجز عن اثبات بداية هذه الفتن والخلافات بدقة ـ اوثر ان اروى فيما بعد ـ فى قسم منفصل ـ كل ما استطيع ان اذكره عنها .**

ولقد ضاعفت عودة الربيع من شطحاتى العاطفية ، فاذا بى

فى نوباتى الولهانة أصوغ ــ للجزءين الأخيرين من « جولى » ــ عدة خطابات تطفح بالنشوة التى كنت فيها وانا أكتبها . واستطيع ان اذكر الرسالة التى دارت حول جنة الوثنيين ، والرسالة التى وصفت النزهة على ضفاف البحيرة ، وهما اللتان ــ اذا صح ما اذكر ــ تختمان الجزء الرابع . فاذا قدر لأحد ان يقرأ هاتين الرسالتين دون أن يشعر بقلبه يلين ويذوب فى نفس المشاعر التى أملتهما على ، فخير له أن يغلق الكتاب ، لأنه غير قدير على أن يعرف للأشياء العاطفية قيمتها !

وفى تلك الآونة بالذات ، تلقيت زيارة ثانية ــ لم تكن مرتقبة ــ من السيدة ((دوديتو)) . فلقد وفدت على (أوبون) ــ فى وسط وادى مونمورنسى ــ فى غياب زوجها ، الذى كان ضابطا فى الشرطة ، وعشيقها الذى كان كان ذلك فى السلك العسكرى . وكانت قد اتخذت لاقامتها هناك بيتا بديعا للغاية . ومن هذا البيت ، جاءت فى نزهة ثانية الى (ليرميتاج) . وقد قامت بهذه الرحلة على صهوة جواد ، وفى زى الرجال . ومع اننى لا أميل الى مثل هذا الخلط فى الأزياء ، الا اننى اعجبت بما كان فى تنكرها هذا من جو شاعرى ، خيالى .. **وكان شعورى فى هذه المرة هو .. الحب !** . واذ كانت هذه هى المرة الأولى ــ والوحيدة ــ فى حياتى بأسرها ، وقد تركت معقباتها أثرا

على ذاكرتى طبع بقوة لا تجعله ينمحى ، فلا بد لى من أن اخوض هذه المسألة بشيء من التفصيل

كانت السيدة الكونتة دوديتو تقترب من عامها الثلاثين ، ولم تكن جميلة على الاطلاق ، فقد ترك الجدرى آثاره على وجهها ، وكانت بشرتها تفتقد النعومة ، كما انها كانت قصيرة النظر ، ذات عينين مستديرتين أكثر مما ينبغي .. بيد انها أوتيت مع كل هذا اشراقة الشباب ، وكانت قسماتها ـ التى جمعت بين الحيوية والرقة ـ جذابة .. وكانت تمتلك فيضا من شعر أسود رائع ، مجعد بطبيعته ، ومنسدل حتى ركبتيها .. أما قوامها ، فكان صغيرا لطيفا ، وكانت تودع كل حركاتها خفرا وبهاء فى وقت واحد . وكان ذكاؤها عاديا ومقبولا للغاية ، وقد اقترن فيه المرح وخلو البال والسذاجة أهنأ اقتران . فكانت تنساب فى سيل من الدعابات الفاتنة التى لم تكن تتكلفها البتة ، والتى كانت تنطلق بالرغم منها احيانا . **وكانت على كثير من المواهب المستحبة ، فكانت تتقن العزف على ((البيانو)) ، وتجيد الرقص ، وتقرض اشعارا بديعة الغاية** . اما اخلاقها ، فكانت ملائكية ، باطنها رقة النفس ، وظاهرها الحكمة والقوة والجمع بين كل الفضائل .. وكانت ـ فوق كل هذا ـ أهلا للثقة فى المعاشرة ، وذات وفاء فى الصحبة ، الى درجة ان اعداءها أنفسهم لم يكونوا بحاجة الى ان يتستروا منها . واقصد باعدائها اولئك الذين ، أو بالأحرى اولئك اللائى كن يكرهنها . اما من ناحيتها هى ، فقد كانت ذات قلب لا يقوى على ان يكره احدا .. واعتقد ان هذا التشابه فى الطباع ، قد ساعد كثيرا على اذكاء وجدى نحوها !

وما سمعتها قط ـ فى الخلوات التى كانت تمتاز بأوثق مظاهر الود ـ تتحدث بسوء عن الغائبين ، بل ولا عن اخت زوجها !.. **وما كانت تملك ان تخفى ما بفكرها عن اى مخلوق ، ولا ان تكبح شيئا من مشاعرها ، حتى اننى لأميل الى الاعتقاد بأنها**

كانت تتحدث عن عشيقها الى زوجها ، بنفس الصراحة التى كانت تتحدث بها عنه الى أصدقائها ومعارفها وكل الناس على السواء ! .. واخيرا ، فان الذى يثبت ـ دون مراء ـ نقاء واخلاص فطرتها الرائعة ، هو انها كانت تتعرض لأعجب نوبات شرود الذهن ، ولأكثر نوبات السهو مدعاة للضحك ، وكثيرا ما كانت هذه النوبات تفتقد الحكمة ـ بالنسبة لها هى بالذات ـ ولكنها لم تكن لتمس قط اى انسان بما يجرح كرامته !

وكانت قد زفت ـ وهى بعد صغيرة ، وبالرغم عنها ـ الى الكونت دوديتو ، الذى كان ذا جاه ، وكان عسكريا شهما ، ولكنه كان مقامرا ، شرسا ، يعوزه اللطف ، فلم تحبه هى قط .. وانما وجدت فى السيد « دى سان ـ لامبير » ، كل ما كان لدى زوجها من خصال طيبة ، الى جانب صفات اخرى اكثر ملاءمة .. فمن ذكاء ، الى فضائل ، الى مواهب . ولو جاز للمرء ان يغفر شيئا من طباع ذلك العهد ، فانما الجدير بالغفران حقا هى العلاقة التى لا تزداد مع الزمن الا صفاء ، ولا تزيدها آثارها الا تكريما وتمجيدا ، ولا يدعمها سوى الاحترام والتقدير المتبادلين ! (١)

* * *

• **وعلى** قدر ما يخيل الى ، كانت قد صدرت فى زيارتها لى عن قليل من ميلها الخاص ، وكثير من الرغبة فى ارضاء

---

(١) توفيت هذه السيدة وهى فى الثالثة والثمانين من عمرها ، وقد ظلت الى آخر حياتها محتفظة بطيبة نفسها ، واحترام عواطفها وخيالها ، وميلها الى اللهو والمسرات الذهنية . وكانت ذات براعة فى قرض الشعر . وقد قالت فى قصيدة ودعت بها عشيقها « سان ـ لامبير » ، قبل رحيله للخدمة العسكرية :

« الحبيب الذى أعبده .. وقد تاهب لفراقى

« بقيت له لحظة .. فاراد أن يستغلها »

« يا لها من متعة باطلة .. يشتهى اقتناصها

« وما أشد الضنى .. ليصبح المرء لذة ! »

« سان ــ لامبير » . فقد كان يستحثها على ذلك ، وكان على صواب اذ اعتقد ان الصداقة التى بدأت تقوم بيننـا ، كانت خليقة بأن تجمل هذه الصحبة ملائمة مستحبة لثلاثتنا. وكانت تعلم اننى مطلع على علاقتهما ، ومن ثم فان فى استطاعتها ان تتحدث الى عنه دون حرج ، كانت كفيلة بأن تجعلها ترتاح الى صحبتى . **ومن ثم جاءت .. واستقبلتهـا .. وكنت نشوانا بحب غير ذى هدف منظور ، فاذا النشوة تسحر عينى ، واذ الهدف يتركز عليها هى . فرأيت «جولى» ــ التى ابتدعتها ــ فى السيدة « دوديتو » .. ولم اعد ــ بعد قليل ــ ارى سوى السيدة « دوديتو » فقط ، وقد اكتست بكل اسباب الكمال التى كنت ازين بها معبودة قلبى !** .. ولـكى تسكرنى تماما ، راحت تحدثنى عن « سان ــ لامبير » فى وجـد مشبوب .. فيالسلطان الهوى المضيع ! .. لقـد استولت على ــ اذ كنت اسمعها ، واذ كنت اشعر بالقرب منها ــ قشعريرة عذبة ، لم اعهدها قـط فى قرب اى شخص ! .. وراحت تتـكلم ، وانا نهب للانفعالات .. ووهمت اننى لم اكن مهتما بغير مشاعرها، فاذا بى احس بمشـاعر على شاكلتها .. ورحت اجرع ــ فى دفعات كبيرة ــ الكأس المسمومة التى لم اعد اتذوق فيها سوى الحلاوة العذبة ! .. وفى النهاية ، بعثت فى نفسى نحوها ــ دون ان أفطن ، ودون ان تفطن هى ــ كل ماعبرت عنه من مشاعرها نحو حبيبها . واحسرتاه ! .. **كان الوقت المناسب قد فات ، وكان من القسوة ان احترق بوجد مشبوب ــ لم يكن فى عنفه باقل منه فى تعاسته وشقوته ــ نحو امرأة ، كان قلبها مليئـا بحب آخر !**

وبالرغم من الانفعالات الغريبـة التى خامرتنى فى قربها ، فاننى لم افطن ــ فى البداية ــ الى ما أصابنى .. ولم يكن ذلك الا بعد رحيلها ، وعندما أردت أن أفكر فى «جولى» ، فاذا بى ابهت اذ وجدت اننى لم أعد اقوى على التفكير فى غير السيدة

دوديتو . واذ ذاك ، انجابت الحجب عن عينى ، واحسست بسوء حظى ، فرحت ائن واتأوه .. ولكننى لم أحدس ما كان هناك من نتائج !

ولقد ترددت طويلا بصدد الطريقة التى انتهجها فى تصرفى نحوها ، وكأنما كان الحب الحقيقى قد خلف من العقل ما يكفى لكى اتخير لنفسى المسلك ! .. ولم اكن قد انتهيت الى قرار ، عندما جاءت مرة اخرى ، ففاجأتنى على غير استعداد . **وفى هذه المرة ، أيقنت من موقفى ، فاذا الحياء - قرين السوء - يعقل لسانى ، فرحت ارتجف امامها ، دون أن أجرؤ على أن افتح فمى ، أو أن أرفع عينى .. كنت فى اضطراب لا سبيل الى وصفه ، حتى لقد كان من المستحيل ان لا تكون قد ابصرته . واعتزمت ان اصارحها ، وان ادعها تحدس السبب .. فقد كنت بهذا كانني أبوح لها بصراحة تامة !**

ولو اننى كنت شابا ومليحا ، وكانت السيدة دوديتو قد ابدت ضعفا ، من جراء هذا ، لأقدمت هنا على لوم مسلكها . ولكن شيئا من هذا لم يكن ، ولم أكن أملك سوى ان أطرى مسلكها واعجب به ! .. وكان الرأى الذى اتخذته ، يجمع بين الكرم والحكمة . فما كان بوسعها ان تنأى عنى فجأة ، دون ان تذكر السبب لسان - لامبير ، الذى اوصاها - بنفسه - بأن تزورنى .. ومعنى هذا ، تعريض صديقين للقطيعة ، وقد يترتب عليه فضيحة كانت راغبة فى تفاديها ! . وكانت تكن لى كل تقدير ، وكل خير . ولقد رثت لخبلى ، وراحت تلتمس له المعاذير - فى غير تملق ولا رياء - وحاولت ان تبرئنى منه .. ولقد كان يسرها ، كل السرور ، ان تتمكن من الابقاء - لنفسها ولحبيبها - على صديق كانت تقدره حق قدره . ولم تحدثنى عن شىء ، بمثل الاغتباط الذى راحت تحدثنى به عن الود ولطف المعاشرة اللذين نستطيع ان نوثقهما بيننا ، نحن الثلاثة ، عندما أعود الى رشدى .. على انها لم تقتصر تماما على هذه

المواساة الودية ، ولم تعفنى - عند الحاجة - من تأنيبات كانت أقسى مما كنت استحق !

* * *

• ولم اكن اقل منها قسوة فى تأنيب نفسى ! .. فما هو أن اصبحت وحيدا ، حتى عدت الى نفسى ، واذا بى اكثر هدوءا ، بعد ان بحت بما كنت أكتم .. فان الحب اذا ما عرف لتلك التى اوحت به ، يغدو اكثر احتمالا ! .. ولا بد ان الشدة التى رحت الوم بها نفسى على الحب الذى استشعرته ، كانت كفيلة بأن تبرئنى منه ، لو ان هذا كان ميسورا ! .. اية حوافز قوية لم استنجد بها لخنق هذا الحب ؟ ! .. ان قوانينى الخلقية ، وأحاسيسى ، ومبادئى ، وحيائى ، وخيانة العهد ، والاجرام ، واساءة استغلال الوديعة التى ائتمنت عليها بحكم الصداقة ، والسخرية التى كان يستوجبها تحرقى - فى مثل هذه السن - بأشد الصبابات جموحا ، نحو هدف لم يردعنى انشغال قلبه ، ولا سمح لى بأى رجاء .. صبابة كانت - فوق كل هذا - بعيدة عن ان تمتاز بما يكفل لها الدوام ، بل انها راحت تتجاوز حد الاحتمال ، يوما بعد يوم .. كل هذه الامور والاعتبارات ، فكرت فيها !

منذا الذى يصدق ان الاعتبار الاخير ، الذى كان كفيلا بأن يرجح كفة الاعتبارات الأخرى ، كان هو الذى أوهن قوتها جميعا ؟ ! .. فلقد قلت لنفسى : « أية هواجس أحفل بها ازاء نزوة حمقاء ، لا يتعذب بها سواى ؟ » .. أفأنا مغازل شاب يحق للسيدة دوديتو ان تخشانى ؟ .. ألن يقال - على ضوء ما كانت توحيه الى نزعات الغرور - ان تظرفى ، ومسلكى ، ومظهرى قد اغوتها ؟ .. اذن ، فاحبب ما شاء لك الهوى ، يا جان جاك البائس .. احبب وانت مرتاح الضمير ، ولا تخش

ان تزعج زفراتك « سان ــ لامبير » !

ولقد أصبح من الواضح ، انني لم اكن يوما مقداما على نشدان النفع الذاتي ، واستغلال الفرص ، حتى فى صباى . وكان هذا المذهب فى التفكير ، يتسق مع اتجاه ذهنى ، فكان يمتدح صبابتى ويزينها ، مما سهل على الاستسلام لها فى غير ما تحفظ ، بل والضحك من الهواجس الوقحة التى خلت ــ عن غرور ، وليس عن تعقل ــ اننى أوحيت بها ! .. فياله من درس جليل للنفوس الشريفة ، التى لا تهاجمها الرذيلة جهارا قط ، ولكنها تتحايل على مباغتتها ، وهى تتوارى دائما وراء ستار من الزهد .. أو من الفضيلة غالبا !

كنت مذنبا دون ندم، ولكننى سرعان ما اصبحت مذنبا دون حد .. واناشدكم ان تروا كيف سارت صبابتى فى اعقاب طبيعتى ، لتجرنى فى النهاية الى الهاوية ! .. لقد اتخذت هذه الصبابة ــ فى البداية ــ مظهر التواضع ، لكى تطمئننى .. ثم دفعت هذا التواضع الى ان انقلب تحديا ، لكى تحفزنى ! ..
ومع ان السيدة « دوديتو » لم تكف عن تذكيرى بواجبى ، وعن محاولة ردى الى حجاى .. ومع انها لم ترض لحظة عن حماقتى ، الا انها ظلت ــ فيما عدا ذلك ــ تعاملنى باعظم قدر من اللطف ، وراحت تبدى نحوى أرق مظاهر الود . وانى لأعترف بأن هذا الود ما كان يكفينى ، لو اننى آمنت بانه كان صادقا ، غير اننى الفيته اشد تحمسا من ان يكون صادقا ، فمضيت قدما فى الايعاز الى نفسى بأن الحب ــ الذى لم يعد منذ ذاك الحين ملائما لسنى ولا لشكلى ــ قد حقرنى فى نظر السيدة دوديتو ، وان هذه الشابة النزقة لم تكن تبغى سوى ان تتخذ منى ومن عواطفى التى لم تكن تلائم سنى ، مادة للتسلية ، وانها قد صارحت « سان ــ لامبير » بذلك ، فاذا استنكاره لعدم وفائى يحمله على ان يرى فى ما كانت تراه حبيبته، واذا بينهما اتفاق للعبث بى والضحك منى ! .. هذا الوهم

الذى حملنى ـ عندما كنت فى السادسة والعشرين من عمرى ـ على أن أتمادى مع السيدة دى لارناج ـ دون أن اكون على تعارف بها ـ لم يكن مما يغتفر فى سن الخامسة والاربعين ، ومع السيدة دوديتو ، لو اننى تجاهلت انها وحبيبها كانا أكرم من ان ينغمسا فى مثل هذه الملهاة القاسية !

وواصلت السيدة دوديتو اداء زيارات لى ، لم أكن لأتوانى عن ردها . فلقد كانت مثلى ، تحب التريض على الأقدام ، فكنا نقوم بنزهات طويلة فى منطقة من الريف فاتنة . وبما أننى قنعت بأن أحب ، وبأن أجرؤ على الافضاء بحبى ، فقد كان خليقا بى أن أغتبط بأننى فى أهنأ وضع ، لو لم يفسد تهورى كل فتنة . ذلك انها لم تفهم ـ فى البداية ـ شيئا من النزق الذى كنت اتقبل به ملاطفاتها ، ولكن قلبى العاجز دواما عن ان يتعلم كيف يخفى ما يداخله ، لم يدعها طويلا فى جهل بما كان يساورنى . ولقد حاولت ان تحمل شكوكى ومخاوفى على محمل الدعابة ، ولكنها أخفقت فى هذه المحاولة التى لم تؤد الا الى نوبات من الغضب المحتدم ، ومن ثم فانها غيرت مسلكها . ومع أن رقتها الناعمة لم تتزعزع ، الا انها راحت توجه الى من التأنيب ما كان يخترم قلبى .. وأطلعتنى ـ فى مقابل مخاوفى الظالمة ـ على قلق رحت أعيبه .. **وطالبتها بدليل على أنها لم تكن تهزأ بى ، فلم تجد من وسيلة لكى تطمئننى ، سوى عين الشىء الذى كنت أنشده ! .. ورحت الح !.. وكان الموضوع دقيقا ، شائكا !.. ومن العجيب ـ بل لعله من المصادفات الفذة ـ ان تتمكن امرأة جرؤت على التمادى الى حد المساومة ، من أن تخرج من المأزق بسلام .. فانها لم تأب على شيئا مما يستطيع أرق الود ان يكفله .. ولكنها لم تمنحنى شيئا مما كان يحتمل ان يرديها فى حمأة الخيانة !.. وقدر لى أن أرى ـ فى ذلة وهوان ـ أن النيران التى كان أتفه صنيع من ناحيتها يؤججها فى فؤادى ، لم تشعل فى قلبها اضأل شرارة !**

ولقد قلت ــ فى مكان ما (١) ــ ان على المرء أن لايتيح للشهوات شيئا على الاطلاق . اذا هو رغب فى أن ينكر عليها بعض الأشياء ! .. ولتبين مدى اخفاق هذا الرأى ، فى قصتى مع السيدة دوديتو ، ومدى حكمتها هى وسداد رأيها فى الاعتماد على نفسها ، يجب أن أصف باسهاب خلواتنا الطويلة، المديدة ، وأن أبين كل ما كان يصحبها من انفعالات وفورات خلال الشهور الأربعة التى قضيناها معا فى ود لايكاد يكون له مثيل بين صديقين من جنسين مختلفين ، اقتصرا على حدود معينة لم يتجاوزاها البتة . آه ! .. اذا كنت قد تأخرت طويلا قبل أن أشعر بالحب الحقيقى ، فما أفدح الثمن الذى دفعه قلبى وحواسى ! .. ويا للانفعالات التى لا بد للمرء من أن يستشعرها بالقرب من شخص حبيب، يحبنا ، اذا قدر للهوى الذى لا يلقى جزاء ، ان يوحى بنظير له !

ولكننى أخطىء اذ أقول ((حبا بدون جزاء)) ، فان حبى كان يحظى بمقابل ، الى حد ما .. كان حبا متعادلا لدى الطرفين، وان لم يكن متبادلا بينهما.. كان كلانا نشوانا بالهوى..هواها لحبيبها ، وهواى لها ! .. وكانت زفراتنا ودموعنا المسرية تختلط معا . وكانت نجوانا واعترافاتنا ومشاعرنا مترابطة أوثق ترابط ، حتى لقد كان من المستحيل ان لا تتحد عند امر من الأمور ! .. ومع ذلك فان السيدة دوديتو لم تكن تنسى نفسها لحظةواحدة ، فىغمرةالنشوة الخطرة.. أما أنا ، فأعترف ــ بل اقسم ــ اننى اذا كنت قد حاولت فى بعض الأحيان ، ان احملها على الخيانة ، مدفوعا بمشاعرى الشهوية ، الا اننى لم اكن أصدر فى ذلك عن شهوة حقيقية قط ! .. كان استعار وجدى ، يبقى هذا الوجد فى نطاقه ، من تلقاء ذاته ! .. **ذلك**

---

(١) ورد هذا القول فى الجزء الثالث من كتابه « هيلويز الجديدة » ، فى سياق الرسالة الثامنة عشرة ..

لأن واجب انكار الذات بهر روحى ، كما ان رواء الفضائل جميعا زاد معبود قلبى بهاء فى عينى ، فكأن فى تدنيس طيفه القدسى قضاء مبرما عليه . ولقد كنت خليقا بأن أرتكب هذا الجرم ، اذ انه ارتكب فى فؤادى مائة مرة ، ولكن .. كيف كنت اجرؤ على أن اهين حبيبتى صوفى ؟!.. أفكان هذا من المحتمل يوما ؟! .. لا ، لا ! هكذا رحت أؤكد لها — فى نفسى وفؤادى — مائة مرة .. ولو أننى ملكت يوما أن ارضى نفسى ، ولو ان الحبيبة أسلمتنى نفسها طواعية ، وعن طيب خاطر ، لكان جديرا بى أن أرفض السعادة بهذا الثمن . لقد كنت أحبها حبا أقوى من أن أطمع فى وصالها !

* * *

• **ان** المسافة بين (ليرميتاج) و(اوبون) تقرب من فرسخ . وقد قدر لى احيانا — فى رحلاتى العديدة الى (اوبون) — ان أقضى ليلى هناك . وفى احدى الليالى ، بعد ان تناولنا العشاء على انفراد ، شرعنا فى التريض فى الحديقة ، فى غمرة ضوء القمر الذى كان زاهيا . وفى الطرف الاقصى لهذه الحديقة ، كان ثمة حرش واسع النطاق ، سعينا فيه الى روضة جميلة

روسو يبث مدام دوديتو غرامه فى الخميلة

لوحة للفنان ((مورو)) الشاب
أخذ عنها رسم غلاف الجزء الثالث

يزينها مسقط مائى ، كنت انا صاحب الفكرة فى اقامته ، وكانت السيدة دوديتو هى التى تولت انشاءه .. ياله من تذكار خالد للبراءة والغبطة !.. وفى هذه الروضة جلست وأياها على أريكة من الحشائش ، تحت خميلة محملة بالزهور .. وبحثت — فى سبيل التعبير عن مشاعر قلبى — عن لغة تليق بهذه المشاعر . وكانت هذه اول مرة — بل المرة الوحيدة فى حياتى — التى سموت فيها عاليا بمشاعرى ، اذا جاز أطلاق هذا الوصف على الفتنة الوادعة ، المغرية ، التى يوحى بها الى قلب الرجل أرق ألوان الحب واقواها . ويا للدموع النشوانة التى سكبتها على ركبتيها ! .. ويا للدموع التى استدررتها اياها على الرغم منها !.. وأخيرا ، صاحت ، صاحت فى انفعال لا ارادى : « لا ! .. لم يوجد بين الرجال عاشق بهذه الدرجة قط .. وأبدا لم يحب عاشق بهذا الوجد ! .. ولكن صديقك « سان — لامبير » يسمع الينا ، وما كان لقلبى أن يحب مرتين ! » .. ولم أخرج عن الصمت الا بالزفرات ، واحتضنتها .. وأى عناق !

ولكن هذا كان جل مافى الامر ! .. وكانت قد قضت ستة أشهر وحيدة ، أعنى بمنأى عن عشيقها وعن زوجها .. وكنت قد ظللت — لثلاثة أشهر — أراها فى كل يوم تقريبا ، وكان الحب ثالثنا على الدوام !.. ولقد تعشينا على انفراد .. وكنا وحيدين فى خميلة ، تحت ضوء القمر الزاهى.. وبعد ساعتين من أرق وأبدع حديث ، غادرت — فى منتصف الليل — هذه الخميلة ، وأحضان صديقها (١) .. وهى لم تمس بدنس ، لا تزال طاهرة الجسد والقلب، كما أقبلت فى البداية .. الا تدبر كل هذه الظروف يا قارئى ، فلن أضيف مزيدا قط !

ومنذا الذى لايستطيع ان يتصور انأحاسيسى تركتنى دون

---

(١) يقصد نفسه طبعا ! .. ولا تزال الروضة والخميلة والمسقط المائى والدار ذاتها باقية فى (اوبون) ..

ازعاج ـ فى هذه المناسبة ـ كما اعتادت أن تفعل من قبل ازاء « تيريز » و « ماما » . ولقد قلت من قبل ، ان ما خامرنى فى هــذه المرة، هــو الحب .. الحب فى جماع قواه وفى عنفوان جيشانه ! .. ولن أصف هياجى ، ولا ارتجافى ، ولا خفقــان فؤادى ، ولا اختــلاجاتى المتشنجة ، ولا ضعف القلب الذى كنت استشعره باستمرار ، فمن الميسور ادراكها من التأثر الذى كان طيفها وحده يحدثه فى نفسى !

فلقد ذكرت ان (ليرميتاج) كان بعيدا عن (اوبون) ، وكنت امر فى طريقى بتلال (انديللى) البديعة . وفيما كنت أسير الى (أوبون) رحت احلم بتلك التى كنت اسعى الى زيارتها، وباللقاء النــاعم ، وبالقبلة التى تنتظرنى عنــد وصولى . هذه القبلة الوحيــدة ، هــذه القبــلة الخطــرة ، الهبت دمى ـ حتى قبل ان اتلقاها ـ بدرجة جعلتنى أشعر بالدوار ، وبأن ستارا قد هبط على بصرى فأعمانى .. واهتزت ركبتاى فلم تعودا تقويان على حملى.. ووجدتنى مضطرا الى التوقف عن السير، بل والى الجلوس .. فان كل كيانى اضطرب ، دون ما مبرر واضح .. وكدت اروح فى اغماءة !.. واذ فطنت الى الخطر ، رحت أحاول ـ حين عاودت الســير ثانية ـ أن أشغل بالى بتفــكير آخر .. على اننى لم اكد اقطع عشرين خطوة ، حتى عاودتنى نفس الرؤى وما ترتب عليها ، فى هجوم لم اجــد فى وسعى النجاة منه ، وبطريقة ما أرانى كنت مستطيعا أن أبلغ هدفى دون ما ضرر ، لو لم أجاهد كى اطيقها !

ووصلت الى (أوبون) واهن القوى، مرهقا ، منهوكا ، لاأكاد أستوى معتدل القامة . وما ان رأيتها ـ أى السيدة دوديتو ـ حتى ارتدت الى قواى ، ولم أعد أشعر بالقرب منها الا بتدفق قوى لاتنضب ، ولا نفع لهــا أبدا !.. وكان فى طريقى ، وعلى مشرف من (أوبون) طريق مرصوفة لا بأس بهــا ، يطلق عليها اسم (مونت اوليمب) اعتدنا أن نلتقى عندها أحيانا، وقد أقبل

كل من ناحيته . وكنت الأسبق الى الوصول ، فكان على ان انتظر . ولكن ما اغلى ما كان هذا الانتظار يكبدنيه ! .. ولكى أشغل بالى ، حاولت ان اكتب بقلمى الرصاص بعض مذكرات كانت جديرة بأن تكتب بأطهر مالدى من دم .. وما قدر لى قط ان أتم واحدة تكون مقروءة . وعندما كانت هى تجد احداها فى الكوة التى اتفقنا على ايداع الرسائل فيها ، لم تكن تطالع فيها سوى الحال الذهنية المتداعية التى كنت فيها عند كتابتها .. ولقد ادت هذه الحال – لا سيما بقاؤها طيلة ثلاثة أشهر من الانفعال والكبت – الى ارهاقى ، حتى اننى لم أبل منها لعدة سنوات ، وانتهت بأن خلفت لى هبوطا سأحمله معى ، او يحملنى معه ، الى القبر . وكانت هذه هى الغبطة الغرامية الوحيدة للرجل الذى اوتى أشد الأمزجة – التى انجبتها الطبيعة – تأججا ، واعظمها تهيبا وخجلا ، فى آن واحد .. كما كانت هذه آخر الأيام الجميلة التى احتسبتها على الأرض .. فمنذ ذلك الحين ، بدأ نسيج محن حياتى ومصائبها .. النسيج الطويل الذى سيرى انه غير متقطع !

***

• **ولقد** تبدى – خلال مجرى حياتى بأسره – ان قلبى شفاف كالبللور ، فلم يتعلم ان يكتم قط لدقيقة واحدة ، اية عاطفة على شىء من الاحتدام ، لاذت به . ومن ثم ففى الوسع ادراك المدى الذى كان فى طاقتى ان اذهب اليه فى كتمان حبى للسيدة دوديتو .. كان ودنا جليا لكل عين ، فلم نحطه بشىء من الكتمان ولا الغموض ، اذ ان طبيعته لم تكن من نوع يحتاج الى ذلك .. وكما كانت السيدة دوديتو تكن لى ارق ود ، دون ان تجد أى حرج أو تثريب ، فاننى كنت أحس نحوها بتقدير ما كان سواى ليدرك مدى عدالته وصحته .. ومن ثم فاننا كنا فى طمأنينتنا الغرور ، نتيح فرصا للنيل منا اكثر مما كنا

نفعل لو اننا كنا مذنبين . هى بصراحتها ، وتشتت بالها ، وعدم اكتراثها بالتفكير . . وانا بصدق عاطفتى ، وتهيبى وخجلى ، وغرورى ، ونفاد صبرى ، وفوراتى العاطفية . . فكنا نذهب معا الى (لاشيفريت) ، أو نلتقى هناك على موعد — فى كثير من الأحيان — أو دون موعد ، فى بعض الأحيان . . وكنا نواصل هناك ما ألفنا من حياة ، فنتمشى معا وحيدين يوميا — ونحن نتبادل الحديث عن هوانا ، وواجباتنا ، وصديقنا ، وخططنا البريئة — فى المتنزه المواجه لجناح السيدة ديبيناى ، وتحت نوافذها التى كانت ترقبنا منها ، وترانا بعينى قلبها بغل دافق من نبع الغضب للكرامة ، اذ كانت تخال فى ألفتنا اهمالا لها وازدراء بها !

ولقد أوتيت النساء براعة فى اخفاء غضبهن ، لا سيما اذا كان هذا الغضب عارما ، قويا . . وقد احرزت السيدة ديبيناى — التى كانت واسعة العقل والحيلة — رغم عنفها ، قدرا كبيرا من هذه البراعة . لذلك فقد راحت تتظاهر بأنها لم تكن ترى شيئا أو ترتاب فى شىء . وبينما اخذت تضاعف اهتمامها بى ورعايتها اياى — الى حد المضايقة — راحت تحير أخت زوجها بخشونة مسلكها ، وجفاء معاملتها ، وتعريضاتها المهينة التى بدا انها كانت تحاول أن توحى بها الى ، وتبثها فى نفسى أنا الآخر . ومن السهل ادراك انها لم توفق ، **ولكننى كنت حائرا معذبا . . كنت نهبا لمشاعر متعارضة ، ففى الوقت الذى كان فيه عطف السيدة ديبيناى ولطفها يؤثران فى نفسى ، كنت أجد عناء فى كبح سخطى اذ أرى تضاؤل احترامها للسيدة دودينو . ولقد استطاعت الأخيرة ان تحتمل ذلك دون تذمر ، — بل ودون ضغينة — بفضل ما اوتيته من طباع ملائكية .** كما انها كثيرا ما كانت شاردة البال ، لاتكاد تحس ما حولها ، حتى انها لم تكن تلاحظ نصف ما كان يجرى !

وكنت مستغرقا فى وجدى ، حتى اننى لم أكن أبصر سوى

«صوفى» ــ وقد كان هــذا من اسماء السيدة دوديتو ــ فلم أفطن الى شيء ، بل ولا الى اننى أصبحت حديث اهل القصر جميعا والزائرين !.. وقد كان البارون « دولباخ » ــ الذى لم يزر (لاشيفريت) من قبل، على ما اعلم ــ بين هؤلاء الأخيرين. ولو اننى كنت من التريب بالدرجة التى صرت اليها فيما بعد، لشككت كل الشــك فى ان السيدة ديبينــاى دبرت عمدا هذه الزيارة ، لتتيح له فرصة الاستمتاع بمشاهدة المناظر المسلية .. مناظر المواطن العاشق !

على اننى كنت من الغباء بحيث لم أر ما كان واضحا متألقا لكل مخلوق . ومع ذلك ، فان غبائى كله لم يحل بينى وبين ان أرى ان البارون كان اكثر اغتباطا وانشراحا من عادته . **وبدلا من ان يتجهم فى وجهى ، اغرقنى بسيل من الدعابات التى لم افقه منها شيئا . وحملقت فيه، دون ان أجيب.. واضطرت السيدة ديبينــاى الى ان تمسك جنبيها لتحــد من ضحكها ، ولكنى لم استطع ان ادرى شيئا من حقيقة امرهما !.. ولما لم يكن مزاحهما قد تجاوز الحدود ، لذلك فقد كان خير ما أفعله ــ لو اننى فهمت كنهه ــ هو أن أدلى فيــه بدلوى . ولــكن الواقع هو انه كان من السهل ان يلمح المرء فى عينى البارون ــ خلال مرحــه الساخر ــ وميضا من طــرب مغيظ ، كان من المحتمل ان يثير قلقى ، لو اننى انتبهت اليه اذ ذاك كما انتبهت فيما بعد ، حين استرجعته فى ذهنى !**

وحدث انذهبت لزيارةالسيدة دوديتو فى(أوبون) ــيوما ــ عقب عودتها مناحدى رحلاتها الى باريس، فوجدتها واجمة، ولاحظت انها كانت تبكى قبــل وصولى . واضطررت الى أن أتمالك نفسى، اذ كانت السيدة «دوبلينفيى»ــ أخت زوجها ــ حاضرة . ولكننى ما كدت أخلو اليهــا لحظة ، حتى أفضيت اليها بقلقى ، فقالت وهى تتنهد : « آه !.. لشــد ما أخشى أن تجردنى نزواتك من كل طمأنينة وراحة بال ، طيلة ما تبقى من

حياتى ! .. لقـد نقل الى « سان ــ لامبير » أمرنا ، بأسلوب محرف . وانه لينصفنى ، ولكنه مستاء .. والأنكى من هذا ، انه لايصارحنى بكل شىء .. على اننى ــ لحسن الحظ ــ لم أتكتم أمر صداقتنا التى نشأت تحت رعايته . . فقـد كانت خطاباتى ــ كقلبى ــ مليئة به . ولم أخف عنـه شيئا سوى حبك الأرعن ، الذى كنت آمل ان أبرئك منه ، والذى أستطيع أن أتبين انه يراه جـرما من ناحيتى ، وان لم يذكر لى ذلك . لقد اساء الينا شخص ما ، وظلمنى ، ولكن .. لا بأس. وعلينا ان نفصم تعارفنا ، أو ليكن مسلكك كما ينبغى ويليق ، فلست راغبة فى ان أكتم شيئا ــ بعد الآن ــ عن حبيبى ! »

وكانت هذه هى أول لحظـة آدركت فيهـا عار رؤية نفسى مهينا ، اذ فطنت الى اساءتى ازاء شابة أحسست بأنها كانت محقة فى لومها ، وكان خليقا بى أن أكون راعيا لها وناصحا .
وكان السخط الذى بعثه هذا فىنفسى ، كفيلا بأن يجعلنى من القوة بحيث أستطيع أن أغالب ضـعفى ، لولا أن الاشفـاق الحنون ــ الذى أثارته فىنفسى ضحيةهذا الضعف ــ طغى على قلبى . فواأسفاه ! . . أفكانت هذه لحظة املك فيها أن أبث فى قلبى صلابة ، وهو زاخر بالدموع التى كانت تنسـاب اليه من كل ناحية ؟ ! .. وما لبث هذا الحنان أنانقلب الى غضب على وشاة السوء، الذين لم يروا من شعور خاطىء ، ولكنه غير ارادى ، سوى جانبه الآثم .. دون أن يعتقدوا ، بل دون أن يحدسوا ، ما كان لهـذا القلب الذى نبض به ، من اخـلاص شريف !

★ ★ ★

• ولم نبقطويلا فى ريب منالىد التىوجهتهذه الصفعة ! كنا نعرف ــ معا ــ ان السيدة ديبيناى كانتتكاتب « سان ــ لامبير » . ولم تكن هذه هى العاصفـة الأولى التى أثارتها

ضد السيدة دوديتو ، فلقد بذلت محاولات لا عداد لها ، لتنتزع « سان ـ لامبير » منها ، وكان ما أحرزته بعض هذه المحاولات ـ فى الماضى ـ يحمل السيدة دوديتو على أن ترتجف فرقا مما يخبئه لها المستقبل ! .. والى جانب ذلك ، كان « جريم » ـ الذى أعتقد انه تبع السيد « دى كاسترى » فى رحيله مع الجيش ـ فى (ويستفاليا) ، وكذلك كان « سان ـ لامبير » وكانا يتزاوران أحيانا ! .. **وكان « جريم » قد حاول التقرب الى السيدة « دوديتو » ، ولكن محاولاته أخفقت . وقد أغضبه هذا الى الدرجة التى جعلته يكف عن زيارتها . ومن هنا يمكن للمرء أن يتصور ـ على ضوء ما اشتهر به من انضباع ـ مدى « برود الدم » الذى تلقى به ما زعم من أن السيدة دوديتو آثرت عليه رجلا يكبره سنا ، لا سيما وانه لم يكن يتكلم عن هذا الرجل ـ مذ عرف طريقه الى الأوساط الراقية ـ الا باعتباره شخصا ينعم برعايته وعطفه » !**

وغدت وساوسى من ناحية السيدة ديبيناى امورا مؤكدة ، عندما سمعت ما حدث فى بيتى . فقد اعتادت « تيريز » أن تتردد على (لاشيفريت) ـ فى الفترات التى كنت أقضيها هناك ـ لتحمل لى خطاباتى ، أو لتؤدى لى بعض أشياء كانت صحتى المعتلة تتطلبها . ولقد حدث أن سألتها السيدة ديبيناى عما اذا كانت السيدة دوديتو تكاتبنى ، فلما انبأتها بأننا نتبادل الرسائل ، راحت تلح عليها لتسلمها رسائل السيدة دوديتو ، مؤكدة لها أنها ستحكم اغلاق هذه الرسائل ثانية بمهارة لاتنم عن انها فضت ! .. ولقد عمدت تيريز ـ دون ان تكشف عن مدى استنكارها لهذا الطلب ، ودون أن تنبئنى به ـ الى اتخاذ أقصى أسباب الحيطة ، لتخفى ما كانت تحمله الى من رسائل .. وكان اجراء حكيما ، اذ ان السيدة ديبيناى قد أقامت عليها رقابة كلما جاءت ، وكانت تتربص لها حتى تمر بها ، وقد ذهبت فى جرأتها الى حد تفتيش مرولتها !

بل انهـا فعلت ما هو اكثر من هذا ، فقد دعت نفسـها والسيد « دى‌مارجينسى » يوما الى الغداء فى (ليرميتاج) ، وكانت هذه اول مرة تفعل فيها ذلك منذ سكنته ، واستغلت اللحظة التى كنت أتمشى فيها مع « مارجينسى » ، فذهبت مع الأم والابنة الى غرفة مكتبى ، وسألتهما أن تطلعاها على رسائل السيدة دوديتو . ولو ان الأم كانت تعرف مكان هذه الرسائل ، لكان من المحقق أن تسلمها اليها ، ولكن الابنة وحدها ـ لحسن الحظ ـ هى التى كانت تعرف المكان ، وقد زعمت اننى لا احتفظ بشىء منها ! .. وكانت فى هـذا كاذبة ، دون نزاع .. ولـكنه أشرف ، وأخلص ، وأكرم خداع ! .. واذ رأت السـيدة ديبيناى انها لن تسـتطيع أن تغريها ، راحت تحاول أن تستنهض غيرتها ، بأن أخذت تلومها على طيبة قلبها، وعدم بصيرتها . ومضت تقول لها : « كيف تغفلين عن تبين ان علاقتهما آثمة ؟ .. اذا كنت ـ رغم كل الذى تستطيعين أن تبصريه بعينيك ـ لاتزالين بحاجة الى مزيد من‌الادلة ، فعاونى فيما كان يجب أن تفعليه انت للحصول على ذلك .. انك تقولين انه يمزق رسائل السيدة دوديتو بمجرد أن يطلع عليها، حسنا ! .. اذن ، فاجمعى القصاصات بعناية ، واسلمينيها ،

وسوف الصقها بعضها الى بعض ! »
هكذا كانت الدروس التى لقنتها صديقتى لرفيقتى !

* * *

• **ولقد** كانت « تيريز » من الحكمة بحيث انها لم تذكر لى شيئا عن هذه المحاولات زمنا طويلا . ولكنها حين رأت ورطتى – فى النهاية – شعرت أن من واجبها أن تفضى الى بكل شىء ، حتى أصبح على بصيرة بأولئك الذين كان على أن أنازلهم ، فأتخذ من الخطوات ما يكفل حمايتى من الغدر الذى كان مدبرا لى !

وكان سخطى وغضبى يفوقان كل وصف . وبدلا من أن أخفى ما بنفسى عن السيدة ديبيناى – كما كانت هى تفعل معى – وأقابل دسائسها بمثلها ، فاننى انسقت للتهور ، دون أن أكبح نفسى ، وأقدمت – بتسرعى المعهود – على القطيعة العلانية . ومن الممكن قياس اندفاعى وعدم فطنتى ، بالرسائل التالية ، التى تبين بوضوح كاف كيف تصرف كل منا فى هذه المناسبة :

رسالة من السيدة ديبيناى (الملف ا – رقم ٤٤)

« **ما** السبب فى اننى لا أراك ، يا صديقى العزيز ؟ .. اننى قلقة بصددك لقد وعدتنى مخلصا ، بأن تعكف على المجىء والذهاب ، بين هنا و (ليرميتاج) . وعلى هذا ، فقد تركتك تفعل ما يحلو لك . ولكن ، لا .. لقد تركت أسبوعا ينقضى دون أن تبر بوعدك . ولولا اننى نبئت بأنك بخير ، لظننتك مريضا !

« لقد ارتقبتك بالأمس ، أو فى اليوم السابق عليه ، ولكنى لم أر لك أثرا . فيالله !.. ما شأنك ، وماذا جرى لك ؟ .. ليس ثمة ما يشغلك ، وليس ثمة ما يزعجك . فاننى اطمئن

نفسى الى انك ما كنت لتتوانى عن المجىء لتفضى الى بما يهمك ، لو كان الامر كذلك ! .. اذن ، فلا بد انك مريض ! .. اننى ارجوك أن تسرى عنى قلقى فورا ! .. وداعا يا صديقى العزيز ، ولعل هذه الـ « وداعا » ، تواتينى بـ « صباح الخير » منك ! »

الـرد

« **صباح الاربعاء**

« **ليس** بوسعى ان اقول لك شيئا ، بل اننى اتريث ريثما استكمل معلوماتى ، وهذا ما سوف يتحقق عاجلا ، او آجلا ، والى أن يتم ذلك ، ثقى من أن البراءة المتهمة ، ستلقى مدافعا أوتى من الحماس ما يكفى لأن يتيح للواشين ــ أيا كانوا ــ ما يدعوهم للندم والحسرة ! »

الرسالة الثانية من السيدة نفسها (الملف ١ ــ رقم ٤٥)

« **أتعرف** ان خطابك يثير ذعرى ؟ .. ما الذى يرمى اليه ؟ .. لقد أعدت قراءته نيفا وخمسا وعشرين مرة . والحق اننى لم أفقه منه شيئا . كل ما أراه هو أنك قلق معذب ، وانك تنتظر الى أن يزول عنك ذلك ، قبل أن تكلمنى فى الأمر . أفهذا ما تعاهدنا عليه ياصديقى العزيز ؟ .. فما الذى جرى ــ اذن ــ لهذه الصداقة ، ولهذه الثقة ؟ وكيف ترانى فقدتها ؟ وهل غضبتك ضدى ، أو هى من أجلى ؟ .. **مهما يكن الأمر ، فانى أناشدك ان تأتى الليلة ، وتذكر أنك وعدتنى ــ ولما تنقض بعد ثمانية ايام ــ بأن لاتكتم فى قلبك شيئا ، وبأن تفاتحنى فى النو . اننى أتشبث بهذه الثقة ، ياصديقى العزيز ...**

« مهلا ! لقد فرغت من قراءة خطابك مرة أخرى ، فلم اكن افضل حظا فى فهمه من ذى قبل ، ولكنه يجعلنى ارتجف . لكم يبدو لى انك مهتاج بدرجة قاسية ، فأرجو ان تهدأ . اما وانا أجهل موضوع همومك ، فانى لا ادرى ماذا أقول ، اللهم

الا اننى سأظل أضارعك شقاء ، الى أن يقدر لى أن أراك ! .. **فاذا لم تكن هنا فى الساعة السادسة من هذا المساء ، فسأنطلق غدا الى (ليرمينتاج) ، مهما تكن حال الطقس ، ومهما تكن حالى أنا ، اذ أننى لن أستطيع مضيا فى تحمل هذا القلق !**

« فعم صباحا ، ياصديقى العــزيز الطيب . . وكيفما يكن الأمر ، فاننى أجازف بأن أدعوك ـ دون أن أدرى مـا اذا كنت بحاجة الى هذا النصح او انك لست بحاجة ـ الى ان تحاول الحيطة وايقاف التقدم الذى يحرزه الانزعاج والقلق ؛ فى العزلة .. فان الذبابة لاتلبث ان تصبح وحشا هائلا .. وقد جربت هذا ، كثيرا ! »

الــرد

« **مساء هذا الاربعاء**

« **ليس** بوسعى أن ازورك ، ولا ان أتقبل زيارتك ، طالما ظل القلق الذى استشعره . ان الثقة التى تتكلمين عنهـا لم تعد قائمة ، ولن يسهل عليك ان تستردیهـا ! .. اننى لا ارى فى تلهفك الراهن ، سوى الرغبـة فى أن تستخلصى من اعترافات الغير نفعا يخدم وجهات نظرك . ولكن قلبى ـ الذى يبادر الى الارتماء فى أحضـان أى قلب يتفتح له ـ يغلق أبوابه فى وجه المكر والحيلة . اننى أعرف ما وراء الصعوبة التى تلقينهـا فى تفهم رسـالتى . افتعتقـديننى من الغفلة بحيث أظن انك لم تفهميها ؟ . **لا ، ولكننى سأعرف كيف أقهر دهاءك بالصراحة!** .. وسأفصح عن نفسى بمزيد من الجلاء ، لكى يتسنى لك ان تصبحى اكثر فهما لى

« هناك عاشقان وثيقا الترابط ، وأهل لأن يتحابا ، يحتلان من نفسى مكانة عزيزة . واحسبك لن تدركى من أعنى ، الا اذا ذكرت لك أسميهما . وأرى أن هناك من حاول التفرقة بينهما ، واننى الشخص الذى استخدم لاثارة غيرة أحدهما . ولم يكن

الاختيارجد بارع ، بيد انه لاح ملائما للغرض الخبيث.. **وانت التى أرتاب فى انها مدبرة هذا الخبث . وأرجو ان يزداد هذا اتضاحا !**

« وهكذا — على ما اعرف — تتعرض المرأة التى أجلها فوق كل من عداها ، لمعرة تقسيم قلبها وشخصها بين عاشقين، كما أتعرض أنا لعار ان أكون أحد هذين الشخصين الضعيفى النفس !.. لو اننى عرفت انك كنت تقدمين على مثل هذا الظن بها وبى — للحظة واحدة من العمر — لأبغضتك حتى الموت . ولكنى لا اتهمك الا بأنك قلت ، وليس بأنك ظننت وفكرت!.. ولست افهم — فى مثل هذه الحال — من من الثلاثة كنت تشتهين ايذاءه. ولكنك خليقة— اذا كنت تحبين طمأنينة النفس— بأن تخشى النحس الذى يجلبه عليك النجاح!.. اننى لم أكتم عنك — ولا عنها— كل ما أراه من سوء فى بعض روابط معينة ، ولكنى ارجو ان تنتهى هذه الروابط بوسيلة شريفة ، تعادل المشاعر التى تألفت منها فى الأصل ، وان ينقلب حب غير مشروع ، الى صداقة أبدية، أفأنا الذى لم أوقع يوما بمخلوق أذى ، استخدم كوسيلة بريئة لايذاء أصدقائى ؟.. **لا ، لن اصفح عنك أبدا . بل اننى لخليق بأن أصبح عدوك الذى لا سبيل الى استرضائه . ولن أحترم فى ذلك سوى اسرارك وحدك ، لأننى لن أكون يوما رجلا بلا عهد ولا ولاء !**

« اننى لا أتصور أن تدوم الحيرة — التى أعانيها — طويلا . ولن ألبث أن أتبين ما اذا كنت مخطئا . واذ ذاك ، فقد يكون من واجبى ان اصلح غلطة كبرى، ولن يكون فى حياتى ما أقدم عليه بطيب خاطر يفوق ما سأفعل به ذلك!.. **ولكن ، أتعرفين كيف سأكفر عن أخطائى فى الفترة القصيرة التى سأظل أقضيها على مقربة منك ؟.. لسوف يكون ذلك بأن أفعل مالا قبل لغيرى بفعله .. بأن أقول لك بصراحة ما يراه الناس فيك ، وبأن اطلعك على الثغرات التى يتحتم عليك رتقها فى نسيج**

سمعتك. وبالرغم من كل من يحيطون بك من مدعى الصداقة، فانك عندما ترينني أرحـل ، ستودعين الصـدق ، اذ انك لن تجدى بعدى من يقوله لك »

الرسالة الثالثة من السيدة ديبيناى (الملف أ - رقم ٤٦)

« لم أفهم رسالتك التى تلقيتها فى هـذا الصباح . ولست أقول هذا ، الا لأنه كذلك . وانى لأنتظر رسالة هذا المسـاء ، فلا تخش ان لا اجيب عنها قط ، وانما انا جـد تواقة الى ان انساها ، ومع انك تثير اشفاقى ، الا اننى لا أملك دفعا للمرارة التى ملأت بها نفسى . أأنا استـخدم المكر والدهاء معك ؟!.. أأنا أتهم بأسود الشناعات ؟ !

« وداعا ، وانى لأندم على انك كنت هنا .. وداعا ، فلست ادرى ماذا أقول .. وداعا ، ولن أتوق الا الى ان أصفح عنك. والك ان تأتى عنـدما يحلو لك ، وسوف تستقبل بأفضل مالا تؤهلك له شكوكك . وليس عليك سوى ان تريح نفسـك من عناء الانشغال بسمعتى ، فليس فى الأمر ما يهمنى. ان مسلكى طيب ، وهذا يكفينى ..

« وفيما عدا هذا ، فاننى أجهل تماما ما جرى للشخصين اللذين يحتـلان من نفسى انا الأخـرى ، المكانة العزيزة التى يحتلانها من نفسك » (١)

★ ★ ★

• **ولقد** خلصتنى هـذه الرسالة الأخيرة من حيرة أليمة ،

---

(١) فى النص الذى ورد فى « مذكرات مدام ديبيناى » ، ذكرت العبـارة الاخيرة ، على النسق التالى : « اننى أحلك - متى شئت - مما ذكرت بشـأن اسرارى ، حتى لا أجشمك عناء صيانتها ، فانك لتعرف - أكثر من اى شخص آخر - ان ليس لدى الا كل ما يشرفنى الافضاء به » . وقد ارسـلت نسـخة من هذا النص الى « جريم » .

ولكنها القت بى الى أخرى لم تكن تقل عنهـا . ومع ان هذه الرسائل وردودها تبودلت بسرعة بالغة ، فى بحر يوم واحد ، الا ان هـذه الفترة كانت كافية لـكى اقطع استرسال نوبات غضبى ، ولكى افكر فى ضخامة اندفاعى غير الحكيم . ولم تكن السيدة دوديتو قد أوصتنى بشىء قدرما أوصتنى بأن التزم الهدوء ، وأن أترك لها عبء تخليص نفسهـا بنفسها من هذه المسألة ، وبأن اتفادى كل قطيعة وكل ضجة ، لا سيما فى تلك الفترة بالذات . ومع ذلك فها أنذا قد اذكيت ـ باهاناتى البالغة الصراحة والمقذعة الفظاعة ـ نار السخط فى قلب امرأة لم تكن اذ ذاك ترجو سوى ذلك . وما كان لى ـ بطبيعة الحال ـ ان انتظر من ناحيتها ، سوى رد بالغ الكبرياء ، والازدراء ، والاهانة ، الى درجة لا املك معها ـ الا بأقصى ذلة مهينة ـ أن أحجم عن مغادرة بيتها فى الحال . على ان دهاءها كان ـ لحسن الحظ ـ يفوق غضبى ، فتفادت بلهجة جوابها ان تسف فى تحقيرى الى هذا الحد . غير انه لم يكن ثمة بد من أن أغادر البيت ، أو أن أذهب لزيارتها على الفور .. لم يكن ثمة مفر من اختيار أحد الأمرين ! **وقـد استقر رأيى على الأخير منهمـا ، وانا فى حيرة شديدة من المسلك الذى كان ينبغى أن أنتهجه فى الايضاح الذى توقعت أن أطالب به . فكيف كان بوسعى ان أخلص نفسى بدون ان أقحم السيدة دوديتو أو تيريز ؟.. اذ ويل لتلك التى سأضطر الى أن أفضى باسمها !** .. ما من شىء فى انتقام امرأة حقود ، بارعة فى المكائد ، الا أثار مخاوفى على تلك التى قد تقع النقمة على رأسها . وما قصرت رسائلى على مجرد «شكوك» الا لتفادى هـذه النقمة ، اذ اننى بذلك تلافيت ان اضطر الى تقديم أدلة ما . ومن الصحيح ان هذا جعل فوراتى أبعد من أن تغتفر ، اذ ماكان أى شك مجرد ليبيح لى ان اعامل امرأة ، وامرأة صديقة ، كما عاملت السيدة ديبيناى . ولكن .. هنا بالذات ، تبدأ المحاولة الكبيرة والنبيلة ، التى حققتها بجدارة ، اذ كفرت

عن اخطائى ومواطن ضعفى المستترة ، بأن تحملت ذنوبا أشد وأقسى ، لم اكن مرتكبها ، ولا كنت يوما جديرا بوزرها .

على أننى لم أضطر الى تحمل الهجوم الذى كنت اخشاه ، بل كان كل نصيبى منـه هو الخوف الذى راودنى . فما ان اقتربت من السيدة ديبيناى ، حتى ألفت ذراعيها حول عنقى، وانفجرت باكية . ومس قلبى هذا الاستقبال غير المرتقب، من صديقة قديمة، فتأثرت كل التأثر، وبكيت كثيرا أنا الآخر !.. وقلت لها بضع كلمات قلائل ، لم يكن لها من معنى .. وقالت لى بضع كلمات مثلها ، كانت أبعد من ان تكون ذات معنى .. وكان هذا غاية الأمر ! ثم اعدت المـائدة ، فجلسنا اليها معا .

وهناك ، وفى انتظار ان أدعى للايضـاح ـ الذى ظننت انه لم يرجأ الا ريثما نفرغ من العشاء ـ كنت فى أسوأ حال ، اذ اننى انصاع دائما لأقل اضطراب يتملكنى ، حتى اننى لأعجز عن ان اخفيه عن أقل الناس ملاحظة وفطنة. ولقدكان ارتباكى كفيلا بأن يلهمها الشجاعة ، بيد انها لم تجرؤ على الاقدام . ومن ثم لم يكن هناك ايضاح بعد العشاء ، يفوق ما كان قبله !.. لا ولا كان ثمة فى غد .. بل ان خلواتنا الصـامتة ، لم تملأ الا بأمور غير ذات بال، او ببضع محاولات مؤدبة من جانبى ، حاولت بها ان اشرح موقفى وان اوعز بأننى لم اكن املك ان أقول شيئـا

التفاهم الروحى ... لوحة تمثل منظرا من هلويز الجديدة

عن الاساس الذى قامت عليه شكوكى، وأن أؤكد ـ بكل اخلاص وصدق ـ بأن حياتى بأسرها ستتفق فى اصلاح ما كان فى هذه الشكوك من غبن، لو اننى تثبت من انها لم تقم على اساس ما!

ولم تبد السيدة ديبيناى اقل فضول الى معرفة كنه هذه الشكوك تماما، ولا كيف واتتنى. بل اقتصر الصلح بيننا ـ سواء من ناحيتها أو من ناحيتى ـ على العناق الذى ضمنا حين التقينا. ولما كانت هى الوحيدة التى مستها الاساءة ـ من الناحية الشكلية على الأقل ـ فقد لاح لى ان لا داعى يدعونى

الى ان أسعى الى ايضاح لم تكن تنشده هى نفسها ، ومن ثم عدت الى بيتى كما بارحته ! .. وفيما عدا ذلك، ظلت علاقتى بها على ما كانت عليه من قبل ، وسرعان ما نسيت النزاع نسيانا شبه تام ، واعتقدت ـ فى غباء ـ انها قد نسيته هى الأخرى ، لانها لم تعد تبدى ما يدل على انها ظلت تتذكره !

* * *

• ولم يكن هذا ـ كما سيبدو سراعا ـ هو الكرب الوحيد الذى جره على ضعفى ، ولكننى تعرضت لكروب غيره ، لم تكن اقل ازعاجا، ولكننى لم اكن مجتلبها حقا، وما كان لها من داع سوى الرغبة فى انتزاعى من عزلتى (١) . ولقد واتتنى هذه المضايقات من «ديدرو» وعصبة دولباخ . فان ديدرو لم يكف يوما ـ منذ استقرارى فى (ليرميتاج) ـ عن التحرش بى، سواء بنفسه ، او عن طريق ديلبير . **وسرعان ما تبينت من دعابات هذا بشأن نزهاتى فى الغابة ، مدى الغبطة التى خلعوا بها على الناسك ثوب الراعى العاشق . ولكن هذا لم يكن محور المآخذ التى آخذت بها ديدرو ، بل كانت ثمة أسباب أشد وأعظم !**

ذلك انه عقب نشر « ابن السفاح » ، ارسل لى نسخة من الكتاب قرأتها بالاهتمام والشوق اللذين يوليهما المرء عادة مؤلفا من انتاج صديق له . واذ طالعت الحوار الشعرى الذى الحق به ، دهشت ، بل وحزنت ، اذ وجدت فيه ـ الى جانب عدة تلميحات غير كريمة ، ولكنها تحتمل ، وقد وجهها ضد اولئك الذين يعيشون فى عزلة ـ هذه العبارة الخشنة، المريرة،

---

(١) اردف « روسو » معقبا بقوله : « واعنى بذلك ، الرغبة فى انتزاع المرأة العجوز من هذه العزلة ، اذ كانت الحاجة ماسة اليها فى تدبير المؤامرة . ومن المدهش ان تقتنى الحمقاء فى الغير ، ظلت ـ ابان هذه العاصفة الطويلة الاجل ـ تحول بينى وبين ان افهم انها هى ـ ولست انا ـ التى كانت مرتجاة العودة الى باريس » .. ويقصد بالمرأة العجوز هنا ، السيدة لوفاسير ، أم « تيريز » .

التى لم يكن لها مجال فى السياق : **((لا يلزم العزلة سوى اهل الخبث)) !**

وهذه العبارة مبهمة ، وتحتمل تأويلين ، كما يبدو لى . احدهما صادق كل الصدق ، والآخر زائف كل الزيف . اذ ان من المستحيل على انسان يعيش — ويرغب فى ان يعيش — فى عزلة ، ان يبغى ايذاء احد ، وبالتالى ، فمن المستحيل ان يكون خبيثا . ومن ثم فقد كانت العبارة — فى حد ذاتها — تتطلب ايضاحا .. وهى اكثر تطلبا له، لصدورها من مؤلف كان له — عندما طبعت هذه العبارة— صديق يلوذ بالعزلة . **وبدا لى انه من المستنكر ، ومن المجافاة للأمانة ، ان يكون ديدرو قد نسى — عند نشرها — هذا الصديق المعتكف .. أو — اذا كان قد تذكره— ان لايكون قد اردف— فى تعميمه الرأى ، على الأقل— ما كان ينبغى عليه من استثناء كريم وعادل ، لا بالنسبة لهذا الصديق فحسب ، وانما بالنسبة الى كثير من الحكماء ذوى المكانة ، الذين كانوا ينشدون فى العزلة — فى جميع الأزمان — الهدوء والسلام ، والذين سمح مؤلف لنفسه — لأول مرة منذ خلق الدنيا— بأن يجعل منهم، على كثرتهم، اشرارا بلا استثناء، وبجرة قلم !**

كنت أحب «ديدرو» من قلبى، وكنت أقدره صادقا،وكنت مطمئنا تمام الطمأنينة ، الى عين العواطف من ناحيته . ولكنى ضقت بعناده الذى لم يكن يلين ، فى معارضتى فى أذواقى ، وميولى ، واسلوب معيشتى وفى كل ما كان يعنينى وحدى ، بوجه خاص.. وأثارنى مرأى رجل يصغرنى ويسعى بكل حيلة الى ان يسيطر على كما لو كنت طفلا . ونفرنى منه سهولة ازجائه الوعود ، واهماله الوفاء بها . وغاظنى منه كثرة المواعيد المعقودة وتخليه عنها ، وشغفه بعقد مواعيد جديدة لكى ينكث بها مرة اخرى .. ومللت انتظاره عبثا ثلاث أو اربع مرات فى الشهر ، فى أيام كان يحددها هو ، لكى انتهى الى تناول

العشاء وحيدا فى المساء ، بعد ان أكون قد سرت الى (سان دنيس) عسى أن التقى به فى الطريق، وبعد ان أكون قد ارتقبته طوال النهار .. كان قلبى متخما بمثل هذه العيوب المتراكمة. وكان العيب الأخير منها ، يبدو لى أشدها ، كما انه كان اكثرها جرحا لكرامتى . ولقد كتبت اليه شاكيا ، ولكن .. فى حنان ولطف جعلانى اغرق ورقتى بالدموع . وكان خطابى مؤثرا الى درجة كانت خليقة بأن تستدر دموعه . ولكن احدا ما كان ليحدس رده عن ذلك الخطاب .. وهاهو بنصه (الملف ١ ـ رقم ٣٣):

« اننى لجد مغتبط لأن كتابى راقك .. انك لاتقرنى على رأيى بشأن النساك المعتزلين ، فحدث عنهم ولا حرج ، ما شاء لك الحديث ، فلسوف تظل الوحيد فى العالم ، الذى أفكر فيه فى هذا المجال .. ومع ذلك فلا يزال لدى الكثير مما استطيع أن اقوله بهذا الصدد ، لو كان فى الوسع الكلام دون اغضابك. ان امرأة فى الثمانين من عمرها .. الخ . لقد أنبأنى بعضهم بعبارة من خطاب كتبه ابن السيدة ديبيناى ، ولا بد انه آلمك كثيرا ، والا فإننى لم ألم كل الالمام بدخيلة نفسك »

ولا بد لى من ان اوضح العبارتين الأخيرتين من هذا الخطاب :

ففى بداية مكثى فى (ليرميتاج) ، لم تبد السيدة لوفاسير ارتياحا ، ووجدت ان المكان كان منعزلا أكثر مما ينبغى . وقد رددت ملاحظاتها فى هذا الصدد على مسمعى ، فعرضت أن أردها الى باريس ، اذا كانت تفضل ذلك ، وأن أدفع لها أجر سكناها هناك ، وأن أعنى بحاجاتها كما لو انها كانت ماضية فى الاقامة معى .. بيد أنها رفضت اقتراحى ، وأعلنت أنها جد راضية عن (ليرميتاج) ، وان جو الريف كان مفيدا لها . وقد بل ان ابنتها أكدت لى أنها كانت ــ فى قرارة نفسها ــ مستاءة تبدى أن هذا كان صحيحا ، اذ انها ارتدت الى الشباب ، كما ينبغى أن يقال ، وأصبحت أفضل حالا مما كانت فى باريس .

لمبارحتنا (ليرميتاج) ، الذى كان مقاما فاتنا حقا ، وانها كانت مشغوفة بما كان يشغلها من توافه فى الحديقة وفواكهها ، وانها انما قالت ما قالت بايعاز من الغير ، لتحاول اغرائى على العودة الى باريس !

وإذ أخفقت تلك المحاولة ، سعوا الى أن يحصلوا باثارة الريب ، على ما لم تؤد اليه المجاملة ، فراحوا يعلنون أن من الجرم أن استبقى العجوز هناك ، بعيدا عن الخدمات التى قد تحتاج اليها فى مثل سنها ، دون أن يفطنوا الى أنها وكثيرا من المكتهلين ، الذين يطيل طقس الريف الرائع من حياتهم ، كانوا يستطيعون الحصول على تلك الخدمات فى (مونمورنسى) ، التى كانت جد قريبة من مسكنى .. وكأنما لم يكن ثمة كهول الا فى (باريس) ، ولم يكن فى وسع الطاعنين فى السن ان يعيشوا فى أى مكان آخر ! .. ولقد كانت السيدة لوفاسير ــ التى كانت أكولا ، عظيمة النهم ــ عرضة لالتهابات المرارة ، ولنوبات قاسية من الاسهال ، كانت تلازمها أياما ، ولا تلبث أن تشفى من تلقاء ذاتها . ولم تكن العجوز تتناول شيئا ــ حين كانت فى باريس ــ وانما كانت تترك الطبيعة تتخذ مجراها . وكذلك كانت تفعل فى (ليرميتاج) اذ أدركت انها لا تملك سبيلا خيرا من هذه !

ولكن الراغبين فى اثارة المتاعب ، لم يعبأوا بهذا ، فما دام لم يكن ثمة أطباء ولا صيادلة فى الريف ، فان استبقاء العجوز هناك ، كان يعنى الرغبة فى موتها .. رغم انها كانت هناك فى صحة طيبة !.. وكان خليقا بديدرو أن يحدد السن التى لا يجوز بعدها السماح للمسنين بالبقاء بعيدا عن (باريس) ، والتى يكون استبقاؤهم بعدها قتلا مع الاصرار ! .. ولقد كان هذا أحد الذنبين الشنيعين ، اللذين لم يشأ من أجلهما أن يستثنينى من رأيه !.. « لايلزم العزلة سوى أهل الخبث » ! وكان هذا تفسير تعجبه المؤثر ، وال « الى آخره » التى تكرم

باضافتها ، حين قال : « ان امرأة فى الثمـانين من عمرها .. الخ » !

* * *

• وخطر لى انني لن أجد ردا على هذا اللوم ، أفضل من أن أرجع الى السيدة لوفاسير نفسها . فسألتها أن تكتب الى السيدة ديبيناى معبرة عن شعورها الطبيعى ازاء الأمر . ولكى أتركها تسترسـل على سجيتها ، لم أسـألها ان تطلعنى على خطابها .. بل اننى أطلعتها على الخطاب التـالى ، الذى كنت قد كتبته الى السيدة ديبيناى ، بشأن رد ـ كنت قد اعتزمت أن أجيب به عن خطاب أعنف من السابق ، ورد من ديدرو ـ ولكنها منعتنى من ارسال هذا الرد

« يوم الخميس

« أن السيدة لوفاسير تعتزم أن تكتب اليك ، أيتها الصديقة الطيبة .. فلقد رجوتها أن تروى لك بصراحة مايدور بخلدها. ولكى تكون على سجيتها تماما ، فقد أخبرتها بأننى لا أريد أن ارى خطابها ، كما اننى أناشـدك ان لا تذكرى لى شيئـا عن محتوياته .

« اننى لم أرسل خطابى (١) ما دمت تعـارضين فى ذلك ، ولكن شعورى بأننى طعنت طعنة بالغة ، يجعل من الصغـار ، بل ومن الغش الذى لا أسمح به لنفسى ، اننى أرضى بأن أكون مخطئا .. **ولا مراء فى ان الانجيل يدعو المرء الذى يصفع على أحد خديه ، أن يدير الخد الآخر ، ولكنه لايدعوه الى أن يطلب الصفح . أفتذكرين ذلك الرجل الذى يهتف ـ فى المسرحيـة الفكهة ـ وهو يتهال بعصاه ضربا :« هاهو ذا دور الفيلسوف »؟!**

« لاتخدعى نفسك اذ ترين أن بوسعك أن تمنعيه من المجىء

---

(١) يقصد الرد على الخطاب القاسى الذى تلقاه من « ديدرو »

متعللة بسوء الطقس هنا ، فى الآونة الحاضرة .. فان حنقه سيهبه ما تأباه عليه الصداقة من وقت وقوة .. وستكون هذه هى أول مرة فى حياته ، يفد فيها فى ذات اليوم الذى يضربه موعدا ! ولسوف يبذل قصارى جهده لكى يأتى فيردد بلسانه ما كاله لى فى خطاباته من اهانات . ولسوف أتحملها ببالغ الصبر . ولسوف يعود الى باريس ، وهو مريض . ومن ثم اغدو أنا ـ كالمعتاد ـ شخصا بغيضا كل البغض . فماذا أفعل ؟ .. لا مفر من الاحتمال !

« ولكن ... الست تعجبين بحكمة شخص رغب فى أن يجىء فيصحبنى الى (سان دنيس) فى مركبة ، لنتناول الغداء هناك ، ثم يقلنى ـ فى العودة ـ فى مركبة .. ثم لاتلبث ثروته أن تعجز ـ بعد ثمانية ايام ـ (الملف ا ـ الرسالة رقم ٣٤) ـ عن أن تمكنه من أن يفد على (ليرميتاج) الا سائرا على قدميه ؟ .. ليس من المستحيل فى شىء ـ اذا تكلمنا بأسلوبه ـ أن تكون هذه هى سمة الاخلاص وحسن النية ، ولكن لابد له ـ فى هذه الحال ـ من أن يطرأ على موارده تغير خارجى خلال ثمانية أيام !

« اننى اشاطرك أساك من اجل مرض السيدة والدتك ، ولكنك ترين أن آلامك لا تعادل آلامى . فان رؤية الاشخاص الذين نحبهم مرضى ، اقل ايلاما للنفس من الغبن والقسوة .

« فوداعا يا صديقتى الطيبة ، وستكون هذه آخر مرة اتحدث فيها اليك عن هذه المسألة التعسة .. انك تحدثيننى عن الذهاب الى باريس فى هدوء اعصاب كفيل بأن يطربنى ، لو انه حدث فى ظروف أخرى ! »

وانبأت « ديدرو » بما فعلت مع السيدة لوفاسير ، نزولا عند رأى السيدة ديبيناى نفسها . وقد اختارت السيدة لوفاسير البقاء فى (ليرميتاج) ـ وهو ماكان فى وسع أى امرىء ان يحدسه ـ لأنها كانت جد مرتاحة الى المقام فيه ، حيث

كانت تجد دائما انيسا ، وحيث كانت تحيا حياة تروق لها . ومن ثم فان ((ديدرو)) لم يعد يدرى بأى ذنب يتهمنى ، فجعل من هذا الاحتياط الذى اتخذته (١) ذنبا ، كما اتخذ من استمرار بقاء السيدة لوفاسير فى (ليرميتاج) ذنبا آخر ، بالرغم من ان هذا البقاء كان بمحض اختيارها ، وقد ظلت حرة فى ان تعود الى باريس لتقيم متمتعة بنفس ما كانت تتمتع به فى بيتى من مساعدة .

هذا هو بيان اللوم الأول ، الذى ورد فى رسالة ((ديدرو)) رقم ٣٣ . اما ايضاح اللوم الثانى ، ففى سياق خطابه رقم ٣٤ :

((لا بد ان الأديب (٢) قد كتب اليك عن ان ثمة عشرين شريدا تعسا على الأسوار ، يموتون بردا وجوعا ، ويرتقبون المليم الذى اعتدت ان تمنحهم اياه . هذه عينة من ثرثرتنا البسيطة .. ولو انك استمعت الى بقيتها ، لوجدت فيها ما يروقك ، كهذه !))

وها هو ذا ردى على هذا الجدل البغيض ، الذى بدا وكان ((ديدرو)) كان مزهوا به :

((اعتقد اننى رددت على ((الاديب)) ـ اقصد ابن ناظر الزراعة العام ـ باننى لا اشفق على الفقراء الذين رآهم على الاسوار يرتقبون مليمى . وان من الواضح انه قد عوضهم عما فقدوا ، واننى قد عينته بديلا عنى ، وانه ليس لفقراء باريس ان يشتكوا من هذا التغيير ، واننى لا أجد من السهل العثور على بديل آخر ، يصلح لفقراء (مونمورنسى) ، الذين هم اشد حاجة ! .. فهنا شيخ طيب ، ومحترم ، قضى حياته فى العمل ، ولم يعد اليوم يقوى عليه ، فهو يموت جوعا ابان شيخوخته .

---

(١) الاحتياط الذى تمثل فى انه ترك مدام لوفاسير تكتب ما تشاء ، دون ان يطلع على خطابها

(٢) لقب اطلقه جريم على ابن السيدة ديبيناى ، من قبيل الدعابة

وان ضميرى ليشعر بارتياح ازاء قطعتى «السو» اللتين امنحه اياهما فى يوم الاثنين من كل اسبوع ، يفوق ذاك الارتياح الذى يستشعره اذا انا وزعت مائة مليم على صعاليك الأسوار . **انكم لتلهون – يا معشر الفلاسفة – حين تنظرون الى جميع سكان المدن ، بحسبانهم الوحيدين الذين يطالبكم الواجب بأن تشغلوا بأمرهم ..** انما يتعلم المرء حب الانسانية وخدمتها فى الريف ، ولا يتعلم فى المدن سوى ازدرائها ! »

* * *

• **هكذا** كانت الوساوس العجيبة ، التى استند اليها رجل ذكى ، منساقا لنزوة حمقاء حملته على ان يجعل – جادا – من بعادى عن باريس ذنبا وجرما ، وعلى ان يحاول ان يبرهن لى بحالى على أن لاسبيل الى الاقامة خارج العاصمة ، الا اذا كان المرء خبيثا . ولست ادرى اليوم ، كيف كنت من البلاهة بحيث رددت عليه ، واستأت منه ، بدلا من ان يكون جوابى الأوحد ، هو ان أضحك ساخرا ؟ !.. على ان قرارات السيدة ديبيناى ، والضجة التى أثارتها عصبة دولباخ ، استولت على أذهان الناس وغرتهم ، حتى لقد اعتبرت – بوجه عام – مخطئا فى هذه المسألة .. **وحتى ان السيدة دوديتو نفسها – وهى من أشد المعجبات بديدرو – رغبت فى ان اذهب الى زيارته فى باريس ، وأن أؤدى كل المقدمات لصلح لم يقدر له ان يدوم طويلا ، بالرغم من انه كان مخلصا وكان من ناحيتى ..**

وكانت الحجة الموفقة التى استغلتها السيدة دوديتو للتأثير على قلبى ، هى أن ديدرو كان – فى هذه اللحظة – تعسا شقيا . فالى جانب العاصفة التى ثارت ضد « الموسوعة » ، كان عليه أن يحتمل عاصفة أخرى أشد عنفا ، أثارها الكتاب . فبالرغم من المقدمة الصغيرة التى مهد لها به ، اتهم « ديدرو » بأنه قد نقله بأكمله عن « جولدونى » . ولقد كان ديدرو اكثر تأثرا

وارتباكا بالنقد من فولتير . ولقد ذهبت السيدة « دى جرافيينى » فى دهائها الى حد انها اذاعت شائعة بأننى انتهزت هذه الفرصة لكى أقطع ما كان بينى وبينه . **لذلك فقد رأيت أن من الانصاف والكرم ، أن أظهر نقيض ذلك على الملأ ، فذهبت لأقضى يومين فى داره ، وان لم أقضهما فى صحبته وحده !** ..وكانت هذه هى رحلتى الثانية الى باريس، منذ استقر بى المقام فى (ليرميتاج) . فقد قمت بالرحلة الأولى ، لأبادر بأن أكون الى جوار « جوفكور » الذى أصيب بنوبة فالج ، لم يقدر له أن يشفى منها تماما . وقد ظللت طيلة مرضه ملازما فراشة حتى تجاوز الخطر !

واحسن ديدرو استقبالى .. فما أقدر عناق الأصدقاء على محو الأخطاء ! .. واية سخيمة يمكن ان تظل فى القلب بعد ذلك ؟ .. وتبادلنا بعض الايضاحات ، فما كان ثمة داع لها ، مادامت الاساءات متبادلة . ففى مثل هذه الحال ، لايكون ثمة ما ينبغى فعله سوى .. النسيان ، لاسيما وانه لم تكن ثمة دسائس خفية ـ فيما كنت أعلم على الأقل ـ كما كانت الحال مع السيدة ديبيناى . ولقد اطلعنى على مشروع كتابه . « اب الأسرة » ، فقلت له : **« هذا خير دفاع عن « ابن السفاح » ! .. فالزم الصمت ، وامض فى هذا المؤلف بعناية ، ثم طوح به فجأة فى وجوه اعدائك ، فانه الرد الوحيد » . ولقد فعل ذلك ، ووجد انها خطة موفقة !**

ولقد ارسلت اليه الجزءين الأولين من « جولى » ـ قبل ذلك بستة اشهر ـ أسأله رأيه فيهما . ولم يكن قد قرأهما بعد ، فطالعنا شطرا منهما معا . وقد وجد انهما « قرطسة »(١)، وكان هذا هو التعبير الذى استخدمه ، قاصدا ان الجزءين

---

(١) قرطسة : مشتقة من قرطاس ، وهو الورق .. وهو يقصد هنا ، ان المادة كانت حشوا ، او مجرد تسويد ورق .

كانا مليئين بالكـلام المنمق ، وبالتكرار والاطالة . وكنت قـد شعرت بذلك ، من تلقاء نفسي ، ولـكن ما اوردته فيهما كان هذيان الحمى (١) ، ولم أكن قد راجعته أو صححته . على ان الأجزاء الأخـيرة ليست على هـذا الغرار ، لاسيما الرابـع والسادس ، فانهما تحفة فى البلاغة

وفى اليوم التـالى لوصولى ، رغب — فى اصرار — فى ان يصطحبنى لتناول العشاء لدى السيد « دولباخ » . وكنـا بعيـدين عن ان نتفق على رأى ، حتى اننى كنت راغبا فى أن أفسخ الاتفاق الخاص بأصول كتاب « الكيمياء » ، لأننى كنت اربأ بنفسى ان اكون على التزام نحو هذا الرجل (٢) . **ولقـد انتصر « ديدرو » على طول الخط ، وأقسم على أن السـيد « دولباخ » كان يكن لى أخلص الود ، وأن الواجب يقتضينى أن أغفر له مسلـكه الذى يتخذه مع الناس كافة ، والذى يعانى منه أصدقاؤه اكثر مما يعانى سواهم** . وصور لى أن رفض انتاج هذا الكتاب ، بعد ان قبلته منذ عامين ، اهانة لصاحب العرض ، لايستحق أن يجازى بها .. بل ان هذا الرفض قد يساء تأويله ، فيحمل على محمل اللوم لأنه مكث هـذا الأمد الطويل دون أن يحقق الاتفاق . واستطرد قائلا : « اننى أرى دولباخ فى كل يوم ، وأعرف حال نفسه أكثر مما تعرفها أنت .. واذا لم يكن ثمة مجال لك كى ترضى عن هذا العمل ، أفتظن أن صديقك يقدم على نصحك بأن تحط من قدر نفسك ؟ » . وفى ايجاز ، سمحت لنفسى بأن أسلم له — بكل ما عرف عنى من

---

(١) كتب « روسو » الجزءين الأولين من « جولى » ، وقد انتابه الحنين الى الحب ، فراح يوحى اليه باحلام محمومة ، على ما اورد من قبل .

(٢) يقصد « دولباخ » . ويلاحظ أن « روسو » لم يذكر شيئا من قبل عن « أصول كتاب فى الكيمياء » ، ولا عن « الاتفاق » الذى تم بشأن ذلك . ومن ثم فان ايراد الامر على هذه الصورة ، يبدو محوطا بالغموض . ولسنا نجد فيما كتب شيئا يلقى مزيدا من الضوء على المسالة .

ضعف ـ وذهبنا معا لتناول العشاء مع البارون، الذى استقبلنى على مألوف عادته . ولكن زوجته تلقتنى بفتور ، بل وبجفاء غير كريم (١) حتى كدت أنكر فيها « كارولين » اللطيفة ، التى أظهرت لى ـ قبل زواجها ـ كثيرا من آيات النية الطيبة . وكنت قد لاحظت ـ قبل ذلك بزمن طويل ـ اننى لم أعد زائرا مرموقا ، مذ أصبح « جريم » ضيفا مستمرا فى قصر (اين)

* * *

• **وبينما** كنت فى (باريس) ، وفد « سان ـ لامبير » فى اجازة من الجيش . ولما لم أكن قد علمت بذلك ، فاننى لم أره الا بعد عودتى الى الريف ، فى (لاشيفريت) أولا ، ثم فى (ليرميتاج) ، حيث أقبل مع السيدة دوديتو ، واستضافا نفسيهما للغداء . ومن الميسور تصور مدى الاغتباط الذى استقبلتهما به ! .. ولكنى كنت أكثر اغتباطا بمشاهدة انسجامهما البديع . وسعدت بدورى ، اذ اطمأنت الى اننى لم أعكر صفو هنائهما . **وبوسعى أن اقسم على اننى ما كنت ـ طيلة وجدى الطائش ، بل وفى تلك الآونة بالذات ـ لأتمنى أن آخذ السيدة « دوديتو » من « سان ـ لامبير » ، ولو استطعت الى ذلك سبيلا .. بل اننى ما كنت لأشعر بمجرد الرغبة فى ذلك ! .. فلقد وجدتها جديرة بحب « سان ـ لامبير » ، مدلهة فى هواه ، حتى اننى لم أكد أتصور انها تستطيع أن تهيم بى بهذا القدر ، وكان كل ماطمعت فيه ـ فى بحران الوجد ـ هو أن تدعنى أحبها من ناحيتى ، دون ما رغبة منى فى أن أعكر صفو رابطتهما ! ..** وقصارى

---

(١) ذكر « روسو » فى الكراسة الثامنة ، نبأ موت السيدة دولباخ . ومن ثم يحسن أن نذكر هنا أن البارون دولباخ كان لا يزال فى مقتبل الشباب ، عندما ترمل ، فتزوج ثانية ، وكانت زوجته الجديدة هى « كارولين ـ سو آن د ـ اين » ، وهى أخت زوجته المتوفاة . وقد حصل على اذن بذلك من روما . ومن هنا نفهم أن قصر (اين) ، الذى ذكر بعد ذلك ، كان من أملاك الزوجة .

القول اننى ــ رغم عنف الصبابة التى كانت تلتهمنى بنيرانها ــ وجدت متعة فى أن أكون موضع ثقة هذه السيدة ، لا تقل عن المتعة التى كنت خليقا بأن استشعرها اذا كنت هدف حبها . ولم أنظر الى عاشقهـا لحظة على انه غريم أو مزاحم ، وانمـا ظللت ــ على الدوام ــ أنظر اليه كصديق . ولقد يقال ان هذا لم يكن بعد غراما حقيقيا، فليكن !.. **لقد كان اكثر من الغرام!**

اما «سان ــ لامبير» ، فقد كان تصرفه تصرف الرجل الكريم، الرزين . ولما كنت المذنب الوحيد ، فاننى كذلك كنت الوحيد الجدير بالعقاب ، وكان عقابى مشوبا بالتسامح . فقد عاملنى « سان ــ لامبير » فى خشونة ، ولـكن فى ود . واستطعت أن ألمح اننى قد فقدت بعض تقديره ، ولكنى لم أفقد شيئا البتة من صداقته . فتعزيت بذلك ، موقنا من ان استعادة الأول ، أسهل بكثير من استعادة الثانية.. ومدركا انه كان أعقل وأحكم من أن ينقم على ضعف لا ارادى ، وطارىء ، ومنبعث عن عيب طبيعى ، واذا كانت ثمة أخطاء من ناحيتى ــ فى كل ما جرى ــ فانها كانت طفيفة . أفأنا الذى سعى الى عشيقته ؟.. الم يكن هو الذى أرسلها الى ؟.. الم تكن هى التى جاءتنى ؟ فهل كان بوسعى أن أمتنع عن استقبالهـا ؟ .. ما الذى كنت أملك أن أفعله ؟ .. انهما هما سر البلوى ، ولم يكن من معذب سواى !

ولو ان « سان ــ لامبير» كان فى مكانى، لفعل عين مافعلت، بل ربما أسوأ مما فعلت !.. ذلك لأن السيدة دوديتو ــ رغم وفائها ، ورغم جدارتها بالاحترام ــ كانت امرأة !.. ولقد كان هو كثير التغيب ، فكانت الفرص موفورة ، والمغريات شديدة، وكان من الشاق حقا أن تذود دائما عن نفسها ضد أى عاشق اكثر جرأة ، بعين التوفيق الذى صدتنى به . ويقينا انه كان من الكثير ــ الذى ينبغى أن يذكر لنا ، هى وأنا ــ أن استطعنا فى ظروف كهذه ، أن نضع حـدودا ، لم نسمح لنفسينا قط بتخطيها !

ومع اننى كنت أستطيع ان أستخلص من اعماق قلبى شهادة كريمة فى صالحى ، الا ان المظاهر كانت ضدى ، حتى ان الشعور بالخجل الطاغى ــ الذى كان يتسلط على دواما ــ خلع على ، فى حضور « سان ــ لامبير » ، مظهر المذنب، فأكثر هو من استغلاله لاذلالى . وكان ثمة حادث واحد يوضح هذا الموقف المتبادل . فلقد قرأت عليه ــ عقب الغداء ــ الرسالة التى كنت قد كتبتها لفولتير، قبل عام ، والذى سمع بأمرها. واذا به يستسلم للنعاس ، بينما كنت اقرأها . وبعد ان كنت فخورا ، اذا بى أغدو غبيا، فلا أجرؤ على أن أقطع القراءة،ومن ثم فقد استرسلت فيها ، بينما استرسل هو فى الغطيط !.. وهكذا اذلت نفسى .. وهكذا كان ثأره لنفسه .. غير ان كرم نفسه لم يكن يخوله ان يمارس هذه الأساليب ، الا فيما بيننا نحن الثلاثة !

* * *

• **وبعد** ان رحل « سان ــ لامبير » ثانية ، الفيت السيدة دوديتو قد تغيرت ازائى تغيرا شديدا. وقد ذهلت لهذا،وكأنه لم يكن خليقا بى ان اتوقعه . وتأثرت به اكثر مما كان ينبغى، مما سبب لى كثيرا من الآلام والتباريح .. وكأنما كل شىء مما توقعت ان يبرئنى ، كان يزيد من تغلغل السهم فى قلبى .. ذلك السهم الذى أصبحت ــ فى النهاية ــ اوُثر أن أكسره، عن أن أنزعه !

وعقدت العزم على أن أقهر نفسى تماما ، وان لا أدع شيئا الا فعلته لكى أحول صبابتى الرعناء الى صداقة طاهرة ، باقية. وعلى ضوء هذه الغاية ، رسمت أروع الخطط فى الحياة ، ولم يكن يعوزنى فى تنفيذها سوى معونة السيدة دوديتو . فلما حاولت أن أحدثها عنها ، وجدتها شاردة البال ، مضطربة الخاطر ، فشعرت بأنها لم تعد تحس بأية لذة فى صحبتى !

وتبينت بجلاء أن شيئا ما قد جرى، وانها لم تكن راغبة فى ان تنبئنى به . وما قدر لى قط أن أعرفه . ولقد عذبنى أقسى العذاب ، هذا التغير الذى عجزت عن أن أصل الى ايضاح له. وسألتنى ان أرد اليها خطاباتها ، فرددتها جميعا ، بأمانة جرح كرامتى ان السيدة ارتابت فيها لحظة !.. وكان هذا الارتياب طعنة أخرى أصابتنى ، كما لابد ان تكون قد أدركت . وقد انصفتنى وعوضتنى ، ولكنها لم تفعل ذلك فورا . فقد أدركت ان فحص حزمة الرسائل التى أسلمتها اياها ، جعلها تفطن الى ظلمها . بل انى استطعت ان ارى انها قد انبت نفسها على ذلك ، فوجدت فى ذلك شيئا من التعويض .

وما كان لها ان تأخذ رسائلها دون ان تعيد الى رسائلى .. وقالت لى انها احرقتها ، فجرؤت بدورى على ان ارتاب فى ذلك ، كما ينبغى ان أعترف . لا .. ان المرء لايلقى بمثل هذه الخطابات الى النار . لقد وجدت مثل هذه الخطابات محترقة فى قصة ((جولى)) ، فيا لله !.. ما الذى قيل عن ذلك ؟.. لا ، لا . ان المرأة التى أوتيت القدرة على ان توقد كل هذا الوجد ، لايمكن ان تواتيها الشجاعة قط على ان تحرق أدلة وجوده . ولكننى مع ذلك لم أكن أخشى أن تسىء استغلالها ، فما كنت لأؤمن بأنها قادرة على ذلك . كما اننى كنت قد اتخذت التدابير للحيلولة دون ذلك!.. ذلك ان الخوف الأحمق،

والمحتدم فى الوقت ذاته ، من أن أتعرض للسخرية ، حملنى على ان ابدأ هذه المكاتبات بصيغة تجعل رسائلى فى مأمن من ان تذاع . و لقد ذهبت فى ذلك الى حد الاسراف فى الألفة التى كنت قد انتهجتها فى نشوتى ، فرحت أخاطبها بصيغة المفرد . ولكنى حرصت فى ذلك على ان لاتجرح هذه الألفة كرامتها . ومع انها شكت مرارا من ذلك، الا انها لم توفق الى حملى على العدول .. ولم تؤد شكاواها الا الى ايقاظ هواجسى ، فضلا عن أننى لم أستطع أن أحمل نفسى على التراجع . ولو ان هذه الرسائل كانت موجودة ، وقدر لها يوما ان ترى الضوء، لعرف الناس كيف أحببت ! (١)

ولقد أدى الألم الذى أحدثه فتور السيدة دوديتو، واليقين من أننى كنت أستحقه ، الى ان أنهج منهجا عجيبا، اذ شكوت منه الى « سان ــ لامبير » نفسه !.. وفى انتظار نتيجة خطابى بهذا الصدد ، أغرقت نفسى فى الشواغل التى لم يكن ثمة بد من أن أسارع بالبحث عنها . فلقد اقيمت فى (لاشيفريت) بعض حفلات، وضعت الموسيقى التى عزفت فيها . وحفز نشاطى على ذلك ، تلك المتعة التى تمثلتها اذ أرفع من قدر نفسى فى عينى السيدة دوديتو ، بعرض الموهبة التى كانت تغرم بها . وساعد ظرف آخر على اذكاء نشاطى، وهو رغبتى فى أن أظهر للملأ ان مؤلف « عراف القرية » كان على دراية بالموسيقى .

---

(١) رغبت السيدة بروتان ، التى كانت تقيم على مقربة من (أوبون) ، فى ان تعرف حقيقة مصير هذه الرسائل ، فسألت السيدة دوديتو يوما عن الأمر ، فاجابتها هذه بأنها قد احرقتها فعلا ، فيما عدا رسالة واحدة ، لم تؤت الشجاعة على حرقها لأنها كانت قطعة من البلاغة والغرام المشبوب .. وقد اسلمتها الى السيد دى « سان ــ لامبير » . هذا ما ذكره السيد دى موسيه ــ فى كتيب له بعنوان : « حكايات للتعقيب على مذكرات السيدة ديبيناى » ــ عن شهادة السيدة الفيكونتة داللار ، التى عاشت فى ود وثيق مع السيدة دوديتو ، زهاء ثلاثة عشر عاما .

اذ كنت قد لاحظت من فترة طويلة ، ان ثمـة من كان يعمل فى الخفـاء على ذر الريب حول ذلك ، فيمـا يختص بالتأليف الموسيقى على الأقل !.. ولقـد كان أول ظهورى فى باريس ، والاختبارات التى تعرضت لها فى مناسبـات مختلفة فى دارى السيدة دوبان والسيد ديلابوبلينيير ، والقدر الذى الفته من الموسيقى خـلال اربع عشرة سـنة ـ وسط أعظم أهل الفن شهرة، وتحت أبصارهم ـ ثم أوبرا «عرائس الشعر اللطاف»، بل واوبرا «العراف» ، وأغنيـة كتبتها للآنسـة فيل وغنتها بنفسها فى حفلات «الموسيقى الروحية» ، والمناقشات العديدة التى دارت بينى وبين كبار الاساتذة، عن هذا الفن الجميل.. كل هذه البراهين كانت جـديرة بأن تمنع ، أو بأن تبـدد أية شكوك من هذا القبيل . ولكنها ـ مع ذلك ـ كانت موجودة ، حتى فى (لاشيفريت) ، فقد رأيت ان السيد ديبينـاى لم يكن بمنجى منها !.. وبدون أن أظهـر أننى كنت أفطن الى ذلك ، عكفت على تلحين انشودة من أجله ، لتدشين كنيسة (لاشفريت) ، وسألته ان يمدنى بالكلمات التى ينتقيها لها بنفسـه . فعهد الى دى لينان ، مربى ابنه ، بأن يكتبها . وقـد ألف دى لينان بضعة ابيات تناسب المقام ، وبعد ثمانية ايام من موافاتى بها ، كانت الأنشودة معدة

وفى هذه المرة ، كان الغيظ هو ملهمى ، فلم تخـرج من بين يدى يوما موسيقى أجزل من هذه ! . وقد بدات ابياتها بهذه الكلمات اللاتينية : Ecce sedes bic Tonantis (١) . وكانت روعة المقدمة الموسيقية ، تتمثل فى مجاراة الكلمات ، فكانت الانشـودة بأسرها من البهـاء بحيث بهت كل امرىء

---

(١) اضاف « روسو » الى هذا تعقيبا قال فيه : « علمت فيما بعـد ان هذه الكلمات كانت من نظم « دى سانتويى » ، وأن السيد دى لينان نسبها الى نفسه » !

اعجابا !.. وكنت قد وضعت اللحن لفرقة موسيقية كبيرة ، وقد حشد ديبيناى خير العازفين . وتولت السيدة برونا ـ وهى مغنية ايطاليا ـ القاء الانشودة ، وكان العزف رائعا فى مصاحبتها . **وقد نجحت الانشودة نجاحا باهرا ، حتى انها ألقيت بعد ذلك فى حفلات « الموسقى الروحية »، حيث لقيت نفس الاعجاب مرتين ، بالرغم من الدسائس الخفية، ومن سوء الاخراج !..** كذلك اقترحت ـ بمناسبة عيد ميلاد السيد ديبيناى ـ قطعة غنائية نصفها تمثيل عادى ، ونصفها تمثيل صامت ، بالايماء . وقد تولت السيدة ديبيناى تأليف الكلام ، وتوليت انا تأليف الموسيقى . ولقد سمع « جريم » ـ عند وصوله ـ بانتصاراتى الموسيقية . ولم تنقض ساعة ، حتى لم يعد ثمة حديث عنها ، ولكن لم يعد ثمة ريب ـ على الأقل ـ فى اننى كنت اعرف التلحين وأحذقه !

* * *

• **وما** ان استقر « جريم » فى (لاشيفريت) ، حيث كنت لا أشعر بكثير من الانشراح، حتى أفلح فى ان يجعل بقائى هناك أمرا لا يطاق، وذلك بتصرفات لم أرها تبدى من احد قط قبل ذلك ، ولا كانت تخطر لى على بال . ففى اليوم السابق على وصوله ، نقلت من أفضل غرف الضيوف ـ وهى التى كانت تجاور مخدع السيدة ديبيناى ـ ليحتلها جريم ، بينما أفردت لى غرفة أخرى ، فى أقصى أطراف الدار . وقد قلت للسيدة ديبيناى ضاحكا : « الا انظرى كيف يطرد الوافدون الجدد ، النزلاء القدامى ! » ، فبدا عليها الارتباك !.. **وقد فهمت السر فى ذلك بجلاء، فى ذلك المساء، حين علمت ان ثمة بابا خفيا بين مخدعها والمخدع الذى فارقته ، وانها لم تكن قد رأت جدوى من اطلاعى عليه . ولم تكن علاقاتها بجريم سرا على أحد ، سواء فى قصرها ، او فى المجتمع ، بل ولا على زوجها**

نفسه !.. ومع ذلك فانهـا بدلا من ان تأتمننى عليها ، اصرت على انكارها ، رغم أننى كنت الأمين على أسرار تفوقها قيمة ، وكانت هى تدرك ان هذه الاسرار بمأمن لدى . ولقـد أدركت ان التحفظ كان راجعا الى « جريم » الذى لم يكن راغبا فى أن تكون فى حـوزتى اية اسرار تمسـه ، رغم أنه كان مستودع اسرارى جميعا !

وشفعت له عواطفى القديمة ــ التى لم تكن قد خمدت ــ وكفاءته الحقة ، بيد انها لم تستطع ان تصمد امام العناية التى راح يبذلها لكى يهدمها ! .. فقـد كان سلوكه ازائى ، شبيها بسلوك الكونت دى توفيـر (١) ، حتى انه لم يكد يتكرم برد تحيتى حينمـا استقبلنى ، لا ولم يوجـه الى كلمة واحـدة ، وسرعان ما أعفانى من ان أخاطبه ، اذ لم يحـاول ان يوجه الى ما أجيب عنه البتة . وكان يتقـدمنى فى اى مكان ، دون ان يحاول قط ان يحفل بى . ولقـد كان بوسعى أن أتجاوز عن هـذا ، لولا انه ابدى حرصـا على جرح كرامتى . ويكفى ان أسوق واقعة واحدة من ألف ، ليتسنى الحكم على ذلك . .

ففى ذات مساء ، شعرت السيدة ديبينـاى بتوعك بسيط ، فطلبت الى الخـدم ان يحملوا اليها بعض الطعـام فى مخدعها بالطابق العلوى ، حيث اعتزمت ان تتنـاول العشاء الى جانب المـدفأة . ودعتنى الى الصعود معها الى المخـدع ، فلبيت . وما لبث «جريم» ان أقبل بعد ذلك .

وكانت المـائدة الصغيرة قـد أعدت ، بحيث لاتضم سوى شخصين، واحضر الطعام، فاتخذت السيدة ديبيناى مجلسها الى احد جانبى المدفأة . واستولى السيد «جريم» على مقعد وثير ، فاستقر فيه ، الى الجانب الآخر . وجر المائدة فجعلها

---

(١) شخصية فى احدى المسرحيات الفكهة ، هى مسرحية « المظفرون » من تاليف « ديتوش » . وقد ظهرت في سنة ١٧٣٢ ؛

بينهما ، ونشر المنشفة ، وشرع فى الأكل، دون ان ينبس ببنت شفة لى !.. وتضرج وجه السيدة ديبيناى خجلا، ولكى تحمله على ان يعتذر عن تصرفه النابى ، عرضت على مكانها . ولم يقل «جريم» شيئا ولا هو تطلع نحوى . ولما لم يكن لى من سبيل كى اقترب من المدفأة ، فقد قررت ان اذرع الحجرة ، ريثما يحضرون لى أدوات للمائدة . . وتركنى أتناول عشائى فى طرف المائدة، بعيدا عن النار، دون ان يبدى أتفه اعتذار لى وقد كنت اكبره سنا ، وكنت معلولا ، وكنت صديقا قديما للأسرة وقد قدمته بنفسى اليها ، فكان خليقا به ان يكرمنى لذلك، لاسيما وهو الأثير لدى السيدة !.. وكانت كل تصرفاته معى تشبه كثيرا هذا النموذج . فقد كان يعاملنى وكأننى أقل منه شأنا حقا ، وكان يعتبرنى كما لو اننى لم اكن شيئا يذكر !

وكان من العسير على أن أعرف فيه «خادم المدرسة» الذى التحق بخدمة الأمير « ساكس ـ جوتا » ، والذى كان يرى فى احتفائى به شرفا وتكريما !.. ووجدت عناء اشد فى ان أوفق بين هذا الصمت العميق ، وهذا الترفع المهين ، وبين تلك الصداقة اللطيفة التى كان يتظاهر بأنه يكنها لى ، امام أولئك الذين كان يعرف انهم يولوننى اياها فعلا ! .. ومن الصحيح انه لم يكن يبدي شيئا اللهم الا ليرثي لحالي ـ التي لم أكن

اشكو منها على الاطلاق ! ــ ويشفق على حظى المحزن ــ الذى كنت قريرا به ! ــ ولينعى على اننى كنت ارفض فى فظاظة اللفتات الكريمة ، التى كان يعلن انه مشوق الى اظهارها نحوى ! .. وبفضل هذا الدهاء استطاع ان يحمل القوم على ان يعجبوا بعطفه الكريم،وعلى ان يعتبوا علىنفورى الجاحد.. كما استطاع ان يوهم الناس أجمعين ــ دون أن يفطنوا ــ بأن لايتصوروا انتقوم بينراع شهممثله، وتعسشقىمثلى، روابط غير روابط الاحسان من احد الطرفين ، وروابط الالتزام والامتنان من الطرف الآخر .. دون ان يخطر ببالهم ــ ولو على قبيل الاحتمال ــ ان هذه الروابط قد تكون صداقة بين ندين متكافئين !

وعبثا حاولت ــ من ناحيتى ــ انابين اىاعتبار يخضعنى لأى التزام ازاء هذا الراعى الجديد . **فلقد أقرضته نقودا ، ولكنه لم يقرضنى شيئا البتة .. ولقد سهرتعليه فىمرضه ، ولم يكد هو يعودنى فى مرات سقامى .. ولقد عرفته بكل أصدقائى ، ولكنه لم يعرفنى يوما بواحد من اصدقائه .. ولقد أطريته بكل جهدى ، أما هو ..اذا كانقد أطرانى يوما ، فانما فعل فى اضيق نطاق من العلانية ، وبطريقة أخرى ! ..** وما ادى لى يوماــ بل ولم يعرض استعداده لاداءــ خدمة من اى نوع . فكيف اذن كان الراعى الذى غمرنى بعطفه ؟ .. وكيف كنت الأثير المعتمد على رعايته ؟ .. لقد كانهذا ــ ولا يزال ــ فوق ادراكى !

ومن الصحيح ــ الى حد ما ، كثر او قل هذا الحد ــ انه كان شرسا مع كل الناس ، ولكنه لم يذهب فى شراسته الى درجة الضراوة مع سواى .. وانى لأذكر ان «سان ــ لامبير» اوشك ــ ذاتمرة ــ انيطوح بطبق الطعام الى رأس«جريم» ، اذ تجرأ على ان يكذبه جهارا على المائدة ، قائلا فى قحة :« هذا غير صحيح ! » . وكان يقرن لهجته الساخرة ــ بطبيعتها ــ

بعجرفة الشخص الحديث العهد بالنعمة .. بل انه اصبح موضع استهجان ، بفضل سفاهته ! .. فقد أغراه اختلاطه بكبار القوم على ان يتراءى بمظاهر لم تكن لتؤخذ على انها معقولة ، حتى بين هؤلاء القوم !

ولم يكن ينادى خادمه الا بكلمة « ايه ! » ، وكان السيد الجليل الشأن قد اوتى عددا كبيرا من الخدم ، فهو لا يدرى أيهم المنوب بخدمته ! .. واذا منحه عطاء ، كان يلقى به على الأرض ، بدلا من ان يدسه فى يده . وقصارى القول انه كان ينسى ان الخادم انسان ، فكان يوسعه ازدراء وقسوة — فى كل مناسبة — بدرجة تثير النفس ، حتى ان الفتى — وكان من خيرة الخدم ، وقد نزلت له عنه السيدة ديبيناى — لم يلبث ان ترك خدمته دون ما شكوى ، سوى عدم احتماله هذه المعاملة ! .. فكان على شاكلة «لافلير» فى مسرحية «المظفرون» الفكهة !

ولقد كان بليد الذهن بقدر ما كان مغرورا ، وكان يخال انه — بعينيه الكبيرتين الكئيبتين ، ووجهه المترهل — ذو حظوة عظيمة لدى السيدات ، فان عددا من افراد الجنس اللطيف اعتبرنه — بعد تمثيلية الآنسة فيل الخرافية (١) — رجلا ذا عواطف مشبوبة .

وقد اذاع ذلك صيته فى المجتمع ، واكسبه ميلا الى اناقة النساء ، فراح يتجمل ، واصبحت زينته عملية خطيرة ، وكان الناس جميعا يعرفون انه يستخدم المساحيق والمعاجين .

أما أنا فلم أكن اعتقد ذلك ، ولكننى لم البث ان بدأت أصدقه ، لا لجمال بشرته ، ولا لمجرد اننى كنت أجد

---

(١) كان « جريم » قد احب الآنسة « فيل » — دون ان تبادله هى الحب — فانتابته غيبوبة عجيبة ، روى « روسو » قصتها في صفحة ١٥١ (٦٠٥) من الجزء الثالث

جريم

الشـخص الذى اكرمه ((روسو)) فجـازاه عن صنيعـه بأن صـار ألد عدو له

أوانى المعـاجين على مائدة زينته ، وانما لأننى وجـدته ـ اذ ولجت مخدعه ذات صباح ـ منهمكا فى تنظيف اظافره بفرجون صغير صنع لهذه الغاية ! .. وهى عملية واصل أداءها أمامى مزهوا . وحدست ان الرجـل الذى يقضى ساعتـين من كل صباح فى تنظيف أظـافره ، لا يضن ببضع دقائق لـكى يملأ تجاعيد جلده بالمعـاجين ! .. لقد اطلق عليه ((جوفـكور)) الطيب ـ الذى لم يـكن غبيا ـ اسم ((تيران الابيض)) ، على سبيل الدعابة والهزء !

* * *

• **ولم** تكن كل هذه سوى سفاسف مضحكة ، ولكنها كانت تخالف أخلاقى ، وقد انتهت بأن حملتنى على الشك فى أخلاقه ، فاننى لا أكاد اصدق ان رجلا استولت على رأسه النزوات ، يملك لقلبه قيادا فى الطريق السوى . ولقد كان يفخر بحساسية

روحه وعنفوان مشاعره ، أكثر مما يفخر بأى شىء آخر . فكيف يتفق هذا مع تلك العيوب التى لاتلصق بغير ذوى العقول الصغيرة ؟ .. وكيف تسمح له الانطلاقات الحية المتواصلة ، التى تحلق بها مشاعر القلب الحساس - خارج نطاق هذا القلب - ان يشغل باله بأمور تافهة تتعلق بشخصه الضئيل؟.. آه ، يا الهى ! .. ان الذى يشعر ان فؤاده يكتوى بهذه النار السماوية ، يسعى عادة الى ان ينفثها خارجه ، والى ان يكشف دخيلة نفسه .. انه يتلهف الى ان يعرض قلبه على اسارير وجهه ، ولا يفكر قط فى اية معاجين ، أو أية زينة لهذا الوجه !

ولقد تذكرت خلاصة فلسفته الخلقية ، كما انبأتنى بها السيدة ديبيناى ، التى كانت قد انتهجتها . وهذه الخلاصة تضم مبدأ واحدا .. **ذلك هو ان الواجب الأوحد للانسان ، هو أن يسير وراء نوازع قلبه ، فى كل شىء ! .. ولقد امدنى هذا القانون الخلقى - حين سمعت به - بمادة بغيضة للتفكير ، رغم اننى لم أعتبره - فى ذاك الوقت - أكثر من فكاهة .. على اننى سرعان ما تبينت ان هذا المبدأ كان قاعدة تصرفات الرجل فعلا ، ولم ازدد - فيما بعد - الا تثبتا من ذلك ، وان جاء الدليل على حسابى انا ! .. كان ذلك هو المذهب الباطنى ، الذى كثيرا ما حدثنى عنه ديدرو ، وان لم يعمد قط الى الايضاح والشرح .**

وتذكرت كذلك الانذارات العديدة التى تلقيتها - قبل ذلك بسنوات - لتنبيهى الى ان ذاك الرجل كان غشاشا ، وانه كان يعبث بالمشاعر ، دون ان تكون لديه عواطف ما ، بوجه خاص . واستعرضت عدة وقائع صغيرة ، كان السيد دى فرانكويى والسيدة دى شينونسو قد ذكراها لى بهذا الصدد .. فما كان أى منهما ليوليه اعتبارا ، ولا بد انهما كانا على دراية طيبة به ، اذ ان السيدة دى شينونسو ، كانت ابنة السيدة دى روشيشوار ، الصديقة الحميمة للمرحوم الكونت دى فريز ..

كما ان السيد دى فرانكويى ــ الذى كان وثيق الصلة بالفيكونت دى بولينياك فى تلك الفترة ــ كان كثير التردد على القصر الملكى ، فى عين الوقت الذى سمح لجريم فيه بدخوله . ولقد عرفت باريس بأسرها نبأ اليأس الذى استولى عليه عقب وفاة الكونت دى فريز . وكان همه الأكبر هو الاحتفاظ بالصيت الذى اكتسبه ، بعد المعاملة القاسية التى لقيها من الآنسة فيل ، والتى كان من الخليق بى ان اكون أقدر الناس على كشف زيف الضجة التى ترتبت عليها ، لو اننى كنت اقل عمى وغفلة! .. كان لابد من جره الى قصر دى كاستري ، حيث ادى دوره بمهارة مصطنعا اقوى وجد فتاك . **وكان فى كل صباح يسعى الى الحديقة ، ليبكى ما شاء له البكاء ، ممسكا أمام عينيه بمنديل مبتل بالدموع ، طالما كان على مشهد من القصر . وما ان يعرج مع انحناءة الطريق ، الى شارع ضيق ، حتى يدس المنديل فى جيبه بعد ان يخرج من هذا كتابا ، على مرآه اشخاص لم يكن لديه أى ظن عن أنهم كانوا يشاهدونه !**

لقد رؤى ــ وهو يفعل ذلك ــ اكثر من مرة ، وسرعان ما اصبح النبأ مشاعا فى باريس ، ولكنه لم يلبث ان راح منسيا .. حتى انا نسيته ، ولكن مسألة تخصنى عادت تذكرنى به . فلقد كنت طريح الفراش ، على اعتاب الموت ، فى المسكن الذى كنت اتخذه فى شارع (دى جرينيل) ، بينما كان هو فى الريف . وفى ذات يوم ، أقبل ليعودنى ، وهو لاهث الانفاس ، وقال انه قد وصل لتوه من ريفه . وان هى الا دقيقة ، حتى علمت انه وصل فى اليوم السابق ، وانه شوهد فى المسرح ، فى اليوم ذاته !

ولقد عاودتنى ألف من هذه الوقائع الصغيرة ، ولكن اشد ما اذهلنى ، تمثل فى شىء دهشت لأننى لم افطن اليه من قبل . ذلك اننى كنت قد قدمت « جريم » الى جميع أصدقائى ، دون استثناء ، فلم يلبثوا ان اصبحوا جميعا اصدقاء له . وكنت

لا اكاد انفصل عنـــه ، حتى لقد بات من المتعذر ان اواصـــل التردد على بيت لم يكن له هو حق دخوله. ولم يرفض زياراته سوى السيدة دى كريكى ، ومن ذلك الحين انقطعت عن زيارتها انقطاعا يكاد يكون تاما .. ولقد تعرف جريم — من ناحيته — على اصدقاء آخرين ، سواء كان قد اتصل بهم بنفسه ، اوعن طريق الكونت دى فريز . ولم يقدر لأحد من اصدقائه جميعا ان يغـدو صديقا لى . كما انه لم يفـه بكلمة واحـدة لحملى على التعرف بهم ، على الأقل .. وما اظهر لى واحد من كل اولئك الذين كنت التقى بهم فى مسكنه احيانا ، اية نية حسنة .. ولا الكونت دى فريز الذى كان جريم يقيم لديه — والذى كان يسرنى ان اوثق الصلات معه — ولا الكونت دى شومبيرج ، قريبه الذى كانت العلاقة بينه وبين جريم تفوق الود الوثيق !

وهناك ما يفوق ذاك .. فان أصدقائى الأصليين ، الذين جعلت منهم أصدقاء له — والذين كانوا على صلات وثيقة معى قبل هذا التعارف — لم يلبثوا ان تغيروا نحوى بعده .. ابدا لم يقدم لى أحدا من أصدقائه ، وان كنت قد قدمت اليـه كل أصدقائى .. ومع ذلك فانه انتهى الى ان حرمنى منهم جميعا. فاذا كانت هذه هى نتائج الصداقة ، فما هى نتائج البغضاء ؟

ولقد حذرنى « ديدرو » مرات عدة — منذ البداية — من ان « جريم » الذى اوليته كل هـذه الثقة ، لم يكن صديقا لى . وما لبث ان بدل لهجته ، عندما كف عن ان يكون صديقا لى ، هو الآخر !

* * *

ه ولم تتطلب الطريقة التى تصرفت فى اولادى بمقتضاها ، معونة من احد . ومع ذلك فقد اطلعت عليها اصدقائى ، لمجرد اطلاعهم ، حتى لا ابدو فى اعينهم أفضـــل مما كنت . وكان هؤلاء الاصدقاء ثلاثة فحسب : ديدرو ، وجريم ، والسـيدة

ديبيناى . ولقد كان «ديكلو» ـ وهو أجدر أصدقائى بثقتى ـ الوحيد الذى لم أنبئه . ومع ذلك فانه عرف بالامر .. ممن ؟ .. لست ادرى . ومن المتعـــذر احتمال ان تكون السيدة ديبيناى هى المذنبة بخيانة الثقة ـ فى هذه المرة ـ لأنها كانت تعلم خير العلم ، اننى اذا حذوت حذوها ـ لو اننى كنت قادرا على مثل هذا العمل ـ لثأرت لنفسى بقسوة ! .. **ويبقى بعد ذلك جـريم وديدرو ، اللذان كانا ـ فى ذلك الوقت ـ وثيقى الارتباط فى كثير من الأمور ، لا سيما ما يكون منها ضدى .. ومن ثم فهناك أكثر من مجرد الاحتمال بأنهما المذنبان معا !.. وأراهن على أن « ديكلو » ـ الذى لم أكاشفه بسرى ، والذى لم يكن مضطرا لذلك الى الصمت ـ كان هو الوحيد الذى لم يشى بهذا السر !**

ولقد بذل جريم وديدرو ـ فى محاولتهما لاقصاء «المربيتين» عنى ـ جهدا لاستدراج « ديكلو » الى المساهمة فى خططهما ، ولكنه كان يرفض دائما فى ازدراء . ولم يحدث الا فيما بعد ان علمت منه كل ما جرى بينه وبينهما بهذا الصدد . ولـكننى كنت اذ ذاك قـد عرفت من تيريز ما كان كافيـا لأن أبصر فى المسألة كلها غاية خفية ، وانهما كانا مشوقين الى ان يتخلصا منى ، دون ان افطن ـ على الاقل ـ ان لم يكن بالرغم منى .. او انهما ـ على الارجح ـ كانا يبغيان ان يستغلا هاتين المرأتين كأداتين فى خطة سرية . ولقد كان فى كل ذلك شىء غير شريف حقا . وهذا ما تدل عليه معارضـــة « ديكلو » ، دون نزاع . فلير من يشاء فى هذا صداقة او ودا !

لقد كانت هـــذه الصداقة المزعومة خطرة على حيـاتى الداخلية ، كما كان شأنها على حياتى الخارجية . فان الأحاديث الطويلة ، والعديدة ، مع السيدة لوفاسير ـ لعدة سنوات قبل ذلك ـ قد بدلت من مشاعر هـذه المرأة نحوى ، بدرجة ملموسة .. ومن المحقق ان هذا التبدل لم يكن فى صالحى .

فماذا كان موضوع الحديث ـ اذن ـ خلال هـذه الخلوات العجيبة ؟ .. وما السر فى هذا الغموض العميق ؟ .. وهل كان حديث هذه المرأة العجوز مستحبا الى درجة اعتباره نعمة ، او مهما الى درجة تدعو الى فرض مثل هذا الغموض حوله ؟.. لقد بدت لى هذه الاجتماعات مضحكة ، خـلال السنوات الثلاث أو الأربع التى دامتها ، ولكننى عندما تدبرتها ، بدات أعجب منها . وكان هذا الشعور بالعجب كفيلا بأن ينتهى الى عدم الارتياح ، لو اننى عرفت ـ اذ ذاك ـ ما كانت هذه المرأة تتآمر عليه ضدى

وعلى قـدر ما كان جريم يتظاهر به من تحمس من اجلى ـ كان يطنطن به فى المجتمع ، وكان من العسـير ان يتفق مع المسلك الذى راح يسلكه نحوى بالذات ـ فاننى لم اكسب شيئا من هـذا التحمس ، من اية ناحية .. بل ان الاشفاق الذى كان يتظاهر به نحوى ، ادى الى الحط من قدرى اكثر مما ادى الى نفعى . بل انه ـ بقدر ما كان يملك ـ قد جردنى من ارباح المهنة التى اخترتهـا لنفسى ، اذ راح يعلن اننى لم اكن اتقن النسخ . واقر انه كان صادقـا فى قوله ، غير انه لم يكن مما يليق به ان يقوله . **وقـد اثبت انه لم يكن مازحا ، اذ انه استخدم ناسخا غيرى ، ولم يدع لى عميلا كان يستطيع اليـه وصولا ، حتى ليجوز ان يقـال ان غايتـه كانت تتمثل فى ان يجعلنى عالة عليه وعلى اهتمـامه بأن يكفلنى وذلك بأن يستنفد مواردى ، حتى انحدر الى مثل هذه الحال !**

اما وقد الممت بكل هذا ، فقد بادر عقلى الى فرض الصمت على آرائى السابقة فى جريم ، وهى الآراء التى كنت قد ظللت ارددها ـ لصالحه ـ حتى ذاك الحين . ورأيت ان اخلاقه كانت جد مثيرة للشبهات ، على الاقل . اما وده وصداقته ، فقد قطعت بأنهما زائفان . واذ عقدت العزم ـ بناء على ذلك ـ ان لا أراه ثانية ، فقد بادرت الى انباء السيدة ديبيناى بذلك ،

وعززت قرارى بعدة مبررات لاسبيل الى ردها ، وان كنت قد نسيتها الآن !

ولقد عارضت السيدة ديبيناى هذا العزم بشدة ، دون ان تدرى تماما ما ترد به على الحجج التى اقرت رايى . ولم تكن قد شاورته فى الامر بعد ، ولكنها بدلا من ان تفصح عن موقفها شفويا الى ، أرسلت ــ فى اليوم التالى ــ خطابا صيغ ببراعة اشتركا فيها معا، وقد التمست لجريم فيه العذر ــ دون خوض فى تفصيلات اى شى ــ استنادا الى طباعه المنطوية ، واعتبرته جرما ان اتهمه بخيانة صديقه ، وحضتنى على ان اصلح ما بيننا . **ولقد زعزع خطابها عزمى ! ..وفى حديث دار بيننا بعد ذلك ــ وجدتها خلاله احسن استعدادا منها فى المرة الأولى ــ ارتضيت أن انهزم ، وملت الى الاعتقاد بأننى ربما كنت قد اسأت الحكم ، واننى ــ فى هذه الحال ــ قد اخطأت فعلا فى حق صديق ، اشنع خطأ ، مما كان يلزمنى باصلاح ذات البين** . وبالايجاز ، فعلت فى هذه المرة ، ما فعلته عدة مرات من قبل ازاء ديدرو والبارون دولباخ .. واقدمت طواعية ــ من ناحية ــ وبدافع من ضعفى ، من ناحية اخرى ، على كل هذه المساعى ، التى كان على ان افعلها : فذهبت ــ كجورج داندان آخر (١) ــ لزيارة جريم ، كى اعتذر له عن الاهانات التى ارتكبها هو ضدى، اذ كنت منساقا دائما للاعتقاد الخاطىء ، الذى عرضنى طيلة عمرى لألف صغار وضعة امام اصدقائى المزعومين .. الاعتقاد بأنه مامن بغضاء تصل فى قوتها الى درجة يستعصى معها على اللطف وحسن التصرف أن يغلباها .. فى حين ان الأمر على النقيض ، فان كراهية الخبثاء

---

(١) « جورج داندان » احدى شخصيات مسرحية موليير الفكهة « الزوج الخجول » ، وقد كان داندان فلاحا تزوج من امراة من بنات الأسرات العريقة ذات الجاه .

انما تقوى وتشتد بفضل استحالة العثور على ما يبررها ، كما ان شعورهم بذنوبهم لايؤدى الا الى زيادة حقدهم على ضحيتهم !

وعندى ـ بدون خروج عن سياق قصتى ـ دليل جد قوى على هذه النظرية ، يتمثل فى تصرف جريم وترونشان ، اللذين صارا ألد عدوين لى ، عن ميل ، وعن لذة ، وعن نزوة ، دون ان يملكا قط ان يذكرا واقعة واحدة ـ من اى نوع كانت ـ اكون قد آذيت بها ايا منهما . وكان هياجهما ـ كهياج النمر ـ يزداد يوما بعد يوم ، نظرا للسهولة التى كانا يستمرئانه بها !

* * *

• **ولقد** توقعت ان يستحى جريم من تنازلى ، ومن مساعى للصلح ، فيتلقانى بذراعين مفتوحتين ، وبأرق العواطف . ولكنه ـ فى الواقع ـ استقبلنى وكأنه امبراطور رومانى .. فى ترفع لا مثيل له . ولم اكن على استعداد اطلاقا لهذا الاستقبال . واذ ارتبكت لاضطرارى الى ان اؤدى دورا كهذا لا يلائمنى ، اوضحت غرض زيارتى فى بضع كلمات مترددة . وقبل ان يتقبلنى فى جنة رضاه ، راح يلقى ـ فى كثير من التعاظم ـ حديثا طويلا ، كان قد اعده من قبل وضمنه عددا من سجاياه النادرة ، لا سيما فى مضمار الصداقة . واسهب فترة فى ذكر امر أثر فى نفسى كثيرا فى البداية : ذلك هو ان الناس كانت ترى فيه دائما حرصه على الاحتفاظ بأصدقائه . وفيما كان يتكلم رحت اقول لنفسى ان من القسوة ـ من ناحيتى ـ ان اكون المستثنى الوحيد من هذه القاعدة . ولقد اكثر من العودة الى هذا الامر ، فى تكلف بالغ ، حتى انه جعلنى ـ فى النهاية ـ ارى انه اذا لم يكن منساقا فى هذا لغير احاسيس قلبه ، لكان اقل تأثرا بهذا الامر الذى انطلق فى شرحه مسهبا .. وانه كان يستغله كحيلة نافعة يصل بوساطتها الى الغاية التى يقصدها

من آرائه هذه ! .. ولقد كنت ـ حتى ذلك الحين ـ على مثل هذه الحال : **فلقد اعتدت دائما ان احتفظ بأصدقائى ، وما فقدت ـ منذ طفولتى ـ واحداً منهم ، اللهم الا بالموت ، ومع ذلك فاننى لم اجعل من هـذا الاحتفاظ شاغلا اطيل التفكير فيه .. ولا جعلت منه مبدأ أضعه لنفسى .**

واذا كانت هذه ميزة متوفرة لدى كل منا فلماذا يزهو بها هو وحده ، اللهم الا اذا كان قد فكر فعلا فى أن يجردنى منها ؟ .. ولقد عـمد ـ بعد ذلك ـ الى الحط من قدرى ، بأن راح يبرهن على ان الأصدقاء المشتركين بيننا يفضلونه على أنا !.. وكنت أكثر منه علما بهذا التفضيل، ولكن المهم فى الأمر ، هو : بأى ثمن ظفر به ؟ .. أفكان ذلك لأنه أوتى مواهب أو براعـة تفوق مواهبى أو براعتى .. أو لأنه كان يرقى بنفسه، أو لأنه كان يسعى الى الحط من قدرى؟ .. **وأخيرا ، وبعد ان أرضى نفسه بأن أقام بينى وبينه من الفوارق مايكفى لان يجعل للعفو الذى كان يوشك أن يمنحه قيمـة ، منحنى قبلة صلح ، فى عنـاق واهن ، كذلك الذى يتكرم به الملك على من ينصبهم فرسانا .. وهويت من السحب .. ووجدتنى مشدوها، لا أدرى ما ينبغى أن أقول ، بل اننى لم اعثر على كلمـة واحدة .. لقـد كانت المقابلة كلها تبدو كتأنيب يوجهه استاذ الى تلميذ ، وهو يعفيه من عقوبة الضرب!.** وما فكرت فى ذلك قط، الا شعرت بمدى خداع الحكم الذى يقـوم على المظاهر ـ والذى يضفى عليـه السوقة أهمية وقيمة ـ وبكثرة ما تكون الجرأة والكبرياء من حظ المذنب .. والحياء والارتباك من حظ البرىء !

واصطلحنا !.. كان هـذا عزاء ـ على الاقل ـ لقلبى الذى كان كل خلاف يدفع به الى اللواعج القاتلة ! .. ومن الصواب أن يحدس المرء ان مثل هذا الصلح لم يبدل من أخلاق جريم وتصرفاته .. وكل ما أدى اليه، هو تجريدى من حق الشكوى من هذه التصرفات !.. ومن ثم ، فقـد عولت على ان اتحمل

كل شيء ، دون ان أفضفض بشيء ما !

★★★

• **هذه** الهموم الكثيرة ، التى تعاقبت ضرباتها ، واحدة بعد اخرى ، طوحت بى الى حال من الضنى لم تدع فى كيانى جهدا يمكننى من أن أستعيد السيطرة على نفسى .. **واذ لم أكن قد تلقيت أى رد من ((سان ـ لامبير)) ، وقد أصبحت موضع اهمال لدى السيدة دوديتو ، ولم أعد أجرؤ على أن أبوح بما فى قلبى لانسان ما ، فقد بدأ الخوف يراودنى من ان أكون قد ضيعت حياتى ضحية للأوهام ، اذ جعلت من الصداقة معبودا لقلبى !..** وكان الدليل على هذا قائما ، اذ لم يكن قد بقى لى ـ من كل اصدقائى ـ سوى رجلين ، ظلا محتفظين بتقديرى ، وكان قلبى يركن اليهما ويأمنهما : ((ديكلو)) ـ الذى حرمت من رؤيته منذ اعتكافى فى (ليرميتاج) ـ و((سان ـ لامبير)). ووقر فى نفسى اننى لن أستطيع أن أصلح من أخطائى نحو هذا الاخير ، الا بأن افتح له مغاليق قلبى دون تحفظ .. فعزمت على ان اعترف له اعترافا كاملا ، بكل ما لا يحرج عشيقته . ولم يخطر لى ببال ، ان هذا الاختيار ، كان أحبولة اخرى نصبها لى هواى ، ليقربنى من السيدة .. ولكن من المحقق اننى كنت على استعداد لأن ألقى بنفسى بين ذراعى عشيقها دون ما تحفظ ، وان انصاع لارشاده انصياعا تاما ، وأن امضى فى صراحتى الى ابعد مدى استطيع الوصول اليه !

وكنت على استعداد لأن أكتب اليه رسالة ثانية ، وأنا موقن من انه سيجيب عنها ، عندما علمت بالسبب المحزن الذى دعاه الى الصمت ازاء الرسالة الأولى .. ذلك انه لم يتحمل ارهاق الحملة . وقد اخبرتنى السيدة ديبيناى بأنه أصيب بنوبة فالج ، كما ان السيدة دوديتو ـ التى انتهى بها الغم الى ان مرضت هى الأخرى ، والتى لم تكن فى حال تمكنها من الكتابة

لوحـــة
رائعـــــة
لمـــــدام
دوديتـــو

الى فى الحال ـ أرسلت الى كلمة ، بعـد يومين او ثلاثة ، من باريس ـ حيث كانت فى ذلك الحـين ـ وقالت ان « سان ـ لامبير » رغب فى ان ينقل الى (اكس لاشـابيل) ، ليستشفى بمياهها . ولن أقول ان هذا النبأ المحزن أسقمنى كما أسقمها ، ولكنى أرتاب فى أن الأسى الذى بعثـه فى نفسى كان أقل ايلاما من لوعتها ودموعها ! .. فان الاغتمام الذى نشأ عن معرفة انه كان فى حال كهذه ، تضـاعف من جراء الخوف من ان يـكون

القلق النفسى (١) قد ساهم فى ذلك ، مما كان له فى نفسى أثر فاق كل ما جرى لى شخصيا .وتولانى شعور قاس بأننى - فى تقديرى الخاص لنفسى - كنت افتقد القوة المنشودة لكى احتمل مثل هذا الأسى !

على ان هذا الصديق الكريم ، لم يدعنى طويلا ، فى مثل هذا الهم - لحسن الحظ - اذ انه لم ينسنى ، بالرغم من مرضه . وما لبثت ان علمت منه شخصيا ، اننى كنت قد اسأت الحكم على مشاعره وحاله !

ولكن الوقت قد حان لكى انتقل الى الانقلاب الكبير - والمفاجىء - الذى طرأ على مصيرى . .الى النكبةالتى شطرت حياتى شطرين متباينين ، والتى ادت - من جراء سبب جد تافه - الى عواقب فظيعة !

* * *

. **ذلك** ان السيدة ديبيناى ارسلت - ذات يوم - تستدعينى ، على غير توقع البتة . فلما ولجت مخدعها ، لمحت فى عينيها ، وفى أساريرها كلها ، مايوحى بأنها كانت مضطربة ، الأمر الذى زاد من دهشتى ، اذ انه لم يكن مألوفا ، فما كان فى الدنيا من يحذق السيطرة على اساريره وحركاته مثلها !..

وقالت لى : « اننى راحلة الى جنيف ياصديقى ، فان صدرى فى حالة سيئة ، وصحتى فى انهيار يجعلنى اهمل كل شىء ، اذ لا بد لى من الذهاب كى ازور ترونشان واستشيره » ..

ولقد ادى هذا القرار - الذى اتخذ بغتة ، وفى بداية الفصل السىء (٢) - الى مضاعفة دهشتى .. فهى لم تشر بكلمة واحدة الى هذا الأمر ، عندما فارقتها قبل ذلك بست وثلاثين

---

(١) القلق النفسى الذى نشا عن غضب «سان - لامبير» من علاقة « روسو » بعشيقته .

(٢) يقصد فصل الشتاء

ساعة ! .. وسألتها عمن تعتزم اصطحابه ، فقالت انها كانت راغبة فى ان تصطحب ابنها والسيد «دى لينان » ، ثم أضافت فى غير اكتراث : « وأنت يا دبى .. الا تأتى انت الآخر ؟ » .. ولما كنت موقناً من انها لم تكن جادة فى حديثها - اذ كانت تعلم اننى فى مثل تلك الاونة من السنة ، التى كنا مقبلين عليها ، أكون فى حال لا تكاد تسمح لى بمبارحة مخدعى - فقد رحت أتفكه ساخرا من رفقة معلول لمعلول آخر ! .. وما كانت هى نفسها تعنى ما عرضت ، ومن ثم فان الأمر انتهى عند هذا الحد . ولم نعد نتحدث الا عن الاستعداد للرحلة ، وهو الأمر الذى انهمكت فيه بكل همة . وعقدت العزم على ان تسافر بعد خمسة عشر يوما

ولم أكن بحاجة الى كثير من بعد النظر ، لكى ادرك ان ثمة دافعا خفيا على هذه الرحلة ، كتم عنى . وهذا السر - الذى لم يكن سرا على أحد سواى فى البيت كله - لم يلبث ان تكشف فى اليوم ذاته ، بوساطة ((تيريز)) . فقد انباها به كبير الخدم ، اذ سمعه من وصيفة السيدة ! .. ومع أننى بعيد عن اى التزام - نحو السيدة ديبيناى - يضطرنى الى كتمان هذا السر ، لأننى لم أعرفه منها ، إلا انه وثيق الارتباط بأولئك الذين نمى الى عن طريقهم . ومن ثم فليس فى وسعى أن أبوح به . على ان هذه الاسرار - التى لم تخرج ، ولن تخرج ، من فمى ، أو على قلمى - لم تلبث أن غدت معروفة لدى كثير من الناس ، فلم يكن فى الوسع ان تظل مجهولة لدى أحد من المحيطين بالسيدة ديبيناى (١)

---

(١) كان الدافع السرى للرحلة - كما غدا معروفا - هو ان السيدة ديبيناى حملت ، نتيجة علاقتها بالسيد جريم . ولقد كان من العجيب حقا ، ان تصحب معها - فى رحلة كهذه - ابنها والمربى الذى كان يعنى به . بل الأنكى من هذا ،

←

ولقد كان خليقا بى ـ عندما ألممت بحقيقة الدافع على هذه الرحلة ـ أن أتبين ان ثمة ايعازا خفيا من عدو لى حاول ان يجعل منى مرافقا للسيدة ديبيناى . ولكنها لم تلح على البتة كى ارافقها ، ومن ثم فاننى ظللت اعتبر المحاولة امرا غير جدى .. **ولم أفعل أكثر من أن ضحكت من الشكل الذى كنت أوشك أن أظهر فيه ، لو اننى كنت من الغباء بحيث اضطلعت بالمهمة . وبجانب هذا ، فانها كسبت برفضى كثيرا ، اذ مكنها هذا من ان تغرى زوجها بمصاحبتها !**

وبعد أيام قلائل ، تسلمت الرسالة التالية من ديدرو . وكانت هذه الرسالة مطواةطيتين ، بحيث يستطيع أى امرىء أن يقرأ محتوياتها . وكان العنوان يحمل اسمى مردفا بهذه العبارة : « عن طريق السيدة ديبيناى » ، وعهد بها الى السيد دى لينان ، استاذ الابن ومستودع الأم !

رسالة من ديدرو (الملف ١ ـ رقم ٥٢)

« **لقد** خلقت لكى احبك ولكى أؤلمك . لقد علمت ان السيدة ديبيناى راحلة الى جنيف ، ولم أسمع بأنك مرافق اياها . فاذا كنت راضيا عن السيدة ديبيناى ، يا صديقى ، فمن الواجب ان ترحل معها .. اما اذا كنت مستاء منها ، فمن الواجب أن تكون أسرع مبادرة الى الرحيل . أفأنت ترزح ـ

ان زوجها نفسه رافقها حتى جنيف !.. وكان الأعجب انها اختارت (جنيف) بالذات لتضع حملها الآثم . ذلك لانها ماكانت لتجد التستر المنشود هناك ، اذ كان مجرد وجودها يجتذب الانظار اليها .. على أن هذه المتناقضات جميعا ، كانت فى حد ذاتها أدلة على دهاء هذه المرأة !

بقى دور «روسو» فى هذه الواقعة . فلقد كانت الدعوة التى وجهت اليه ـ دون اكتراث ـ حيلة اخرى ، قصد بها ارضاء غرور السيدة ديبيناى ، بظهور فيلسوف مثله فى ركابها .. كما ان جريم وعشيقته استغلاها فى اظهاره بمظهر الجاحد بفضل السيدة التى منحته مسكنا وأولته ودها !

اكثر مما ينبغى ـ بأثقال التزامات ابهظتك بها ؟ . . اذن ، فهاك فرصة لكى تؤدى بعضا منها ، ولكى تتخفف من أعبائك . فهل ستجد فرصة أخرى فى حياتك لاظهار عرفانك بجمائلها ؟ . . انها ذاهبة الى بلد ستكون فيها كمن هبطت من أطواء السحاب . وانها لمريضة ، وستكون بحاجة الى تسرية وترويح . . أتقول الشتاء ؟ ! . . الا انظر يا صديقى ! . . ان حجة صحتك قد تكون أقوى مما يخطر ببالى ، ولـكن ، هل تراك اليوم أسوأ حالا مما كنت منذ شهور . . ومما ستكون فى مطلع الربيع ؟ . . هل ستكون الرحلة مريحة لك ـ بعد ثلاثة اشهر ـ اكثر مما هى اليوم ؟ . . اننى اصارحك ـ فيما يتعلق بى ـ بأننى اذا لم احتمل العربة ، لاعتمدت على عصاى ، وتبعتها !

« ثم ، ألا تخشى ان يسىء الناس تأويل مسلكك ؟ . . لسوف تتهم بالجحود ، او بأن لديك حافزا خفيا . وانى لأدرك تماما انك ، ستجد قلبك يشهد دائما لضميرك ، مهما يكن ماتفعل . . ولكن ، هل تكفيك هذه الشهادة فى حد ذاتها ، وهل من المباح ان تهمل شهادة الغير ، الى حد ما ؟

« وفيما عدا ذلك ، يا صديقى ، اكتب هـذا الخطاب وفاء لواجب التزم به نحوك ونحو نفسى . فاذا لم يرق لك ، فطوح به الى النار ، ولا تفكر فيه بعد ذلك ، وكأننى لم اكتبه قط .

« وانى لأحييك ، واحبك ، واقبلك »

وتولتنى انتفاضة الغضب ، واستبد بى الذهول ، اذ قرأت هذه الرسالة ، التى وجدت عناء فى ان اتمها . ولكن ذلك لم يلهنى عن ان الاحظ اللهجة التى اصطنعها ديدرو ليبدو مسرفا فى اللطف ، وفى الترفق ، وفى الاخلاص ، عما اعتاد فى رسائله الأخرى ، دون ان يضن على بلقب (الصـــديق) . وتبينت الطريق غير المباشرة التى جاءتنى هذه الرسالة خلالها . . فقد كان العنوان ، والأسلوب ، والطريقة التى وصلت بها ، تنم عن مداورة سيئة الغرض . ذلك لأننا اعتدنا ان نتكاتب عادة ، عن

طريق البريد ، او عن طريق حامل الرسائل فى (مونمورنسى) . وقد كانت هذه هى المرة الأولى ، والوحيدة ، التى نهج فيها هذا النهج !

* * *

• **وعندما** سمحت اولى نوبات الغضب للسكرامة بالكتابة ، بادرت الى تحرير الجواب التالى ، الذى حملته لفورى ، من (ليرميتاج) ــ حيث كنت اذ ذاك ــ الى (لاشفريت) ، لأطلع عليه السيدة ديبيناى ، اذ رغبت ــ فى غضبى الأعمى ــ ان اقرأه عليها بنفسى ، كما أطلعها على رسالة ديدرو :

« **يا صديقى** العزيز ، انك لا تستطيع ان تعرف مدى التزاماتى نحو السيدة ديبيناى ، ولا المدى الذى تذهب اليه هذه الالتزامات فى ربطى اليها ، ولا ما اذا كانت السيدة بحاجة حقا الى شخصى ــ فى رحلتها ــ ولا ما اذا كانت راغبة فى ان ارافقها ، ولا ما اذا كان هذا فى امكانى ، ولا الأسباب التى قد تكون لدى ، لأمتنع عن مرافقتها .. ولست آبى ان اناقش هذه النقاط معك . والى ان يتم ذلك ، احب ان تقر معى ان املاءك على ــ بهذا الاعتداد ــ ما ينبغى على عمله ، دون ان تكون فى وضع يمكنك من الجزم ، لهو ــ يا فيلسوفى العزيز ــ عين اللغو !

« واسوأ مافى الأمر ، اننى أرى ان هذا ليس رأيك ، ولا هو صادر عنك . هذا ، بغض النظر عن اننى غير مستعد لأن أدع نفسى منساقا لطرف ثالث أو رابع تحت اسمك .. وانى لأجد فى هذه التصرفات غير المباشرة ، مداورة لا تتمشى مع صراحتك ، ويحسن بك ان تتجنبها فى المستقبل ، لصالح كل منا !

« اراك تخشى ان يساء تأويل مسلكى ، ولكنى اتحدى قلبا كقلبك ان يجرؤ على اساءة الظن بى . اما الآخرون ، فلعلهم يتحدثون عنى بخير ، لو اننى شابهتهم . فلعل الله يصوننى من ان اكسب رضاهم ! .. ودع اللئام يتجسسون على ، ويؤلون

مبلكى كما يحلو لهم . فان « روسو » ، ليس بالذى يخشاهم، كما ان « ديدرو » ليس بالذى ينصت اليهم !

« انك تريدنى على أن أطوح برسالتك الى النار ، اذا لم ترق لى ، وان لا أفكر فيها بعد الآن . أفتظن ان من السهل نسيان ما يفد منك ؟ . . انك تسترخص دموعى ، يا صديقى العزيز ، بالآلام التى تسببها لى ، كما تسترخص حياتى وصحتى ، بالهموم التى تثيرها . فاذا استطعت ان تصحح هذا ، فستظل صداقتك دائما من اعذب ما انعم به ، ولسوف يقل ما اعانيه من رسالتك ! »

واذ ولجت مخدع السيدة ديبيناى ، وجدت جريم معها ، مما اطربنى. فقرات عليهما ـ بصوت عال ، واضح ـ الرسالتين، فى هدوء نفس ما كنت لأؤمن بأننى قادر عليه . حتى اذا فرغت ، اضفت بضع ملاحظات لم تنم عما وراء ذلك الهدوء . **ورأيت ان هذه الجرأة غير المتوقعة ، من رجل كان شديد الخور والتردد عادة ، قد ادهشتهما واذهلتهما معا . فلم يجيبا بكلمة واحدة . ورأيت ـ فوق ذلك ـ ان الرجل المتعجرف قد غض بصره ، ولم يقو على ان يصمد امام شرر نظراتى . ولكنه فى اللحظة ذاتها ، عاهد نفسه ـ فى اعماق قلبه ـ على القضاء على . وانى لموقن من انه والسيدة ديبيناى قد اجمعا على ذلك قبل ان يفترقا !**

وحدث فى حوالى تلك الآونة ، ان تلقيت ـ عن طريق السيدة دوديتو ـ رسالة من « سان ـ لامبير » (الملف أ ـ رقم ٥٧) . وكان قد ارسلها من (ولفينبوتيل) ، قبيل مصابه بأيام قلائل، ردا على رسالتى ، ولكنها تأخرت طويلا فى الطريق . وقد اتاح لى هذا الجواب شيئا من العزاء ، كنت فى اشد الحاجة اليه فى تلك الآونة ، لما زخر به من دلائل التقدير والصداقة ، مما بث فى نفسى القوة والجراة لكى اكون اهلا لذلك . ولقد رحت ـ منذ تلك اللحظة ـ اؤدى واجبى . ولكن من المحقق اننى

كنت موشكا على ان اضل ، دون رجعة ، لو ان «سان-لامبير» ظهر بمظهر اقل حكمة وكرما واخلاصا !

* * *

• وأصبح الجـو رديئا ، وشرع الناس فى مغادرة الريف . وانبأتنى السيدة دوديتو باليوم الذى اعتزمت فيه ان تأتى لتودع وادينا ، وضربت لى موعدا للقاء فى (اوبون) . وشاءت المصادفة ان يكون ذلك اليوم هو اليوم الذى حدد لرحيـل السيدة ديبيناى عن (لاشيفريت) الى (باريس) ، لـكى تستكمل استعدادها النهائى لرحلتهـا . ولقد سافرت فى الصباح ـ لحسن الحظ ـ فانفسح امامى الوقت بعد رحيلها ، كى أذهب فأتناول الغداء مع اخت زوجها . وكنت احمل رسالة « سان ـ لامبير » فى جيبى ، فرحت اقرأها مرارا اثناء سيرى ، واذا بها بمثابة درع وقائى من ضعفى . وعاهـدت نفسى ـ وضنت عهدى هذا ـ على ان لا ارى فى السيدة دوديتو سوى صديقة لى ، وعشيقة صديق لى !

وقضيت معها أربع ساعات أو خمسا ، فى خلوة ناعمـة ، وادعة ، مستحبة للغاية .. حتى بالنسبة لنوبات الحمى اللاهبة التى كنت اكتوى بها فى قربها حتى ذاك الحين ! .. ولما كانت تعلم عن يقين ان قلبى لم يتحول ، فقـد ادركت الجهود التى رحت ابذلها لأسيطر على نفسى ، فازدادت تقديرا لى ، وسرنى ان رأيت ان صداقتها لى لم تخب او تفتر . ولقد انبأتنى بقرب عودة « سان ـ لامبير » ، الذى لم يعـد فى صحة تمـكنه من احتمال عناء الحرب ، رغم انه كان قد شفى تقريبا من مرضه ، ومن ثم فقد رأى ان يترك الخدمة العسكرية ، لكى يعيش معها فى سلام . ورحنا نرسم خطـة بديعة ، لصحبة وثيقـة تضم ثلاثتنا . وقد كان لنا ان نأمل ان يؤدى تنفيذ هذه الخطة الى نتائج باقية ، اذ رأينا انها كانت تقوم على اساس من جميـع

المشاعر التى تربط بين القلوب المستقيمة ، الصالحة ، الحساسة .. وكنا نجمع فى نفوسنا الثلاث من المواهب والمعرفة ، مالا يدع لنا حاجة الى اى غريب عنا .. فواحسرتاه ! .. لم اكن ـ وانا استسلم للرجاء فى حياة بمثل هذه العذوبة ـ لأفكر قط فيما كان يخبئه لى المستقبل !

وما لبثنا ان تحدثنا فى موقفى الراهن ازاء السيدة ديبيناى ، فأطلعتها على رسالة ديدرو ، وعلى ردى ، وفصلت لها كل ما جرى فى هذا الشأن ، وأفضيت اليها بعزمى على أن أفارق (ليرميتاج) ، فعارضته بشدة ، وبحجج ذات اثر غلاب على قلبى. واوضحت لى كم انها كانت تتمنى لو اننى قمت بالرحلة الى (جنيف) ، فقد تنبأت بأنها لن تلبث ان تقحم فى هذا الرفض الذى صدر منى ، وان رسالة « ديدرو » تكاد تعلن هذا مقدما . بيد انها لم تتشبث بهذه المسألة ، اذ كانت تعلم قوة الدواعى والاسباب التى حملتنى على الرفض ، كما كنت اعلمها تماما . ولكنها استحلفتنى أن أتفادى كل ضجة ، مهما يكن الثمن الذى يكبدنيه ذلك ، وان الطف من آثار رفضى بحجج مقبولة تبدد اى شك ظالم بأن لها يدا فى الأمر . وقلت لها ان المهمة التى تفرضها على ، لم تكن بالبسيطة الهينة ، غير اننى قد آليت على نفسى ان اكفر عن اخطائى ، وان اقدم سمعتها على سمعتى ، فى كل ما يسمح لى الشرف باحتماله . ولن يلبث ان يتجلى ما اذا كنت قد وفيت بهذا التعهد

وبوسعى ان أقسم بأن هواى التعس وان لم يفقد شيئا من عنفوانه ، الا اننى لم أشغف يوما بصوفى الحبيبة كما كنت مشغوفا فى ذلك اليوم . بيد ان رسالة « سان ـ لامبير » ، وشعورى بالواجب ، ونفورى من الخيانة ، تركت اثرا طاغيا على نفسى طيلة هذا اللقاء ، حتى ان شهواتى فارقتنى وخلفتنى معها فى سلام ، بل حتى اننى لم اجد ما يغرينى على ان اقبل يدها ! .. فلما حان الفراق ، قبلتنى بمرآى من خدامها .

وكانت هذه القبلة ـ التى خالفت ما كنت استرقه منها احيانا ، تحت الاشجار ـ برهانا أكد لى اننى قد غدوت مسيطرا على نفسى . وأكاد أوقن بأنه لو اتيح لقلبى الوقت لكى يعزز نفسه فى هدوء لكانت ثلاثة اشهر اكثر من الكفاية لشفائه تماما !

* * *

• **وهنا** انتهت علاقاتى الشخصيـــة بالسيدة دوديتو .. العلاقات التى يستطيع اى امرىء انيحكم عليها من المظاهر ، وفقا لطبيعة فؤاده .. **وان كان من المحتمل ان الوجد الذى اذكته فى قلبى هذه المرأة الرقيقة ، هو أقوى وجد شعر به أى رجل على الاطلاق ، وسيبقى دائما ممجدا مكرما لدى السماء ولدينا ، بفضل التضحيات الفذة ، والاليمة ، التى قدمناها ـ كلانا ـ فى سبيل الواجب ، والشرف ، والحب، والصداقة !..** لقد كان كل منا يكبر الآخر اكبارا اسمى من ان يسمح لنا بأن نخزى نفسينا او نستذلهما ! .. وكان لابد لنا من ان نغـدو غير جديرين بأى تقدير او احترام البتة، اذا شئنا ان ننزل عن اى من هذه القيم العليا . . بل ان احتدام مشاعرنا ـ الذىكان كفيلا بأن يجعلنا آثمين ـ كان هو الذى حـال بيننا وبين ان نغدو كذلك !

* * *

• **وهكذا** ودعت هاتين المراتين معا ، فى يوم واحد ، بعـد صداقة طويلة لاحداهما ، وحب عميق للاخرى .. ودعتهما ، وقد قدر لى ان لا ارى واحدة منهما بعد ذلك قط ، بقية حياتى .. وان لا ارى الثانيـة الا مرتين فحسب ، وفى مناسبـتين سأوردهما فيما بعد

ووجدتنى بعد رحيلهما فى حيرة بالغة ازاء الوفاء بمثل هذه الالتزامات العديدة ، الملحة ، المتناقضـة ، التى ترتبت على حماقتى وعدم حكمتى . ولو اننى كنت فى وضعى العـادى ،

بعد اقتراح تلك الرحلة الى (جنيف) ورفضى اياها ، لما كان على سوى ان امكث قريرا مطمئنا ، ولما كان ثمة ما يقال،بعد الذى قيل بهذا الصدد . **ولكننى بغبائى جعلت منه مسألة لم يكن من الميسور ان تبقى على وضعها، ولم أكن املك ان أتفادى اى اضطرار الى تفسير مسلكى بشأنها، الا بمبارحة (ليرميتاج)** .. وهو الأمر الذى وعدت السيدة دوديتو بأن لا افعله .. ولو لفترة من الزمن ، على الاقل . فضلا عن انها كانت قد استحلفتنى ان أبرر رفضى لدى اصدقائى المزعومين ، بحيث لا تقحم هى فى هذا الرفض . ومع ذلك فاننى لم اكن املك ان أعلن السبب الحقيقى دون مساس بالسيدة ديبيناى ، التى كنت مدينا لها ببعض العرفان — دون ادنى شك — بعد كل الذى فعلته من اجلى .

واذ تدبرت كل هذا مليا ، وجدتنى اواجه اختيارا عسيرا، ولكنه لازم ، لا مفر منه .. **ذلك هو ان اغض من قدر السيدة ديبيناى ، او قدر السيدة دوديتو ، او قدر نفسى . واخترت الوضع الأخير .. اخترته بشمم ، وعن طيب خاطر ، ودون تذمر ، بل وفى كرم كفيل بأن يمحو الذنوب التى انحدرت بى الى هذا الدرك . ولقد ادت هذه التضحية — التى يحتمل ان يكون اعدائى قد توقعوها ، والتى عرفوا كيف يستغلونها — الى القضاء على سمعتى ، وجردتنى — بفضل جهودهم — من تقدير الجمهور اياى ، ولكنها ردت الى تقديرى نفسى ، وسرت عنى فى محنى وضائقاتى !** وليست هذه هى المرة الأخيرة ، التى اقدم فيها على تضحيات مماثلة — كما سيتجلى فيما بعد — ولا هى آخر مرة يستغلون فيها التضحية للنيل منى !

وكان « جريم » هو الوحيد الذى بدا انه لم يشترك فى هذه المسألة، وقد رأيت ان اتوجه اليه . فكتبت اليه رسالة طويلة، اوضحت فيها سخف الرغبة فى النظر الى اشتراكى فى رحلة (جنيف) كواجب مفروض على ، وعدم جدواها ، وكيف اننى

كنت خليقا بأن أكون مصدر متاعب للسيدة ديبيناى خلالها ، والمضايقات التى كان من المحتمل ان تترتب عليها . ولم استطع ان أقاوم الاغراء الذى راودنى نحو اطلاعه ـ فى هذه الرسالة ـ على اننى كنت على علم بسبب الرحلة ، وذكرت انه كان من بواعث عجبى ان يزعم احد ان الواجب كان يدعونى الى القيام بهذه الرحلة، فى الوقت الذى اعفى هو فيه منها، بل ولم يذكر اسمه بصددها .

هذا الخطاب الذى عجزت فيه عن ان اذكر حججى بجلاء ، ومن ثم فقد اضطررت الى المداورة والمراوغة .. هذا الخطاب كان كفيلا بأن يظهرنى للرأى العام بمظهر الموغل فى الذنوب ، بيد انه كان نموذجا للرزانة والحكمة لأولئك الذين كانوا على شاكلة « جريم » ملمين بالحقائق التى لم اذكرها ، والتى كانت تبرر مسلكى أكمل تبرير . **بل اننى لم أحجم عن ان اورد زعما كان فى غير صالحى اكثر مما كان فى صالحى ، وذلك بأن نسبت رأى « ديدرو » الى اصدقائى الآخرين ، لأوحى بأن السيدة دوديتو كانت تعتنق نفس الرأى ـ وهو الواقع فعلا ـ وان تحاشيت أن أذكر انها قد عدلت عن رأيها هذا امام حججى . وما كنت لأستطيع ان ادفع عنها شبهة التواطؤ معى ، بأفضل من ان ابدو ـ فى تلك المناسبة ـ على استياء منها .**

واختتم هذا الخطاب بعرض للثقـــة كان كفيلا بأن يحرك عواطف اى انسان آخر .. فبينما ناشـدت جريم ان يتأمل حججى جيدا ، وان ينبئنى ـ بعد ذلك ـ برأيه ، اوحيت اليه اننى سآخـذ بهذا الرأى ، مهما يكن . وقـد كان هذا عين ما انتويت ـ فى الواقع ـ حتى لو انه اشار بوجوب سفرى . ذلك لأنه لما كان السيد ديبيناى قد اضطلع بعبء مرافقة زوجته ، فان مرافقتى اياها كانت خليقة بأن تتخذ مظهرا مخالفا لما كانت ستتخذه من قبل .. اذ كنت اذ ذاك قد سؤلت ان اقوم بهـذا الواجب ، ولم يكن للسيد ديبينـاي اي ذكر ، الا بعد

ان رفضت !

* * *

• **وتأخر** رد « جريم » بعض الوقت ، فلما جاء ، اذا به رد غريب ، انقله هنا (الملف أ — رقم ٥٩) :

« **لقد** ارجىء رحيل السيدة ديبيناى ، فان ابنها مريض ، وقد اضطرت الى الانتظار الى ان يعافى . سأفكر فى خطابك ، فامكث هادئا فى (ليرميتاج) . وسأطلعك على رأيى فى حينه . ولما كان من المحقق انها لن ترحل قبل بضعة ايام ، فليس ثمة داع للعجلة . وفى هذه الاثناء ، فى وسعك ان تعرض عليها مرافقتك اياها ، اذا رأيت ذلك مناسبا ، وان كان يلوح لى ان هذا لن يغير من الامر . ذلك لاننى لا ارى اى شك — وانا لا اقل عنك علما بوضعك — فى انها ستقابل عرضك بما ينبغى . ويبدو لى ان كل ما يمكن كسبه بذلك ، هو انك ستستطيع ان تقول لأولئك الذين يهيبون بك ان ترحل ، انك اذا لم ترحل ، فلن يكون ذلك راجعا الى تقصير منك فى عرض خدماتك .

« **وفيما عدا هذا ، لا استطيع ان افهم السر فى انك ترى ان من الضرورة اللازمة ان يكون الفيلسوف هو البوق الذى ينقل اليك صوت الناس اجمعين ، ولا السر فى انك تتصور ان كل اصدقائك يرون ضرورة سفرك ، لمجرد انه نصحك بالسفر ! .. ولو انك كتبت الى السيدة ديبيناى ، فان ردها قد ينفعك فى الرد على هؤلاء الاصدقاء ، ما دمت تقيم كل هذا الوزن الاجابة عليهم !**

« وداعا .. تحياتى للسيدة لوفاسير ولكريمنيل » (١)

وبهت دهشة اذ قرأت هذا الخطاب ، ورحت ابحث فى قلق عما قد يكون وراء معناه الظاهرى ، ولكن بحثى ذهب

---

(١) اطلق « جريم » هذا اللقب على « تيريز » . ولمعرفة السبب يحسن الرجوع الى هامش صفحة ١٢٤ (٥٧٨) من الجزء الثالث.

سدى. فيا للعجب ! .. أبدلا من ان يرد على رسالتى ببساطة، يستمهلنى كى يفكر فيها ، وكأنما الوقت الذى استغرقه لم يكن كافيا ؟!.. بل انه ليطلعنى على الموقف المعلق الذى يرغب فى ان يستبقينى فيه ، وكأنه يفكر فى مشكلة عويصة مستعصية الحل ، او كأنه كان يرى ان يحرمنى كل وسيلة للوصول الى معرفة احساسه ، الى ان تحين اللحظة التى يراها للكشف عن هذا الاحساس . فما الذى يعنيه هذا الاحتياط ، وهذا الأرجاء ، وهذا التكتم ، اذن ؟.. افعلى هذا المنوال يرد المرء على الثقة ؟ .. أفيبدو هذا تصرفا مستقيما ، شريفا ؟ .. عبثا بحثت عن تأويل موات يبرر هذا التصرف ، فاننى لم اجد !

ومهما تكن نيته ، فان مركزه كان يجعل تحقيقها سهلا عليه، اذا كانت موجهة ضدى .. فى حين انه كان من المستحيل على ان أضع اية عقبة فى طريقه . فلقد كان ذا حظوة فى دار أمير كبير ، وكان كثير الأصدقاء فى المجتمع ، وكان بوسعه ــ كنجم لامع ، مسموع الكلمة فى الاوساط التى كنا معروفين لديها معا ــ ان ينفذ غاياته وفق هواه ، بدهائه المألوف . فى حين اننى ــ وحيدا فى (ليرميتاج) ، بعيدا عن الجميع، بدون ناصح، وبلا اتصال بالعالم الخارجى ــ لم أكن أملك أن أفعل شيئا ، اللهم الا أن أنتظر ، وأمكث صامتا . وكان كل ما فعلته ، هو ان كتبت الى السيدة ديبيناى ــ بصدد مرض ابنها ــ خطابا مهذبا بقدر ما استطعت ، دون ان انساق فيه الى شرك عرض استعدادى لمرافقتها فى رحلتها .

وبعد انتظار طويل ، فى القلق الشديد الوطأة الذى القانى فيه هذا الرجل الفظيع ، سمعت ــ بعد ثمانية أيام او عشرة ــ ان السيدة ديبيناى قد سافرت . **وتلقيت منه خطابا ثانيا ، لم يشتمل على اكثر من سبعة أسطر أو ثمانية ، لم أتم قراءتها حتى آخرها ... اذ انها أعلنت قطيعة بيننا ، ولكن فى عبارات**

لايمليها سوى أشد ألوان الحقد استعارا .. عبارات بدت سخيفة حمقاء ، لفرط تلهفه على ان يجعلها جارحة . فلقد حرم على ان اظهر فى محضره ، وكأنه يحرم على دخول اقطاعياته . ولم يكن ينقص خطابه ، لكى يبدو مضحكا، سوى ان يقرأ فى هدوء وبأعصاب باردة . وبدون أن انقل صورة منه (١)، بل وبدون ان أقرأه حتى نهايته، رددته اليه فى الحال، مع التعقيب التالى :

« **انني** آبى عادة ان انساق لشكوكى الصائبة. ولهذا تأخرت كثيرا فى ان اعرفك على حقيقتك

« هاك اذن الخطاب الذى استبحت الوقت للتفكير فيه ، فاننى ارده اليك، لانه ليس لى. وفى وسعك أن تعرض خطابى على الملأ كله ، وان تحقد على علانية وجهارا ، فهذا بهتان فى غير صالحك ! »

وكان السماح له بعرض خطابى السابق ، تعقيبا على فقرة وردت فى رسالته ، ويمكن منها الحكم على المكر العميق الذى لجأ اليه فى هذه القضية بأسرها

فلقد ذكرت ان خطابى كان كفيلا بأن يلقى على بعض التثريب، فى انظار أولئك الذين لم يكونوا مطلعين على حقائق الأمور . وقد تبين « جريم » هذا باغتباط ، ولكن كيف كان بوسعه ان

---

(١) ورد هذا الخطاب فى مذكرات السيدة ديبيناى ، ولم يكن مؤلفا من سبعة أسطر أو ثمانية ، بل انه استغرق صفحة ونصف صفحة من الكتاب . ويلاحظ ان ذكر القطيعة لم يرد الا فى آخره ، فى حين ان « روسو » يذكر انه لم يقرأه حتى نهايته . على انه ذكر للسيدة دوديتو ـ فى رسالة بتاريخ ٨ نوفمبر سنة ١٨٥٧ ـ انه تلقى من « جريم » خطابا اثار اشمئزازه ، حتى انه رده اليه « خشية قراءته مرة ثانية » .. وهناك احد احتمالين ، اما ان يكون « روسو » قد بالغ فى وصفه للخطاب ، واما ان ما نشر فى مذكرات السيدة ديبيناى كان خطابا اعد لتبرير مسلك « جريم » ، وليس الخطاب الأصلى .

يستغله دون ان يكشف موقفه ؟.. ذلك لانه كان معرضا ـ اذا ما عرض خطابى على احد ـ لأن يتهم باساءة استغلال ثقة صديقه .

ولكى يخرج من هذا الحرج، خطر له ان يقطع الصلة معى، بأشد الطرق استثارة لشعورى ، وايحاء لى بأنه قد أولانى صنيعا ، اذ لم يطلع أحدا على خطابى . وكان من المؤكد اننى ـ فى سورة الغضب ـ خليق بأن أرفض أمانته هذه ، فأسمح له بأن يعرض خطابى على الدنيا بأسرها .. وهذا عين ما كان يبتغيه تماما ، وقد سار كل شىء وفقا لما دبر . ولقد اذاع الخطاب فى باريس كلها ، مع تعليقات من عنده ، لم تكن ـ مع ذلك ـ موفقة بالدرجة التى كان يرجوها. **فقد رؤى ان سماحى له بأن يعرض خطابى ـ الذى عرف كيف ينتزعه منى ـ لم يكن ليعفيه من اللوم، لما اظهره من تسرع فى استغلال كلمتى للعمل على ايذائى . وأخذ الناس يتساءلون باستمرار عن اية ذنوب ارتكبتها نحوه شخصيا تبرر كل هذا الحقد الأهوج . ثم انتهوا ـ أخيرا ـ الى انه اذا كانت لى اخطاء تضطره الى القطيعة، فان للصداقة ـ ولو فصمت ـ حقوقا كان لزاما عليه ان يحترمها!**

على ان باريس متقلبة ، لسوء الحظ ، فلا تلبث هذه الملاحظات ـ وليدة وقتها ـ ان تتوارى فى زوايا النسيان .. اذ ان المنكوب يلقى اهمالا مادام غائبا ، والمجدود يتغلب مادام حاضرا .. وتستمر لعبة الدس والكيد الخبيث ، وتتجدد ، ولا تلبث نتائجها التى تبعث حية ـ كلما ماتت ـ ان تمحو كل ما سبقها !

* * *

• على هذا النحو ، أماط هذا الرجل ـ الذى ظل يخدعنى طويلا ـ لثامه ، وقد اطمأن الى انه لم يعد بحاجة اليه ، فى الوضع الذى ساق اليه الأمور . على اننى كففت عن التفكير

(ليرميتاج) ٠٠ البيت الذى دخله «روسو» مدعوا ، مكرما ٠٠ وغادره طريدا ، مجردا من اصدقائه ، تتكاثف الغيوم فى سماء حياته

فى هذا التعس ، بعد ان تخلصت من الخوف من ان أكون ظالما نحوه ، وتركته لضميره . وبعد ثمانية ايام من تسلم ذلك الخطاب ، تلقيت من السيدة ديبيناى ردها على خطابى السابق ، محررا فى جنيف (الملف ب ـ رقم ١٠) . **وتبينت من اللهجة التى لجأت اليها ـ للمرة الاولى فى حياتها ـ ان كلا منهما كان يعول على نجاح تدابيرهما ، وانهما كانا يعملان متفقين ومتعاونين ، وانهما كانا ينظران الى كرجل ضائع ، لا معين له ولا نصير ، ومن ثم فقد آليا على نفسيهما ان لايدخرا جهدا فى سبيل الاستمتاع بسحقى نهائيا !**

والواقع ان ظروفى كانت فى أسوأ حال . فلقد رأيت أصدقائى يهجروننى ، دون ان اعرف كيف ، ولا لماذا .. فديدرو ، الذى

كان يفخر بانه باق لى ، وباق وحده، والذى وعدنى منذ ثلاثة أشهر بأن يزورنى ، لم يأت قط . وكان الشتاء قد بدأ يفرض اثره محسوسا ، فبدأت معه عللى المألوفة . وكان كيانى ـ رغم متانة تكوينه ـ قد ناء تحت تضارب كل هذه العواطف المتناقضة . كنت فى حالة اعياء، لم تذر لى طاقة ولا جلدا على الاحتمال. ولو ان معاملاتى، بل لو ان تأييدات ديدرو والسيدة دوديتو ، سمحت لى بمبارحة (ليرميتاج) فورا ، فاننى لم اكن أدرى الى أين أذهب ، ولا كيف أجر نفسى الى هناك . ومن ثم فقد بقيت خامل الذهن ، خامد الحراك ، دون أن أقوى على التفكير او العمل . كان مجرد التفكير فى ان اتخذ خطوة ، أو اكتب رسالة ، أو أفوه بكلمة ، كفيلا بأن يجعلنى ارتجف !

ومع ذلك فاننى لم أقو على ان أدع رسالة السيدة ديبيناى بلا جواب ، والا كان ذلك اعترافا بأننى كنت استحق المعاملة التى اثقلتنى وصديقها بها . وقررت ان اصارحها بمشاعرى ونواياى ، دون ان ارتاب لحظة فى انها ستبادر الى اقرارى على هذه المشاعر والنوايا ، بفضل الشعور الانسانى ، والكرم ، والطيبة، والاحاسيس الطيبة التى خيل الى أننى اراها لديها ! .. وهاك خطابى :

« **ليرميتاج** : ٢٣ نوفمبر سنة ١٧٥٧

« **لو** قدر للمرء ان يموت حزنا ، لما كنت أنا الآن على قيد الحياة . ولكننى عقدت عزمى اخيرا . لقد انفصمت عرى الصداقة بيننا ياسيدتى ، ولكن لهذه التى لم يعد لها بقاء ، حقوقا اعرف كيف احترمها. فاننى لم أنس قط أفضالك على، وبوسعك ان تطمئنى من ناحيتى الى كل عرفان يستطيع ان يدين به امرؤ الى شخص لم يعد ملزما بأن يحبه واى تفسير آخر ، لن يكون مجديا ، وانى لأركن الى ضميرى ، ولك ان ترجعى الى ضميرك .

« **لقد كنت اعتزم مغادرة (ليرميتاج) ، وكان من الواجب ان**

أفعل . ولكن رؤى ان ابقى حتى يحين الربيع، وما دامت هذه هى رغبة اصدقائى ، فسوف أبقى الى الربيع ، لو انك وافقت على ذلك)) .

وبعد ان كتبت هذا الخطاب وارسلته ، لم اعد افكر الا فى البقاء هادئا فى (ليرميتاج) ، وفى العناية بصحتى ،ومحاولة استرداد عافيتى ، واتخاذ التدابير لمغادرةالدار فىالربيع ، دون ما ضجة ، ودون ما اعلان للقطيعة . ولكن هذا لم يكن عين ما أعده السيد جريم ، والسيدة ديبيناى ، كما سيظهر بعد لحظة .

☆ ☆ ☆

. **وحظيت** بعد ايام بالزيارة التى أسرف « ديدرو » فى وعوده بأن يؤديها لى ، بقدر ما أسرف فى ان يبر بتلك الوعود. وما كان اداؤها ليجد وقتا اكثر ملاءمة من تلك الآونة . فقد كان ديدرو أقدم أصدقائى ، وكان الوحيد الذىبقى لى منهم، ومن ثم ففى الوسع ادراك مدى السرور الذى تولانى اذ رأيته فى هذه الظروف . فلقد كان قلبى مترعا ، فأفرغته فى قلبه. وأوضحت له كثيرا من الوقائع التى كتمتعنه، أو التى موهت عليه ، أو زيفت له . وأنبأته بما كان يحق لى ان اطلعه عليه ، من كل ما جرى . ولم أحاول أن أكتم عنه ما كان هو على علم واف به . . **لم احاول ان اكتم عنه ان حبا ، غير موفق ــ بقدر ما كان ارعن ــ استغل كأداة للقضاء على ، ولكننى لم أبح قط بأن السيدة ((دودينو)) كانت على علم بهذا الحب ، أو اننى كاشفتها به يوما ، على الأقل !**

وحدثته عن المناورات غير الكريمة التى قامت بها السيدة ديبيناى للاستيلاء على الخطابات البريئة التى كانت أخت زوجها قد كتبتها لى . فلقد رغبت فى ان يعرف كل هذه التفصيلات ، من شفاه المرأتين اللتين حاولت السيدة ان

تغريهما بذلك . وقد أدلت اليه تيريز بوصف دقيق لكل شيء. ولكن .. **ما الذى اصابنى ، فعند ما حان دور الأم ، وسمعتها تعلن وتتشبث بانها لم تكن على علم بشيء من هذا اطلاقا ؟! .. هكذا كان قولها الذى لم تتحول عنه البتة . ولم يكن قد انقضى بعد اربعة ايام ، مذ رددت على سمعى كل التفصيلات ، التى راحت تناقضها فى وجود صديقى !**

ولاح لى مسلكها حاسما ، فشعرت اذ ذاك ، شعورا قويا ، بمدى غفلتى اذ أبقيت امرأة كهذه على مقربة منى . ولم انطلق أكيل لها السباب ، بل اننى لم أكد أقوى على أن أقول لها بضع كلمات أعبر بها عن استهجانى . وأحسست بمدى ماكنت أدين به للابنة التى كانت باستقامتها المنيعة ، ترسم صورة قوية ، تتناقض تماما مع ما أبدت الأم من خسة مهينة . على ان رأيى استقر ــ منذ ذلك اللحظة ــ بشأن العجوز ، ولم انتظر الا ريثما حانت اللحظة المناسبة لتحقيقه .

ولقد جاءت هذه اللحظة بأسرع مما كنت أتوقع . ففى العاشر من ديسمبر ، تسلمت ردا من السيدة ديبيناى ، هذه محتوياته (الملف « ب » ــ رقم ١١) :

« **جنيف** : أول ديسمبر سنة ١٧٥٧

« لم أعد أملك ــ بعد أن أتحت لك كل دليل ممكن على الصداقة والعطف ، خلال عدة سنوات ــ سوى ان أرثى لك ، انك شقى ، وانى لأرجو ان يكون ضميرك فى طمأنينة ضميرى ، فقد يكون هذا ضروريا لطمأنينة حياتك !

« وما دمت قد رغبت فى مبارحة (ليرميتاج) ، وكان خليقا بك ان تفعل ، فاننى أعجب من أصدقائك اذ منعوك . اما انا ، فلست استشير أصدقائى فيما يتعلق بواجباتى . وليس لدى مزيد أقوله فيما يتعلق بواجباتك » !

كان انذارا ــ غير متوقع ، ولكنه واضح ــ بالطرد ، فلم يدع لي لحظة واحدة كي أفكر أو أوازن .. كان لا بد لى من أن

ابرح (ليرميتاج) فورا ، ومهما تكن حال الطقس ، أو حالى الصحية ـ حتى لو اضطرنى ذلك الى أن أبيت فى الغابات ، وعلى الصقيع الذى كان يكسو الارض ـ ومهما يكن فى وسع السيدة دوديتو ان تقوله او تفعله ازاء ذلك . اذ اننى لم أكن على استعداد لأن أهين نفسى ، بالرغم من اننى كنت على استعداد لأن أرضى هذه السيدة !

* * *

• **ووجدتنى** فى اشد حيرة عرضت لى فى عمرى كله ، ولكننى كنت قد عقدت العزم ، وأقسمت على ان لا أبيت فى (ليرميتاج) فى اليوم الثامن ، مهما يكن الأمر . وعكفت على نقل امتعتى الخاصة ، وقد فضلت ان ادعها فى العراء ، على ان لا ارد المفاتيح فى اليوم الثامن ، فقد كنت تواقا ـ قبل كل شىء ـ الى أن أفرغ من الأمر ، قبل ان يستطيع أحد أن يكتب الى (جنيف) . وان يتلقى ردا منها .. **واوتيت اقداما ما شعرت به من قبل يوما ، فاذا كل قواى قد ارتدت الى .. ردها الى الشمم والاباء اللذان لم تحسب لهما السيدة ديبيناى حسابا !**

وساعد الحظ هذه العزيمة الجريئة ، فاذا السيد «متى» ـ المندوب القضائى (١) للسيد الامير «دى كونديه» ـ يسمع بورطتى ، فيعرض على بيتا صغيرا كان يقتنيه فى حديقة داره فى (مون لوى) بمونمورنسى . وقبلت العرض فى تأثر وعرفان .. وتمت الصفقة ، فأسرعت الى شراء بعض أثاث أضمه الى ماكان عندى ، لآوى اليه مع « تيريز » .. ونقلت متاعى على عربة ، فى كثير من العناء ، وبنفقات باهظة ورغم الجليد والصقيع ، فقد تم انتقالى فى يومين .. حتى اذا كان الخامس عشر من ديسمبر ، رددت مفاتيح (ليرميتاج) ، بعد ان دفعت أجر

---

(١) المحامي الذى يتولى المسائل والقضايا المتعلقة بالحكومة او الهيئات الادارية

البستانى ، اذ لم استطع ان ادفع اجر المسكن !

اما السيدة لوفاسير ، فقد صارحتها بان عليها ان تفارقنا. وحاولت ابنتها ان تثنينى ، ولكنى أبيت أن ألين . وعملت على سفرها الى (باريس) ، فى عربة البريد ، مع كافة متاعها وما كانت تشترك مع ابنتها فى امتلاكه من أثاث . كما اننى منحتها بعض المال ، وتعهدت بأن أدفع لها نفقات اقامتها لدى ابنائها او سواهم ، وأن اتكفل بمطالب معيشتها بقدر ما يسعنى ، وأن لا أدعها قط فى عوز طالما كنت أجد قوتى !

وأخيرا ، كتبت الى السيدة ديبينــاى الرسالة التالية ، فى اليوم الذى أعقب غداة وصولى الى (مون لوى) :

« مونمورنسى : ١٧ ديسمبر سنة ١٧٥٧

« ما كان ثمة ما هو أبسط ، ولا ما هو ألزم ، من ان أخلى منزلك ، يا سيدتى ، ما دمت لا تقرين بقائى فيه . وبناء على رفضك الاذن لى بأن أمكث فى (ليرميتاج) بقية الشتاء ، بادرت الى مبارحته فى الخامس عشر من ديسمبر . لقــد كان مقدرا لى أن أدخله بالرغم منى ، وأن أخرج منــه كذلك ! .. وانى لأشكر لك الاقامة التى أتحتها لى هناك ، وقد كنت خليقا بأن اكون أكثر شكرا لك ، لو ان الثمن الذى دفعته كان أقل فداحة.

« هـــذا ، وانك لعلى صواب اذ ترينني شقيـــا ، فليس فى الدنيا من يعلم خيرا منك ، الى أى مدى يجب أن أكون كذلك!.. واذا كان من سوء الحظ أن يفتر المرء فى اختيـــار اصدقائه ، فليس أقل قسوة من ذلك ، ان يضـــار من جراء خطأ لطيف كهذا ! » (١)

هذه هى القصة الأمينة لاقامتى فى (ليرميتاج) ، وللأسباب التى اضطرتنى الى مغادرته . وما كنت أملك أن أقتضب هذه القصة ، بل كان من المهم أن أعرضها بأعظم قدر من الدقة ، اذ ان حياتى فى هذه الفترة ، كانت ذات اثر — على ما بعدها — سيبقى الى آخر يوم فى حياتى !

---

(١) ورد نص هذا الخطاب فى مذكرات السيدة ديبيناى ، متضمنا — فى نهايته — هذه العبارة : « لقد تقاضى البستانى أجره حتى اول يناير » . ولم ترد هذه العبارة فى أية طبعة من «الاعترافات» ، والظاهر ان « روسو » أغفلها خطأ ، فى حين ان رد السيدة ديبيناى لا يفهم بدونها

الكراسة العاشرة

سنة ١٧٥٨

• لم تلبث الطاقة غير العادية – التى أمدنى بها هياج عابر، كى أبرح (ليرميتاج) – أن فارقتنى بمجرد أن صرت خارج هذا البيت . فما ان استقر بى المقام فى المسكن الجديد ، حتى عاودتنى نوبات شديدة ، متتابعة ، من احتباس البول ، امتزجت بالمضايقات الجديدة التى ترتبت على هبوط فى القلب ، كان يعذبنى منذ أمد ، دون أن أعلم انه كان هبوطا !.. وسرعان ما غدوت فريسة لنوبات أشد قسوة ، فجاء الطبيب « ثييرى » – صديقى القديم – ليعودنى ، وبصرنى بحالى . **وتجمعت حولى المسابر ، والمجسات ، والضمادات ، وكافة المعدات التى تستلزمها علل الشيخوخة ، مما جعلنى أشعر شعورا قاسيا ، بأن المرء لا يستطيع أن يحتفظ بشباب القلب – دون ما عناء – اذا كان الجسد قد باعد بينه وبين الشباب!**

ولم يردنى الفصل الجميل (الربيع) الى عافيتى ، فقضيت عام ١٧٥٨ فى حال من الوهن ، أوحت الى بأننى كنت مشرفا على نهاية حياتى العملية . بل اننى أبصرت النهاية تقترب فى شىء من التعجل . واذ كنت قد برئت من أوهام الصداقة ، وافترقت عن كل من كانوا يحببون الحياة الى ، فاننى لم أعد ارى فى هذه الحياة ما يجعلها مستحبة ، ولم أعد أبصر فيها سوى شرور ونوائب كانت تحول بينى وبين كل المتع الذاتية . ولكم ٠حت أتوق الى اللحظة التى انطلق فيها متحررا ، بعيدا عن منال إعدائى !

ولكن .. لنعد الى سياق الحوادث ثانية !

* * *

• بدا ان مقامي فى (مونمورنسى) قد ساء السيدة ديبيناى، ولعلها لم تكن تتوقعه . فان أساى ، وقسوة ذلك الفصل من السنة ، والوحدة المنبوذة التى ألفيتنى فيها .. **كل هذه جعلتها وجريم يعتقدان ان بوسعهما – اذا واصلا دفعى الى أقصى حد – أن يضطرانى الى أن أصرخ طالبا النجدة ، وأن يهويا بى الى آخر درك فى الهوان ، بغية أن أبقى فى المأوى الذى كانت الكرامة تتطلب منى أن أفارقه .** ولقد بذلت مسكنى فجأة ، فلم يجدا من الوقت ما كان يكفى لأن يتوقعا هذه الضربة ، ومن ثم فلم يبق لهما من خيار ، سوى ان يضاعفا الاندفاع فى المغامرة ، أو ان ينفضا أيديهما منها .. وبالتالى ، ان يقضيا على قضاء مبرما ، أو أن يستردانى !

واتخذ « جريم » الرأى الأول ، ولكننى أعتقد ان السيدة ديبيناى كانت تفضل الثانى ، أو ان هذا هو ما ملت الى الأخذ به ، على ضوء ردها على خطابى الأخير ، اذ خففت كثيرا من اللهجة التى اتخذتها فى رسائلها السابقة . **ولاحت كأنها تفتح الباب للصلح . ولقد كان تأخر هذا الخطاب – الذى اضطررت الى انتظاره شهرا كاملا – دليلا كافيا على الحيرة التى ألفت نفسها فيها – وهي تحاول ان تسبغ عليه اسلوبا ملائما – وعلى الخواطر والهواجس التى سبقته .** فما كان فى وسعها ان تمضى فيه الى أبعد مما مضت ، دون ان تكشف نفسها . ولكن المرء لا يجد – بعد خطاباتها السابقة ، وبعد خروجي المباغت من دارها – مدعاة للعجب من العناية التى بذلتها فى ذلك الخطاب ، ومن حرصها على ان لا تدع كلمة جافية واحدة تتسلل اليه . وانى لأنقله بأكمله ، ليتسنى الحكم على ضوئه (الملف ب – رقم ٢٣) :

« **جنيف** : ١٧ يناير سنة ١٧٥٨

« لم أتسلم خطابك المؤرخ ١٧ ديسمبر ، سوى بالأمس يا سيدى . فقد ارسل الى فى حقيبة ملأى بأشياء مختلفة ، ظلت طيلة هذه المدة فى الطريق . ولن أرد الا عن العبارة الأخيرة ، أما الخطاب فلست أفهمه تماما .. **واذا كنا بصدد تبادل الايضاح ، فانى أوثر أن أحمل كل ما حدث على محمل سوء التفاهم !**

« وأعود الى العبارة الأخيرة .. فلعلك تذكر يا سيدى ؛ اننا اتفقنا على ان يتلقى بستانى (ليرميتاج) أجره عن طريقك ، رغبة فى اشعاره بأنه موكول اليك ، ولتفادى مشاحنات كتلك المشاحنات السخيفة ، الوقحة ، التى صدرت من سلفه . والدليل على ذلك أن أجره عن الربع الأول من السنة أسلم اليك ، واننى اتفقت واياك — قبيل رحيلى ببضعة أيام — على ان تتقاضى ما سبق أن دفعت له . وانى لأدرك انك أثرت خلافا بشأن هذا — فى البداية — ولكنى كنت قد رجوتك ان تؤدى تلك المدفوعات سلفا ، فكان من أبسط الامور ان اردها اليك ، وقد اتفقنا على ذلك . ولكن « كاهوية » انبأنى بأنك رفضت قبول هذه النقود . ولا بد ان ثمة لبسا فى الامر . ولقد أمرت بأن تؤدى اليك ، من جديد ، ولست أرى مبررا لرغبتك فى ان تدفع أجر بستانى فى خدمتى ، بالرغم من اتفاقنا ، وبالرغم من أن هذا الاجر يرجع الى فترة سبقت سكناك (ليرميتاج) .

« لذلك فانى واثقة ياسيدى ، من انك اذ تتذكر كل هذا الذى تشرفت بقوله لك ، لن تأبى ان تسترد النقود التى تكرمت بدفعها عنى »

ولم أشأ — بعد كل الذى جرى — أن اطمئن الى السيدة ديبيناى أو أثق فيها ، ولا رغبت البتة فى ان أجدد صلاتى بها . ومن ثم فاننى لم أرد على الخطاب اطلاقا ، فانتهت

مكاتباتنا عند هذا الحد(١) . **واذ تبينت عزمى، حذت حذوى، وانفمست فى خطط جريم وعصبة دولباخ ، وضمت جهودها الى جهودهم للقضاء على . وبينما كان هؤلاء يعملون فى (باريس) ، راحت هى تعمل فى (جنيف)** . وقد انضم اليها جريم هناك ، بعد ذلك ، فأتم ما كانت قد بدأته . ولقد ساعدهما « ترونشان » ــ الذى استطاعا ان يكسباه فى صفهما ــ بكل قواه ، وصار اعنف من راحوا يضطهدوننى ، دون ان يكون لديه ــ ولا لدى جريم ــ ما يؤاخذاننى عليه . وراح ثلاثتهم يعملون معا ، فبذروا فى (جنيف) ما شوهد نباته يترعرع فى باريس ، بعد ذلك بأربع سنوات

* * *

. **وكان** الأمر اكثر مشقة عليهم فى (باريس) ، حيث كنت معروفا ، وحيث كانت القلوب أقل ميلا للبغضاء ، فهى لذلك لاتتلقى الايحاءات بسهولة . ولكى يوجهوا ضرباتهم بمزيد من المهارة والحيلة ، شرعوا فى ترويج زعمهم بأننى كنت الأسبق الى التحول عنهم . (انظر خطاب ديلير ــ الملف ب ، رقم ٣) . ومن هنا ، راحو ــ وهم يتظاهرون بأنهم لايزالون اصدقاء لى ــ يبذرون بذور الاتهامات الخبيثة ، على شكل شكايات من الأخطاء والمظالم التى حاقت بهم على يدى صديقهم . **ولقد ادى هذا الى أن مستمعيهم تخلوا عن حذرهم ، فاصبحوا اكثر ميلا الى الاصغاء الى لومهم . وانتشرت اتهامات الخيانة والجحود فى تكتم وحذر ، وقد كانت ــ لعين هذا السبب ــ اشد فعلا بالنفوس . وكنت اعلم انهم وصمونى بأبشع الفظائع،**

---

(١) تكذب مذكرات السيدة ديبيناى هذا القول ، فقد ورد فيها رد من « روسو » ، وصفته السيدة بانه « اكثر قحة من جميع خطاباته الاخرى » . ويبدو ان « روسو » نسى ذلك ، اذ انه كتب اعترافاته بعد عشر سنوات من تلك الفترة .

دون ان يستطيعوا قط ان يعرفوا - فيما بينهم - مما كانت هذه الفظائع تتالف ! ٠ ٠ كل الذى استطعت ان اخرج به من الشائعات العامة ، هو ان هذه الفظائع انحصرت فى اربعة ذنوب جوهرية : (اولا) اعتكافى فى الريف ، و (ثانيا) حبى لمدام دوديتو ، و (ثالثا) رفضى مرافقة السيدة ديبيناى الى (جنيف) ، و (رابعا) نزوحى عن ليرميتاج. واذا كانوا قد اضافوا سخامات اخرى ، فلا بد انهم اتخذوا ابلغ حيطة،حتى انه غدا من المستحيل على تماما أن أعلم موضوعها .

والى هذه الفترة بالذات ، أعتقد ان بوسعى ان ارجع تاريخ تكوين حملة منظمة ، لم يلبث ان انضوى تحت لوائها اولئك الذين تخلوا عنى ، بنجاح وتقدم سريعين ، الى درجة انها كانت خليقة بأن تبدو رائعة فى نظر من لايدرى مدى السهولة التى يستطيع بها كل ما يساعد شرور البشر ان يحظى بالتأييد ،ولا بد لى الآن من ان أشرح ، فى أوجز ما يسعنى ، ما هو واضح لنظرى من هذه الحملة الخفية العميقة الأصول .

ذلك اننى احتفظت ببساطة ميولى الأصلية ، حتى بعد أن طبق اسمى آفاق اوروبا ، وغدوت مشهورا . ولقد أدى مقتى القتال لكل ما يسمى حزبا ، وعصبة ، وشيعة ، الى بقائى حرا، مستقلا ، دون ماقيود سوى ميول فؤادى . وكنت وحيدا ، غريبا ، منطويا ، بلا نصير ولا اسرة ، فلم اعتمد الا على مبادئى وواجباتى ، وسلكت فى جلد طرق الاستقامة ، فما تملقت ولا تزلفت انسانا على حساب العدالة والحقيقة . وفضلا عن ذلك، فاننى لذت - منذ عامين - بالعزلة ، دون ان اتسقط الانباء ، وبدون أى اتصال بشئون العالم . فما كنت احاط علما بأى شىء ، ولا كنت اهفو الى انباء شىء ما .. وكنت اعيش على اربعة فراسخ من (باريس) ، وكأننى - بفضل عدم اكتراثى - اعيش فى جزيرة (تينيان) ، تفصلنى عن هذه العاصمة بحار !

اما جريم ، وديدرو ، ودولباخ فكانوا - على النقيض - فى

وسط الدوامة ، يعيشون فى مجتمع ارقى الطبقات ، يتقاسمون فيما بينهم جميع آفاق الفكر تقريبا . فكان العظماء ، وذوو العقول النابهة ، وأهل الأدب ، والمحامون ، والنساء ينصتون جميعا اليهم ، اذا ما أجمعوا على حديث . ومن السهل تبين النفع الذى يضفيه مثل هذا الوضع على ثلاثة رجال اجتمعوا على رابع فى مثل وضعى ! .. **ومن الصحيح ان ديدرو ودولباخ لم يكونا — أو أننى لا اعتقد ، على الأقل ، انهما كانا — ممن يدبرون الدسائس البالغة الخبث والشر ، اذ أن واحدا منهما لم يكن ذا خبث وشر ، فى حين أن الآخر لم يكن ذا دهاء ومكر(١) .. على أن هذا السبب بالذات ، هو الذى جعل العصبة وثيقة الترابط .** فكان جريم يرسم وحده الخطة فى رأسه ، فلا يطلع الاثنين الآخرين على اكثر مما يراه ضروريا لتمكينهما من المساهمة فى تحقيق تلك الخطة . وكان استعلاؤه عليهما يجعل تعاونهما ميسورا ، بحيث تتناسب النتيجة مع مواهبه الرفيعة !

* * *

. **وبهذه** المواهب الفائقة ، عمد جريم — وقد ادرك النفع الذى يستطيع ان يستمده من وضع كل منا — الى وضع مشروع لقلب سمعتى راسا على عقب ، ولاضفاء سمعة مناقضة لها تماما على اسمى ، دون ان يقحم نفسه .. وذلك بأن يبدأ باحاطتى بصرح من الغموض والابهام ، تعذر على ان اخترق حجبه لألقى النور على مناوراته ، ولأكشف امره !

ولقد كان هذا المشروع شاقا ، اذ كان على جريم ان يموه ما فيه من ظلم ، فى انظار اولئك الذين كان عليه ان يستعين بهم .. كان عليه ان يغرر بالأمناء ، وكان عليه ان يقصى عنى كل الناس ،

(١) اضاف « روسو » الى هذه العبارة تعقيبا جاء فيه : « واصبحت الآن ملكا لهم ، وفقا لاتفاق جديد ، عقد بيننا اخيرا »

فلا يدع لى صديقا واحدا، صغيرا كان ذلك الصديق او كبيرا ! فماذا عسانى أقول ؟ .. كان لا بد له من ان لايدع كلمة واحدة عن الحقيقة تنفذ الى .. ولو ان رجلا كريما واحدا جاءنى ، وقال لى : « انك تؤدى دور الرجل الفاضل ، ومع ذلك ، فانظر كيف تعامل ، وكيف يحكم القوم على أعمالك .. فماذا لديك من قول ؟ » .. كانت الحقيقة خليقة اذ ذاك بأن تنتصر، فيبوء جريم بالخذلان ! .. ولقد كان يدرك هذا ، ولكنه دنس قلبه ، ولم يقدر الناس حق قدرهم .. اننى لحزين من اجل الكرامة الانسانية ، التى قدرها بمثل هذه الدقة !

واذ سار فى هذه الدروب المتوارية تحت الارض ، كان لا بد له من ان يبطىء ، كى يطمئن الى مواقع قدميه . ومن ثم ظل اثنى عشر عاما وهو يتابع خطته ، ومع ذلك فلا يزال لديه اشق ما يجب ان يفعله .. ذلك هو ان يغرر بالرأى العام بأسره !.. ان هناك عيونا ظلت تراقبه عن كثب اقرب مما يظن .. وانه لخائف من هذا ، فهو لا يجرؤ بعد على ان يكشف مؤامرته فى وضح النهار (١) . ولكنه اهتدى الى اقل الطرق صعوبة ، لكى يدخل السلطان بين عناصر المؤامرة ، فيقضى هذا السلطان على . **واذ استند على هذه الدعامة ، راح يتقدم وهو اكثر طمأنينة . واذناب السلطان لايوالون الاستقامة والعدل كثير تفكير ، فى العادة .. وهم اقل اكترااثا بالصراحة ، ومن ثم فانه لم يعد يخشى فطنة وامانة بعض الخيرين اطلاقا ! ..** على انه كان من الضرورى له — بوجه خاص — ان اكون محاطا بظلمات دامسة ، وان تظل مؤامرته متوارية عن بصرى على الدوام . وكانت حيلته الكبرى ، هى ان يبدو للانظار انه كان يحابينى ويعطف على — فى الوقت الذى كان يحط فيه من قدرى ، فى

---

(١) وهنا ايضا اضاف « روسو » التعقيب التالى : « ولقد اتخذ — منذ كتابة هذا — خطوته الكبرى ، باكمل نجاح ، وباكبر توفيق يجل على الافهام . وانى لأعتقد ان ترونشان هو الذى أمده بالتشجيع والوسيلة »

الواقع ــ وان يخلع على غدره مظهر الكرم والشهامة !

* * *

• ولقد شعرت بأولى نتائج هذه الحملة ، عن طريق الاتهامات المستترة التى راحت عصبة دولباخ تشيعها ، دون ان يتسنى لى ان اعلم ــ بل ولا ان اخمن ــ ما كانت تتألف منه هذه الاتهامات . ولقد ذكر لى «ديلير» فى رسائله بأننى رميت ببعض الشناعات .. وذكر لى ديدرو الشىء ذاته، فى غموض وابهام، فلما حاولت استيضاح كل منهما ، اذا بكل شىء ينحصر فى الاتهامات الرئيسية السالفة الذكر

وشعرت بفتور يسرى تدريجا فى رسائل السيدة دوديتو ، فلم أستطع ان أعزو هذا الفتور الى « سان ــ لامبير » الذى ظل يكتب لى بعين الود المعهود ، والذى أخذ يزورنى بعد عودته. كذلك لم استطع ان القى اللوم على نفسى ، اذ اننا كنا قد افترقنا وكل منا راض عن الآخر ، ولم يحدث ــ منذ ذلك الحين ــ شىء من ناحيتى ، اللهم الا رحيلى عن (ليرميتاج) ، وهو امر شعرت هى نفسها بضرورته. ومن ثم فاننى لم اعرف كيف أؤول هذا الفتور ــ الذى لم تجهر به وان احسه قلبى ــ فشعرت بقلق شامل . وكنت ادرك انها اعتادت ان تداهن زوجة اخيها وجريم ، نظرا لعلاقتهما بسان ــ لامبير ، فخشيت مناوراتهما والاعيبهما . **ونكأ هذا القلق المتاع جراحى ، واحال رسائلى عاصفة ، حتى انها لم تلبث ان اصبحت تعافها ! .. كنت ألمح ألف شىء قاس ، دون ان اميز شيئاً بوضوح . كنت فى وضع هو ابعد الأوضاع عن ان يطيقه رجل كان من اليسير ان يتقد** خياله .. ولو اننى كنت فى عزلة تامة، ولو اننى كنت لا اعرف شيئا على الاطلاق ، لكنت خليقا بأن اكون اكثر هدوءا ، ولكن فؤادى كان لايزال متشبثا بالعواطف التى اتاحت لاعدائى الف مأخذ ضدى ، ولم تؤد الاشعة الواهنة التى كانت تنفذ الى

عزلتى الا الى ان ارى المعميات التى كان القوم يخفونها عنى ، أشد حلكة وسوادا من ذى قبل !

وكنت خليقا ـ دون ما شك ـ بأن اتداعى تحت هذا العذاب الذى كان أقسى واثقل من ان تحتمله فطرتى الصريحة ، التى كانت تجعل من المستحيل تماما ان اخفى مشاعرى ، وكانت ـ فى الوقت ذاته ـ تجعلنى خائفا كل الخوف ، من تلك الأشياء التى كانت تخفى عنى . على ان أمورا اخرى ، لم تلبث ـ لحسن الحظ ـ ان عرضت لى ، وكانت مشوقة لقلبى بدرجة كافية لكى تولد تحولا سليما ، نأى به عن تلك الأمور التى كانت تشغله ، على الرغم منه !

* * *

• **وكان** « ديدرو » قد حدثنى ـ اثناء زيارته الأخيرة للرميتاج ـ عن مقال كتبه « دالمبير » عن (جنيف) فى « الموسوعة » ، وقال لى ان هذا المقال ـ الذى أقره بعض ذوى المكانة العليا من اهل جنيف ـ كان يرمى الى انشاء مسرح فى (جنيف) ، وان الخطوات اللازمة قد اتخذت ، وان الامد لن يطول حتى يكون هذا الانشاء قد تم . ولما كان ديدرو قد حبذ المشروع ، ولم يداخله شك فى نجاحه ، كما كانت لدى كثير من الامور التى اردت ان ابحثها معه ، فاننى لم اشأ ان امضى فى جدل حول هذا الموضوع ، ولم أقل شيئا . **ولكننى شعرت باستنكار لكل هذه الدسائس التى كانت تحاك لافساد موطنى ، فانتظرت بصبر نافذ ظهور الجزء الذى ضم المقال ـ من « الموسوعة » ـ لكى اتبين ما اذا كانت ثمة وسيلة للرد عليه بطريقة تعرقل هذه الحيلة المشئومة !**

وتلقيت الجزء عقب استقرارى فى (مون ـ لوى) بوقت قصير ، فوجدت ان المقال قد كتب بكثير من الدهاء والحذق ، وانه كان اهلا للقلم الذى سطره . على ان ذلك لم يصرفنى عن

الاهتمام بالرد عليه ، وبالرغم من الخور الذى كان يعترينى ، وبالرغم من شجنى وآلامى ، ومن قسوة الطقس ، وما اتسم به مسكنى الجديد ــ الذى لم يكن مقامى فيه قد استقر تماماً ــ من عدم توفر اسباب الراحة ، فقد عكفت على العمل بتحمس قهر كل شىء .

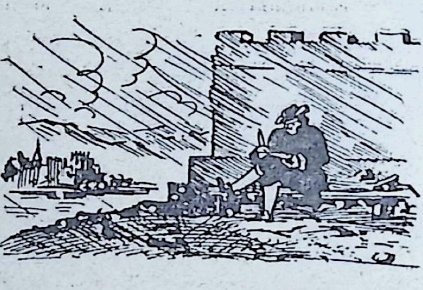

وفى شتاء قاس الى درجة ليست بالبسيطة ، وفى شهر فبراير ، وفى الظروف التى وصفتها آنفا ، رحت أقضى ساعتين من الصباح ، ومثلهما من المساء ، فى شرفة مكشوفة ، عند طرف الحديقة التى كان بيتى يقوم فيها . وكانت هذه الشرفة ــ التى كانت تقع فى نهاية درب محاط بسياج ــ تطل على وادى مونمورنسى وبركة الاسماك ، وتكشف لى على البعد ، بقدر ماكان يسمح لى البصر ، قصر (سان جراسيان) الجليل المنظر ، رغم بساطة بنيانه .. القصر الذى اعتكف فيه « كاتبنا » الفاضل .. وفى هذه البقعة ــ التى كانت فى تلك الفترة قارسة البرد ، والتى كانت بلا وقاء من الريح والصقيع ، وبلا اية نار سوى نار قلبى ــ نظمت ، فى ثلاثة اسابيع ، خطابى الى « دالمبير » حول المسارح !

وكان ذلك اول موضوع اكملته ــ اذ لم اكن قد اتممت سوى النصف من « جولى » ــ فوجدت فيه سحر العمل . كانت

الغيرة على الفضيلة هى معبودى حتى ذلك الحين ، ولكن الحنان والرقة حلا محلها فى روحى ، فى هذه المناسبة !

كانت المظالم التى لم اكن ـ بالنسبة لها ـ أكثر من متفرج، قد أهاجتنى ، اما التى كنت هدفها فقد احزنتنى ، ولم يكن ذلك الحزن ـ المجرد من كل حزن ومرارة ـ سوى شجن قلب مفرط الحب والحنان.. قلب اغتر فيمن كان يؤمن بأنهم على شاكلته ، فاضطر الى ان ينطوى على نفسه !.. كان قلبى قد افعم بما حدث لى أخيرا ، وكان لايزال يهتز بانفعالات عديدة عنيفة ، فراح يمزج احساسه بآلامه ، بالأفكار التى تولدت عن تفكيرى فى الموضوع، فاذا آثار هذا المزج تنعكس على ماكتبت. واذا بى ـ دون ان أفطن ـ أصف فيه حقيقة موقفى الواقعى.. رسمت فيه جريم ، والسيدة ديبيناى ، والسيدة دوديتو ، وسان ـ لامبير، ونفسى. وكنت أذرف ـ وانا اكتب كل هذا ـ دموعا عذبة !.. فوالهفتاه !.. ان المرء ليلمس فى المقال ان الحب ـ هذا الحب الجبار الذى كنت احاول ان أشفى منه ـ لم يكن قد فارق قلبى بعد !.. ولقد كان يمتزج بكل هذا ، شعور بالاشفاق على نفسى ، اذ شعرت بأننى أموت ، وكنت أؤمن باننى أودع الرأى العام للمرة الأخيرة !.. وبدلا من ان اخاف الموت ، رحت ارقب اقترابه بغبطة، ولكننى كنت أحس بالحسرة ، لأننى كنت أفارق أبناء جلدتى دون ان يكونوا قد شعروا بقيمتى وقدرى .. دون ان يدروا كم كنت جديرا بأن أحظى بالحب منهم ، لو أنهم كانوا اكثر معرفة بى مما هم !.. وهذه هى الأسباب الدفينة للهجة الغريبة التى سادت هذا المقال،والتى تبدو جد مناقضة للهجة مؤلفى الذى سبقه (١).

ونقحت المقال واعدت نسخه ، وأوشكت ان أدفعه الى الطباعة ، واذا بى أتلقى رسالة من السيدة دوديتو ـ بعد طول صمت ـ واذا بهذه الرسالة تغرقنى فى هم جديد ، لعله اقسى

(١) حديث فى عدم المساواة

ما كنت قد خبرت من هموم ، حتى ذاك الحين . فلقد أنبأتنى السيدة فى هذه الرسالة (الملف ب ـ رقم ٣٤) بأن هيامى بها بات معروفا فى باريس بأسرها ، واننى قد أفضيت به الى قوم اذاعوه ، وان هذه الضجة قد ترامت الى اذنى عشيقها،وكادت تكلفه حيـاته ، وانه ـ فى النهاية ـ قد أنصفهـا ، فعاد الوئام بينهما .. **ولكنها كانت مضطرة ـ من أجله ، ومن أجل نفسها والحرص على سمعتها كذلك ـ الى أن تقطع كل علاقة بى !..** وأكـدت لى ان كلا منهمـا لن يكف ـ بعد ذلك ـ عن ان يهتم بأمرى، وان يدافع عنى امام الملأ .. وانها ستبعث ـ بين الحين والحين ـ فى طلب أخبارى !

* * *

• **وهتفت** فى نفسى : « حتى أنت ياديدرو !.. ايها الصديق غير الجـدير بالود ! » . ومع ذلك فاننى لم أكن أملك بعد ان أبت فى امره . اذ كان ضعفى معروفا لدى أناس آخرين، وكان من المحتمل ان يكونوا قد وشوا به. ولقد طاب لى ان أستسلم للشك .. ولكننى لم ألبث أن وجدتنى عاجزا عن ذلك. اذ أن « سان ـ لامبير » أقدم ـ بعد ذلك بقليل ـ على تصرف يليق بكرم نفسه . فقدر ـ وهو العـارف بحقيقة نفسى ـ الحال التى كنت فيها ، وقد غدر بى فريق من اصدقائى ، وهجرنى الباقون ، فأقبل يزورنى بنفسه !.. ولم يكن لديه متسع من الوقت فى المرة الأولى ، فأقبل مرة ثانية . ولـكننى لم أكن ـ لسوء الحظ ـ فى البيت ، اذ اننى لم أكن أتوقع مجيئه. ودار بينه وبين تيريز ـ التى كانت فى البيت ـ حديث استغرق نيفا وسـاعتين ، قال كل منهمـا للآخر ـ فى سياقه ـ كثـيرا من الأمور ، التى كان من الضرورى لكل منا ان يعلم بها . . **ولقد كانت دهشتى حين علمت ان أحدا لم يكن يرتاب فى اننى عاشرت السيدة ديبيناى، كما كان جريم يعاشرها فى ذلك الحين، تعادل**

دهشته حين عرف ان هذا النبأ كاذب !.. فلقد كان ((سان ـ لامبير)) يحظى من نقمة السيدة بمثل ما كنت أحظى !.. وكانت جميع الأضواء التى انبثقت عن هذا الحديث كافية لأن تخنق فى نفسي كل أسى داخلها لفصم عرى الود مع هذه السيدة، الى غير رجعة !

ولقد أوضح «سان ـ لامبير» لتيريز ـ فيما يتعلق بالسيدة دوديتو ـ كثيرا من الظروف التى لم تكن معروفة لدى تيريز ، بل ولا لدى السيدة دوديتو نفسها !.. فما كان يعرفها سواى أنا وحدى ، وما أفضيت بها الا الى ديدرو وحده، وتحت اسم الصداقة ، فاذا به يختار ((سان ـ لامبير)) بالذات ، ليبوح له بها !.. وكان هذا الأمر الاخير هو العامل الحاسم لدى ، فعقدت العزم على أن أقاطع ديدرو الى الأبد، ولم يعد يشغلنى بصدد ذلك ، سوى تخير الأسلوب الذى أحقق به القطيعة . فلقد تبينت ان المقاطعة المتكتمة ، كانت لاتلبث ان تنقلب ضدى، اذ أنها كانت تترك قناع الصداقة مسدلا على وجوه أفظع أعدائى !

ان قواعد السلوك الطيب التى قامت فى الدنيا على هذا الاساس ، تبدو كما لو كانت من املاء روح الخداع والغدر . فان التظاهر بصداقة امرىء ما ـ عندما تكون هذه الصداقة قد انتهت ـ لايعنى سوى الاحتفاظ بوسائل ايذاء ذلك المرء ، بالتمويه على ذوى النفوس الشريفة وخداعهم !.. واسترجعت فى ذهنى ان « مونتسكيو » الجليل ، بادر ـ حين قاطع الأب دى تورنمين ـ الى اعلان القطيعة مدوية ، اذ قال للناس اجمعين : « لاتنصتوا الى الأب تورنمين ، ولا لى ، اذا تكلم كل منا عن الآخر ، فاننا لم نعد صديقين ! » . ولقد قوبل هذا المسلك باعجاب بالغ ، وأكبر الناس جميعا صراحته وكرم نفسه . اعتزمت ان أنتهج هذا المسلك مع ((ديدرو)) ، ولكن ، كيف كان يتسنى لى ان اعلن من معزلى هذه القطيعة المشروعة،

لاسيما اذا شئت ان أتجنب الفضائح ؟ .. وقررت ان اضمن هذه القطيعة ـ بل وعن موضوعها ـ بوضوح كاف ، لكل من مقالى فقرة من الكتاب المقدس من سفر ابن سيراخ تعبر عن كان يعنيه الأمر ، دون ان تعنى شيئا لبقية الناس . وفوق ذلك . فأننى عنيت بأن لا اشير ـ فى المقال ـ الى ذلك الصديق الذى نبذته ، الا بالأسلوب الكريم الذى ينبغى على المرء دائما نحو اية صداقة باقية. وفى الوسع تبين ذلك فى المقال ذاته .

* * *

• **ليس** فى هذه الدنيا سوى حظ ، وسوء حظ ، ولا وسط بينهما . ويبدو ان كل عمل ينطوى على شجاعة وجراة ، لابد وان ينقلب ـ عند الخصومة ـ الى ذنب وجريمة . ذلك لأن المسلك الذى اجتلب لمونتسكيو الاعجاب ، لم يجلب على انا سوى اللوم والتقريع !.. فما ان طبع مقالى وحصلت على نسخ منه ، حتى ارسلت واحدة الى « سان ـ لامبير » ، الذى كان قد كتب الى ـ فى اليوم السابق مباشرة ـ رسالة باسم السيدة دوديتو واسمه،زخرت بأرق آيات الود (الملف «ب»ـ رقم ٣٧) . وهاكم الخطاب الذى كتبه لى ، وهو يرد النسخة التى ارسلتها اليه (الملف «ب» ـ رقم ٣٨) :

« **اوبون** : ١٠ اكتوبر سنة ١٧٥٨

« لم استطع حقا ـ ياسيدى ـ أن أتقبل الهدية التى ارسلتها الى . فعند ما بلغت من مقدمتك الفقرة التى ذكرت فيها ديدرو ، وأوردت فقرة من « سفر الجامعة » ـ (وقد اخطأ هنا، فهى من سفر ابن سيراخ) ـ وقع الكتاب من يدى. فلقد بدا لى ـ بعد الحديث الذى دار بيننا ابان هذا الصيف ـ انك كنت مقتنعا ببراءة ديدرو من المخالفات المزعومة التى رميته بها .

« ومن الجائز ان يكون قد أخطأ فى حقك ، فلست ادرى..

ولكن الذى أدريه ، هو ان هــذه الأخطاء لاتعطيك الحق فى أن توجه اليه اهانة علنية. فأنت لاتجهل الاضطهادات التى يعانيها، وها انتذا تضم صوت صديق قديم الى صرخات الحاسدين!.. ولست أكتمك ياسيدى، مدى ما تثيرنى هذه القسوة الفظيعة! .. اننى لا أعاشر ديدرو ، ولكنى أجله وأكرمه ، وأشعر بحدة الألم الذى تسببه لرجل لم تأخذ عليه ــ فيما بيننا، على الاقل ــ مايستحق اللوم ، اللهم الا قدرا ضئيلا من الضعف .

« اننا لنختلف كثيرا ياسيدى ، من ناحية المبدأ ، بحيث لن يتسنى لنا ان نكون على اتفاق يوما . فانس وجودى ، ولن يكون هذا بالأمر العسير عليك . فاننى لم أفعل قط من الخير ــ او الشر ــ للرجال، ما يظل فى الأذهان أمدا طويلا. وأعاهدك ياسيدى ــ من ناحيتى ــ على ان أنسى شخصك، وأن لا أذكر فى نفسى سوى مواهبك »

ولم يكن شعورى بالألم، أقل من شعورى بالشمم والغضب للكرامة ، من جراء هذا الخطاب . وفى فورة شقائى ، وقد استرددت عزة نفسى ، رددت عليه بالرسالة التالية :

« **مونمورنسى :** ١١ اكتوبر سنة ١٧٥٨

« **سيدى :** ما ان قرأت خطابك ، حتى شرفتك بالدهشة منه . ولقد كنت من الحماقة بحيث تأثرت به ، ولكنى وجدته غير جدير بالرد !

« اننى غير راغب فى مواصلة نسخ القطع الموسيقية للسيدة دوديتو ، واذا لم يرق لهــا ان تحتفظ بما لديها منهــا ، ففى وسعها ان تردها الى ، وسأعيد لها نقودها . أما اذا استبقتها، فلهــا ان ترسل ــ فى اى وقت شــاءت ــ فى طلب ما بقى من اوراقها ونقودها . وانى لأرجوها ــ فى الوقت ذاته ــ ان ترد الى ما يكون لديها من اوراقى

« ووداعا يا سيدى .. »

والشجاعة فى المحن ، تلقى الروع فى القلوب الهيابة ، ولكنها تشرح القلوب الكريمة . ويبدو ان هذه الرسالة قد ردت ((سان ـ لامبير)) الى حجاه فندم على ما فعل . ولكنه كان من الاسراف فى الكبرياء، بحيث تعذر عليه ان يقر بذلك صراحة، فلاذ بالصمت ، ولعله كان يعد العدة ليجعل لضربة ـ التى وجهها الى ـ مميتة !.. وان هى الا خمسة عشر يوما ، حتى تلقيت من السيد ديبيناى الرسالة التالية(الملف «ب» الرسالة رقم ١٠) :

((هذا الخميس : ٢٦

((تلقيت ياسيدى ، الكتاب الذى تكرمت بارساله ، وانى لأقراه بغبطة بالغة . وهذا هو الاحساس الذى اعتاد ان يداخلنى دائما، وانا أقرأ كل المؤلفات التى نفثها قلمك. فتقبل جزيل شكرى . ولقد كنت أود ان أقدمه لك شخصيا ، لو ان شئونى سمحت لى بأن أقيم وقتا على مقربة من مقامك، ولكننى قل ان نزلت بلاشيفريت فى هذا العام .

« ان السيد والسيدة دوبان قادمان لتناول الغداء عندى ، يوم الأحد القادم . كما أتوقع ان يكون بين الحضور السيدان دى سان ـ لامبير ، ودى فرانكويى ، والسيدة دوديتو . ولسوف يكون من دواعى غبطتى حقا، أن تكون بيننا ياسيدى. ان كل الذين سيكونون فى دارى ، يرغبون فى وجودك ، وسوف يغتبطون بأن يشاطرونى متعة قضاء بعض اليوم معك .

« وانه ليشرفني ان اكون ، مع اكمل التقدير ... الخ »

وأخذ قلبى يدق بعنف مروع، من جراء هذا الخطاب. ذلك لأن فكرة الظهور أمام السيدة دوديتو ـ بعد ان كنا حديث باريس عاما بأكمله ـ جعلتنى ارتجف ، ولا أكاد أجد الجرأة الكافية على ان أواجه هذا الاختبار . ومع ذلك ، فقد كان سان ـ لامبير راغبا فى ذلك ، وقد تكلم ديبيناى نيابة عن كل ضيوفه ، ولم يكن بينهم من لا أغتبط بلقائه .. ومن ثم فاننى

انتهيت الى اننى لن أكون ـ من كافة الاعتبارات ـ متطفلا ، اذ قبلت دعوة الى الغداء ، كنت مدعوا اليها من كافة الضيوف . ولهذا فاننى وعدت بالحضور . وكان يوم الأحد سيء الطقس، فأرسل السيد ديبيناى عربته لتقلنى . فذهبت !

* * *

• واثار وصولى عاصفة من المشاعر الطيبة ، فما قدر لي يوما ان احظى باستقبال يفوق هذا مودة وحفاوة . حتى ليمكن القول بأن القوم كانوا يشعرون بمدى حاجتى الى يشرح صدرى . ولا تدرى سوى القلوب الفرنسية مثل هذ الألوان من العواطف . على اننى وجدت أناسا أكثر مما كنت اتوقع ، بينهم الكونت دوديتو ـ الذى لم أكن قد تعرفت عليه قط ـ واخته السيدة دى بلينفيى ، التى كنت أرجو أن أعفى من مقابلتها . **وكانت قد وفدت على (اوبون) مرات عديدة، في العام السابق ، وكانت زوجة أخيها تتركها تحرق الارم غيظا عندما كنا ننطلق فى نزهاتنا الخلوية وحيدين . ومن ثم فقد تولاها نحوى نفور راحت ترضيه ـ أثناء المأدبة ـ على هواه .. فمن الممكن حدسه ، انوجود الكونت دوديتو وسان ـ لامبير لم يكن مبعث طرب لى، وان الرجل الذى تتولاه الحيرة والحرج ـ فى مثل هذه المناسبات ـ لايستطيع ان يتألق فيها بسهولة** .. ابدا ما عانيت مثل ما عانيت اذ ذاك، ولا اكفهر محياى كما اكفهر فى هذه المناسبة ، ولا تعرضت لحملات لم تكن متوقعة كتلك التى تعرضت اليها من هذه السيدة .

وعندما غادرنا المائدة اخيرا، ابتعدت عن هذه المراة السليطة، وسرنى انرايت سان ـ لامبير والسيدة دوديتو يسعيان نحوى فظللنا شطرا من فترة ما بعد الظهر ، نتجاذب الحديث فى مسائل لم تكن ذات بال ، فى الواقع ، ولكنها أتاحت لنا عبق الألفة التى كانت بيننا قبل طيشى . ولم يغفل قلبى قط هذا

الود ، ولو ان سان ــ لامبير استطـاع ان يطلع على دخيلتى ، لاطمأن الى ذلك يقينـا . وبوسعى أن أقسم انه بالرغم من ان مرأى السيدة دوديتو ــ عند وصولى ــ قد أثار ضربات قلبى فى عنف بالغ ، حتى اوشكت ان أفقـد وعيى ، الا اننى لم أكد أفكر فيها ــ عندما انصرفت ــ اذ شغلت عنها بسان ــ لامبير !

وبالرغم من السخريات الخبيثة ــ التى صدرت عن السيدة دى بلينفيى ــ الا ان هذه المأدبة شرحت صدرى ، فرحت أهنىء نفسى بحرارة على اننى لم أرفض الدعوة . **فلقد تبينت هناك ان دسائس جريم وعصبة دولباخ ، لم تشتت أصدقائى القدامى عنى (١) . وليس هذا جل ما تبينت ، بل ان مشاعر السيدة دوديتو وسان ــ لامبير لم تتحول كما كنت أتوقع .. واستطعت ان أفهم ــ أخيرا ــ ان البعاد الذى حجب السيدة دوديتو عنى ، كان مرده الى الغيرة ، أكثر مما كان الى نقص فى تقديرها اياى . ولقد وجدت فى هذا عزاء وتسرية !..** ذلك لأن اطمئنانى الى اننى لم أكن موضع احتقـار لدى اولئـك الذين كنت اعتز بهم ، كان يمكننى من ان افرض سيطرتى على قلبى بكثير من القوة والتوفيق . واذا كنت لم اوفق الى ان اخمـد تماما ــ فى هذا القلب ــ هوى آثما ومنحوسا ، فاننى استطعت ، ان أسيطر على هـذا الهوى وان أرمضـه ، على الأقل ، فلم يدفعنى ــ منـذ ذلك الحين ــ على ان أرتكب خطأ واحدا . ولاتزال اعمال النسخ ــ التى اغرتنى السيدة دوديتو باستئنافها لحسابها ــ ومؤلفاتى ، التى واصلت ارسالها اليها عند ظهورها .. لاتزال هـذه وتلك ، تأتينى منها ــ بين الحـين والحين ــ برسائل ومذكرات ، قد لاتكون ذات قيمة ، ولـكنها باعثة على الرضى .. بل انهـا ذهبت الى أبعد من ذلك ــ كمـا سيتبين فيما بعد ــ وان المسلك المتبـادل بين ثلاثتنا ، بعد ان انقطع

---

(١) عقب « روسو » على هذا بقوله : « ولقد كان هذا ما ظللت أومن به ــ بسذاجة قلبى ــ حتى كتابة الاعترافات »

اتصالنا ، ليقوم مثالا على الطريقة التى يفترق بها اهل الشرف، عندما يصبح من المستحب ان لايلتقوا !

وهناك نفع آخر افدته من هذه المأدبة . ذلك هو انها صارت حديث باريس، واتخذت كدليل قاطع يدحض الشائعة انتى كان أعدائى قد روجوا لها فى كل مكان ، عن اننى كنت على أشد الخصام مع اولئك الذين حضروها جميعا، لاسيما السيد ديبينــاى بالذات !.. وكنت قــد كتبت له ــ عنــد مبارحة (ليرميتاج) ــ رسالة شكر جد مهذبة، أجاب عنها بأدب مماثل، ولم تنقطع بيننا المجاملات المتبادلة، سواء بينى وبينه ، أو بينى وبين السيد « دى لاليف » ــ شقيقه ــ الذى كان يفد الى (مونمورنسى) لزيارتى، ويبعث الى بصوره. وفيما عدا زوجتى شقيقى السيدة دوديتو ، لم أكن يوما على علاقة سيئة بأحد من الأسرة

☆☆☆

. **ولقد** حظى مقالى الموجه الى «دالمبير» بنجاح عظيم. ولقد كان هذا شأن مؤلفاتى جميعا ، ولكن هذا المقال بالذات ، كان أحبها الى نفسى، اذ أنه نبه الرأى العام الى عدم الثقة بتخرصات عصبة دولباخ . فعندما انتقلت الى (ليرميتاج) ، تنبأوا ــ باعتدادهم المأثور ــ بأننى لن استطيع بقاء هناك ، لأكثر من ثلاثة أشهر . حتى اذا رأونى أمكث هناك عشرين شهرا ، ثم اظل ــ بعد ان اضطررت الى مبارحته ــ فى الريف ، راحوا يتشدقون بأن هذا لم يكن سوى مجرد عناد محض ، واننى قد ضقت ــ الى حد الموت ــ بعزلتى ، ولكن الغرور والكبرياء كانا يغريان قلبى، ويجعلاننى اوثر الموت هناك ــ ضحية العناد ــ على أن أرجع عن رأيى واعود الى باريس . **ولكن رسالتى الى «دليمبير» جاءت عبقة بأنفاس روح وادعة ، فى غير اصطناع . ولو اننى كنت أعانى النكد فى عزلتى ، لبــدا هذا ملموسا فى**

لهجتى ، كما كان يبدو جليا فى جميع ما كنت قد كتبت ابان اقامتى فى باريس . . ولكن هذه الروح اختفت فى اول مؤلف وضعته فى الريف . وقد كانت هذه الظاهرة برهانا قاطعا لدى القادرين على الملاحظة . اذ رأوا – فى مقالى – اننى عدت الى طبيعتى !

ومع ذلك ، فان هذا المقال – المفعم باللطف – قد جلب لى عدوا جديدا فى عالم الأدب ، من جراء غفلتى وسوء طالعى المعهود ! . . ذلك اننى كنت قد تعرفت – لدى السيد ديلا بوبلينيير – على « مارمونتيل » ، ثم توثق هذا التعارف لدى البارون . وكان مارمونتيل يتولى – اذ ذاك – تحرير صحيفة « ميركور دى فرانس » . ولما كنت أربأ بنفسى ان أرسل مؤلفاتى الى أولئك الذين يكتبون للصحف ، ومع ذلك فقد كنت راغبا فى ان أرسل هذا المؤلف بالذات الى مارمونتيل ، دون ان أشعره بأنه موجه اليه كمحرر ، أو لكى يتحدث عنه فى صحيفته ، فقد كتبت على النسخة التى ارسلتها اليه ، انها غير موجهة الى **« محرر الميركور »** ، وانما الى **« السيد مارمونتيل »** . وظننت اننى بذلك كنت اقدم له مجاملة لطيفة ، ولكنه – كما بدا – رأى فيها اهانة بالغة ، فأصبح عدوا لاتهدأ لخصامه سورة . وكتب ضد مقالى مقالا مؤدبا ، ولكن أسلوبه لم يخل من غل ملموس . ومن ذلك الحين ، لم يدع فرصة تمر دون أن يطعننى فى المجتمع ، او ان يسىء الى – فى مؤلفاته – اساءة غير مباشرة . . الى هذا الحد يتعذر ترويض انانية اهل الأدب ، والى هذا الحد يجب ان يكون المرء على حذر فيما يوجهه اليهم من مجاملات ، فلا يدع أى شىء يمكن ان يؤول على غير معناه !

سنة ١٧٥٩

• **اما** وقد غدوت مطمئنا ، من كل جانب ، فقد رحت

استغل فراغى وحريتى فى استئناف اعمالى الأدبية بمزيد من الانتظام . فأتممت ــ فى ذلك الشتاء ــ « جولى » ، وارسلتها الى «ريه» الذى اتم طباعتها فىالعام التالى . غير ان انصرافىالى العمــل ، لم يلبث ان اضطرب من جــراء حادث تافه ، ولكنه مكدر. فلقد علمتان الاستعداد كان يجرى فى«الأوبرا»لعرض « عراف القرية » من جديد ، وغاظنى ان وجدت اولئك القوم يتصرفون فى انتاجى ، دون اكتراث بى ، فعدتالى المذكرةالتى كنت قد ارسلتهــا ــ يوما ــ الى السيد دارجنسون (١) ولم أتلق عنهــا جوابا ، فنقحتهــا ، وارسلتهــا عن طريق السيد « سيلون » ، مع خطاب تكرم بأن يعنى بتسليمــه الى السيد الكونت « دى سان ــ فلورنتان » ، الذى كان قد خلف السيد دارجنسون فى ادارة دار «الاوبرا» . **ولقد تحدث ((ديكلو)) ــ اذ انبأتهبما فعلت ــ الى ((الكمانين الصغيرين)) (٢) بهذا الشأن، فعرضا عليه ان يعيدا الى ، لا أوبراى ، وانما التصريح بدخول الدار دون مقــابل ، وهو ما لم يكن ذا نفع لى . واذ رأيت انه لا أمل لى فىأى انصاف، فقد تخليت عنالمسألة كلها . وواصل المشرفون على ادارة ((الاوبرا)) استغلال ((عراف القرية)) وفق هواهم ــ وكأنها ملك خاص لهم ــ ويجنون منها الأرباح ، دون ان يعنوا بالرد على احتجاجاتى ، او ينصتوا اليها ، مع ان هذه ((الاوبرا)) ملك لى وحدى ، دون منازع (٣) .**

ومذ نفضت عن نفسى ربقة الطغاة الذين اوسعونى جورا ، رحت اعيش حياة سهلة ، مسترسلة ، وادعة ، وقــد حرمت من فتنة علاقتين من أقوى العلاقات العاطفية ، وتحررت من

---

(١) ذكرت الرسالة وظروفها فى صفحة ١٧٦ (٦٣٠) ــ الجزء الثالث

(٢) انظر صفحة ١٦٠ (٦١٤) ــ الجزء الثالث

(٣) اضاف « روسو » الى هذه الفقرة التعقيب التــالى : « اعترف بأن كل ما استطعت ــ منذ كتابة هذا المؤلف ــ أن أتبينه خــلال المعميات الغامضة ، التى تحيط بى ، يجعلنى اخشى ان لا أكون قد عرفت ديدور حق المعرفة » !

اغلالهما الثقيلة . ولفرط مقتى للأصدقاء « الحماة » ، الذين كانوا يظهرون رعايتهم لى ، لمجرد الرغبة فى ان يوجهوا مصيرى وفق هواهم ، وان يجعلونى ـ على الرغم منى ـ أسير أفضالهم المزعومة ، عقدت العزم ، على ان اقصر علاقاتى ـ فى المستقبل ـ على مجرد حسن النية والود الخالص ، الذى يضفى على الحياة بهجة ـ دون ان يفرض اية قيود على الحرية التامة ـ والذى يقوم على اساس المساواة الكاملة !.. **ولقد كان لدى من هذا النوع من العلاقات قدر كاف لأن يمكننى من ان أتذوق متعة الجماعة والايناس ، دون ان اكون مضطرا الى ان أعتمد عليها اعتمادا يحد من استقلالى .** وما ان جربت هذا الأسلوب من اساليب الحياة ، حتى شعرت بأنه أنسبها لسنى ، ولأقضى الايام الباقية من عمرى فى سلام ، بعيدا عن الأنواء ، والخلافات ، والمضايقات ، التى كدت أغرق فى حمأتها ، فى الفترة الأخيرة .

* * *

• **وكنت** خلال اقامتى فى (ليرميتاج) ، ومنذ ان استقر بى المقام فى (مونمورنسى) قد عقدت صلات تعارف مستحبة ، فى المنطقة لم تكن تفرض على اية التزامات . وعلى راس هؤلاء المعارف « لويزو دى موليون » الشاب ، الذى كان لايزال فى بداية عمله كمحام ، وعلى جهل بالمركز الذى كان موشكا ان يشغله . ولم تكن لدى من الهواجس مثل ما تولاه ، فرحت أبين له الحياة العملية الموفقة ، التى ينعم بها اليوم . **وتنبأت له بأنه اذا حرص أشد الحرص على تخير قضاياه ، واذا هو تشبث دائما بالدفاع عن الحق والفضيلة ، فان هذه المشاعر السامية لن تلبث ان تصقل نبوغه ، وتجعله فى مصاف كبار المحامين والخطباء . ولقد تبع نصحى ، وانه ليحظى اليوم بالنتيجة .** ولقد كان دفاعه عن السيد « دى بورت » ، خليقا بأن يعادل ما كان يصدر عن الخطيب الاغريقى «ديموستين»!..

وكان يفد لقضاء عطلته من كل عام ، فى (سـان ــ بريس) ــ على اربعـة فراسخ من ليرميتاج ــ فى ضيعة آل موليون التى كانت تمتلكها أمه، والتى عاش فيها من قبل (بوسيويه)العظيم . وهى ضيعة ادى تعاقب امثال هؤلاء الملاك عليها ، الى تعـذر بقاء أسرة اقطاعية على أرضها !

وكان لى فى القـرية ذاتها ــ (سـان ــ بريس) ــ صديق آخر، هو الكتبى جيران .. وكان رجلا موهوبا، مطلعا ، لطيفا، وفى أرقى مصاف أبناء مهنته. ولقد تعرفت بفضله الى « جان نياولم »، وكان صديقا له من باعة الكتب، على تراسل مستمر معه. وهو الذى نشر كتابى «اميل»، فيما بعد . وعلى مسافة أدنى من « سـان ــ بريس » ، تعـرفت الى راعى كنيسـة (جروسلى) ــ السيد مالتور ــ الذى كان يصلح لأن يكون وزيرا ومن رجال الحكم ، منه لأن يكون خوريا لكنيسة احدى القرى .. أو كان جديرا ــ على الاقل ــ بأبرشية يديرها ، اذا قدر للمواهب ان تحدد مراكز الرجال !.. **ولقد كان يوما سكرتيرا للـكونت « دولوك » ، وعرف جان بابتيست روسو معرفـة وثيقة .وكان مفعم النفس بالتقدير لذكرى هذا الشاعر الجليل ــ الذى قدر له ان يقصى عن موطنه ــ بقدر ماكان ملىء القلب بالمقت لذلك الوغد (سورانى) الذى كان سببا فى القضاء على ذلك الشاعر ..** وكان الخورى يعرف عددا من النوادر الطريفة عن كل منهما ، لم يذكرها «سيجاى» فى سيرة الشاعر ، التى لم تنشر بعد . ولقد اكد لى السيد مالتور أن الكونت دولوك لم يجد يوما سبيلا الى الشكوى منه ، بل انه ظل يكن له صداقة حـارة الى آخر أيام حياته . ولقد منح السيد دى فانتميـل الخورى منصبه المريح ــ بعد وفاة مخدومه السابق ــ ليعيش فى عزلة هادئة . وقد روى لى انه استخدم ــ قبل ذلك ــ فى كثير من الاعمال ، ظل ــ رغم تقدم سنه ــ يحتفظ بذكريات واضحة لها ، وكان يحدثنى عنها بلهجة تنم عن حكمة وحصافة.

وكان حديثه مفيدا بقدر ما كان مسليا ، لا يوحى الى المرء قط بعقلية « خورى » القرية ، وكان يجمع بين دراية الرجل الخبير بالدنيا ، وشوق الطالب الراغب فى التعلم . ولقد كانت صحبته هى أحب صحبة الى بعض المقيمين فى المنطقة من جيرانى . وقد فارقته وفى نفسى أبلغ الأسف لذلك .

وتعرفت فى مونمورنسى الى اعضاء هيئـة الوعظ ، ومنهم الأب « بيرتييه » الذى كان استاذا فى العلوم الطبيعية ، والذى توثقت صلتى به ـ رغم لمحة من الاختيال بعلمه فى خلقه ـ لما لمسته فيه من طيبة . على اننى وجدت عناء فى محاولة التوفيق بين سذاجته المسرفة ، وبين تحايله على أن يزج بنفسه فى كل مكان .. فى دور العظماء ، وبين النساء ، ولدى الاتقياء ، وفى أوساط الفلاسفة . كان يعرف كيف يرضى أهواء جميع الناس ! .. ولقد وجدت متعة بالغة فى صحبته ، ورحت أتحدث عنـه الى كل انسان ، ومن الجلى ان كل ما كنت أقوله عنه ، قد نمى اليه . فقد شـكرنى ذات يوم ، مبتسما ، لأننى كنت اعتبره رجلا طيبا . ولمحت فى ابتسامته لونا من اللؤم بدل سحنته ـ فى نظرى ـ تبديلا تاما ، ولا تزال هذه الابتسامة تتمثل فى ذاكرتى احيانا ، منذ ذاك الحين . ولست املك ان اصورها بأكثر من انها ابتسامة « بانورج » وهو يبتاع اغنام « داندينو » . ولقد بدأ تعارفنا عقب وصـولى الى (ليرميتاج) بوقت قصير ، ثم أخذ يكثر من التردد على الدار لزيارتى بعد ذلك .

وكنت قد استقررت فى مقامى فى (مونمورنسى) ، عندما رحل الأب « بيرتييه » الى باريس ، ليقيم فيها . وهناك ، اخذ يلتقى بالسيدة لوفاسير فى كثير من الأحيان . وقد كتب لى ذات يوم ـ كان فيه ابعد الناس عن ذهنى ـ يطلعنى ، على لسان هذه المرأة ، على ان « جريم » عرض عليها ان يعولها ، ويستأذننى باسمها فى قبول هذا العرض . وعلمت ان جريم عرض عليها معاشا قدره ثلاثمائة ليبرة ، على شريطة ان تذهب

لتقيم فى (دويى) ، بين (لاشيفريت) و (مونمورنسى) .
ولست بحاجة الى ان اذكر وقع هذا النبأ على نفسى .. لقد أثار دهشة تفوق ماإو علمت ان ((جريم)) اوتى دخلا قدره مائة ألف ليبرة ، أو أنه انشأ علاقة غير شريفة مع هذه المرأة ! .. وكأنه لم يعتبره اجراما منى ان اصطحب هذه المرأة الى ذات الريف الذى يميل الآن الى اعادتها اليه .. او كان السن رجعت بها القهقرى منذ اثار هذا الاتهام !

وادركت ان العجوز الماكرة ما كتبت تسألنى الاذن ـ وهى التى لم تكن تتورع عن ان تغض البصر عنه اذا ما رفضت ـ الا لكى تتفادى ان تفقد ما كنت امنحها اياه من ناحيتى . ومع ان هذا التطوع للخير ـ من جانب جريم ـ بدا غير عادى فى عينى ، الا انه لم يشغلنى اذ ذاك ، بقدر ما شغلنى فيما بعد . على انه او قدر لى حينذاك أن اعرف كل ما عرفت بعده ، لما أحجمت عن ان اعلنها بموافقتى ـ كما فعلت اذ ذاك ـ مالم اكن على استعداد لأن اعوضها عما عرضه عليها « جريم » !

ومنذ ذلك الحين ، ابرأنى الاب « بيرتييه » من الاغترار بطبيعة الامر الذى بدا له عجبا ، حين صارحته به فى غباء !

* * *

• **كان** هذا الأب « بيرتييه » بالذات ، على معرفة برجلين ، كانا بدوريهما ينشدان التعرف الى ، دون أن أدرى لذلك داعيا ، اذ لم يكن ثمة تقارب يذكر ـ فى الواقع ـ بين ميولهما وميولى . ذانك هما ابنا « ميلشيسيديك » اللذان لم يقدر لأحد ان يعرف وطنهما ، ولا اسرتهما ، بل ـ وربما ـ لقبهما الحقيقى . وكانا من «اليانسيين» (١) وقد اخذهما القوم على انهما راهبان مستخفيان ، ولعل ذلك كان راجعا الى عادتهما التى كانت

---

(١) « اليانسيون » أتباع مذهب دينى ، ورد شرحه فى الجزء الأول من « الاعترافات »

داليمبير

تعرضهما للسخرية .. عادة حمل سيفين طويلين ، كانا يتشبثان بهما . **وكانت السرية الضافية التى راحا يسبغانها على كل تصرفاتهما ، تكسبهما مظهر زعماء الاحزاب او الشيع ، ولم نشك قط فى انهما هما اللذان كانا يصدران ((الجازيت اكليسيا ستيك)) ، الصحيفة الدينية .**

وكان احدهما فارع القامة ، بشوشا ، متملقا ، يدعى السيد ((فيرو)) .. اما الآخر ، فكان قلة فى الجسم ، ربعة القوام ، ساخرا ، كثير الجدل فيما لا طائل منه ، ويدعى السيد ((مينار)) .

وكان كل منهما ينادى الآخر بيا « ابن العم » . وكانا يقيمان فى باريس مع « داليمبير » ، فى بيت مربيتـــه ، وقد اتخـذا فى (مونمورنسى) بيتا صغيرا ، راحا يقضيان فيه فصل الصيف من كل عام ، وكانا يدبران شئون بيتهما بنفسيهما ، دون خدم ولا حشم . وكانا يتناوبان اسبوعيا الذهاب الى الســوق ، والطهو ، وكنس البيت . وفيما عدا ذلك ، كانا يعيشان ناعمين، وكنت اتناول الطعام على مائدتهما ، ويتناولانه على مائدتى ، فى بعض الأحيان . ولست ادرى السر فى انهما كانا يشغلان بى ، فى حين اننى لم اكن احفل بهما الا لأنهما كانا يهويان الشطرنج

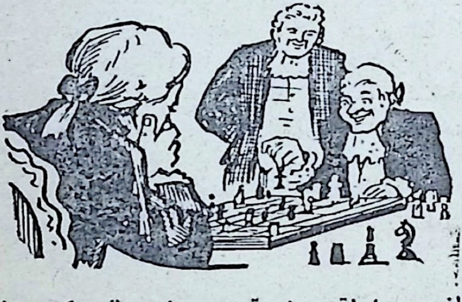

.. ولكى اظفر بمباراة صغيرة ، متواضعة ، كنت احتمل اربع ساعات مضجرة . ولمـا كانا يسعيان الى ان يدسا انفيهما فى كل شىء ، فان «تيريز» اطلقت عليهما اسم « الثرثارين »، وقد لصق بهما هذا الاسم فى (مونمورنسى) .

هؤلاء ، مع السيد متى ـ صاحب بيتى ، الذى كان رجلا وقورا ـ كانوا أهم معارفى فى الريف . وكنت لا ازال احتفظ بعدد كاف فى باريس ، لكى آنس الى الحياة هناك ـ كلما طاب لى ذلك ـ خارج نطاق وسط الأدباء ،حيث لم اكن أعول على صديق سوى « ديكلو » وحده ! .. فقد كان « ديلير » لا يزال جد صغير السن بالنســبة لى . ومع انه لم يلبث ـ اذ عرف عن

كتب الدساسين ضدى من العصبة الفلسفية ـ ان نأى بنفسه تماما عن هذا الوسط ، أو هكذا ظننته ، على الاقل .. ولم اكن قد استطعت بعد أن انسى سهولة مبادرته الى جعل نفسه بوقا لكل اولئك المتآمرين !

وكنت لا ازال احتفظ ـ فى المكانة الأولى ـ بصديقى القديم المحترم السيد « روجان » . وهو من اصدقاء الايام الطيبة ، الذين لا ادين بمعرفتهم لـكتاباتى ، وانما لشخصى . ولهـذا السبب استطعت ان احتفظ به دواما . وكان من اصدقائى ايضا ، مواطنى الشيخ الطيب « لينييب » ، وابنته السيدة « لامبير » ، التى كانت اذ ذاك ارملة . وهناك ـ كذلك ـ شاب من (جنيف) يدعى « كواندیه » ، كان فتى طيبـا ـ كما بدا لى ـ مجتهـدا ، خدوما ، ذا حمية .. بيـد انه كان جاهلا ، متواكلا ، شرها ، نفعيا . **وقد جاء ـ منذ البداية ـ لزيارتى فى (ليرميتاج) ، وبدون دعوة ـ اللهم الا من نفسه ـ استقر فى بيتى ، بالرغم منى . وكان على ميل للرسم ، وعلى معرفـة بأهل الفن . وقد افدت منه فى رسوم ((جولى)) ، فآلى على نفسه أن يشرف على الرسوم واللوحات ((الـكليشيهات)) ، وقد ادى هذه المهمة خير أداء .**

وكان لدى ـ فوق ذلك ـ بيت السيد دوبان ، الذى غدا أقل بهاء ، مما كان فى انضر ايام السيدة دوبان (ايام شبابها) والذى ظل من خيرة الدور الباريسية بفضل مواهب سادته وخلالهم ، وبفضل الصفوة التى كانت تتردد عليه . ولما كنت قد اعتدت ان افضلهم على من عداهم طـرا ، ولم اهجرهم الا لكى أعيش طليقا ، فانهم لم يكفوا قط عن ان يرمقونى بعـين الود ، وكنت واثقا من حفـاوة السيدة دوبان بى فى جميـع الأوقات . بل اننى استطيع اعتبارهـا من جاراتى فى الريف ـ كذلك ـ منذ اقاموا دارا فى (كليشى) ، اعتـدت ان اقضى فيها يوما او يومين ـ فى بعض الاحيان ـ وكنت خليقا بأن اكثر

من التردد عليها ، لو ان السيدة دوبان والسيدة شينونسو كانتا تعيشان على مزيد من الوئام . ولكن تعذر توزيع اهتمام المرء بين امرأتين لاتنسجمان معا ، جعلنى اضيق كثيرا بكليشى. ولما كنت مرتبطا بالسيدةشينونسو بود اكثر يسرا واشد ألفة ، فاننى كنت احظى بمتعة رؤيتها – وانا اكثر ارتياحا في (دويى) ، التى كانت جد قريبة من مسكنى ، حيث كانت قد استأجرت دارا صغيرة .. كما كنت أسعد برؤيتها فى دارى ، حيث اعتادت ان تأتى لزيارتى فى كثير من الاحيان

كذلك كان بين معارفى فى باريس السيدة دى كريكى ، التى اوغلت فى التعبد والتدين ،وكفت عن لقاء داليمبير ومار مونتيل ومن على شاكلتهما ، ومعظم اهل الادب ، اللهم الا الأب تروبليه – على ما اعتقد – الذى كان فى ذلك الحين شبه مراء متملق ، حتى انها لم تلبث أن ضاقت به. اما انا ، فكانت تنشد صحبتى، ولم تفقد ودها نحوى ، بل ظلت دائما على تراسل معى . وقد ارسلت لى بعض دجاج (لومان) السمين ، كهدية فى رأس السنة . كما كانت تعتزم ان تفد لزيارتى فى العام التالى ،عندما افسدت عليها خطتها رحلة قامت بها السيدة دى«لوكسمبرج» فى الوقت ذاته . وانى لأحتفظ لها فى نفسى بمكانة خاصة ، ولسوف تظل ذات مقام ممتاز فى ذاكرتى على الدوام

* * *

• وكان لدى صديق ، جدير بأن اجعله فى مقدمة الجميع اللهم الا روجان . ذلك هو زميلى وصديقى القديم « كاريو » ، الذى اصبح السكرتير الاسمى للسفارة الاسبانية فى البندقية ، ثم فى السويد ، حيث عينه بلاط بلاده قائما بالأعمال ، ثم عين سكرتيرا اصليا لسفارة بلاده فى باريس . ففاجأنى بزيارة فى (مونمورنسى) ، فى وقت كنت فيه ابعد ما اكون عن ان اتوقعه. وكان يتقلد وساما اسبانيا – نسيت اسمه – ذا صليب بديع

مرصع بالاحجار الكريمة . وكان مضطرا الى ان يضيف الى اسمه ـ فى وثائق النسب ـ حرفا آخر ، فأصبح يحمل اسم « الشيفالييه دى كاريون » . **ولقد وجدته على ما عهدته عليه دائما : عين القلب الرائع ، والعقل الذى يزداد لطفا وسحرا يوما بعد يوم . . وكنت خليقا بأن أعاود ألفتى معه ، كما كنا من قبل ، أولم يدخل « كوانديه » بيننا ـ كعهده ـ فينتهز بعدى عن باريس ، ليتسلل ـ باسمى ـ الى مكانى منه ، ويغدو موضع ثقته ، ويسلبنى وده فى تحمسه لخدمتى !**

وتعيد ذكرى « كاريون » الى ذهنى ذكر احد جيرانى فى الريف ، كنت خليقا بأن اذنب اشنع ذنب لو اننى اغفلت الحديث عنه ، لا سيما واننى مسوق الى ان اعترف بخطأ لا يغتفر نحوه . ذلك هو السيد الكريم « لوبلون » ، الذى أدى لى كثيرا من الخدمات فى البندقية ، والذى جاء فى رحلة الى فرنسا ـ مع اسرته ـ فاستأجرا دارا ريفية فى (لابريش) ، التى لم تكن تبعد كثيرا عن (مونمورنسى) . وما ان عرفت انه جارى ، حتى خفق قلبى طربا ، ورأيت أن أزوره بدافع من سرورى ، أكثر مما كان ذلك بدافع من الواجب . وذهبت لذلك فى اليوم التالى مباشرة ، واذا بى التقى بأناس كانوا قادمين لزيارتى . فاضطررت الى العودة معهم . وبعد يومين ، سعيت اليه مرة ثانية ، فوجدته يتناول غداءه فى باريس مع اسرته (١) . وذهبت مرة ثالثة ، فاذا به فى داره ، وسمعت اصوات نساء ، ورأيت لدى الباب عربة ازعجتنى . اذ كنت اود ان اقابله ـ دون دخيل ولو فى المرة الاولى ، على الأقل ، لأتكلم معه عن علاقاتنا القديمة . **وموجز القول ، اننى رحت ارجىء زيارتى يوما بعد آخر ،**

---

(١) أضاف « روسو » الى هذه العبارة ، التعقيب التالى : « كنت عند كتابة هذا ، مفعما بثقتى القديمة العمياء ، ابعد ما اكون عن ان ارتاب فى السبب الحقيقى لهذه الرحلة الى باريس ، وفى نتائجها » .

حتى منعنى حيائى من التقصير ــ طيلة هذه المدة ــ فى تحقيق هذا الواجب ، من ان أؤديه اطلاقا . فكان اقدامى على الانتظار طويلا ، سببا فى ان لا اجرؤ ــ فى النهاية ــ على ان اظهر نفسى. ولقد أدى هذا الاهمال ــ الذى لم يكن السيد لوبلون يملك سوى ان يستنكره ، عن حق ــ الى ان جعل تخاذلى يبدو جحودا. ومع ذلك فاننى لم اشعر ــ فى قرارة فؤادى ــ بأى تثريب.. ذلك لأننى لو كنت قادرا على ان اتيح للسيد لوبلون اى سرور حقيقى ــ وان لم يكن على علم به ــ فانه ما كان ليجدنى ، فى يقينى ، متكاسلا . ولكن الخمول ، والاهمال ، والتهاون فى اداء الواجبات التافهة ، كثيرا ما كانت ابلغ اساءة الى ، بل من اعظم الرذائل . كانت ابشع اخطائى تتمثل فى التغاضى ، فنادرا ما كنت افعل مالم يكن ينبغى ان افعله ، واندر من ذلك ــ لسوء الحظ ــ اننى لم اكن افعل ما يجب فعله !

* * *

• وما دمت قد عدت الى المعارف الذين ظفرت بهم فى البندقية ، فخليق بى ان لا انسى علاقة تتصل بهم ، وقد دامت امدا اطول من بقية العلاقات . واقصد علاقتى بالسيد دى « جونفيى » ، الذى ظل ــ منذ عودته من (جنوا) ــ يواصل ابداء كثير من الود نحوى . وكان شديد الشغف بلقائى ، وبالحديث عن المسائل والشئون الايطالية ، وعن حماقات السيد دى مونتيجى ، التى عرف ــ من ناحيته ــ بعض نوادرها ، عن طريق وزارة الخارجية ، التى كانت له بها كثير من الصلات . ولكم سررت اذ التقيت فى داره بزميلى القديم ((دوبون)) ، الذى كان قد حصل على منصب فى اقليمه ، وكانت شئونه تحمله الى باريس من آن الى آخر .

ولقد اخذ السيد جونفيى يزداد الحاحا فى لقائى ، شيئا فشيئا ، حتى اصبح مصدر ازعاج لى . ولما كنا نقيم فى حيين

متباعدين ، فقد بات يثير ضجة بيننا ، اذا انقضى اسبوع كامل دون ان اذهب فأتناول الغداء لديه وكان اذا ذهب الى ضيعة (جونفيى) ، يسعى دواما الى اصطحابى ، ولكننى بعد أن قضيت هناك ثمانية ايام ـ ذات مرة ـ شعرت بأنها لا تكاد تنصرم ، لم اعد اجد رغبة فى العودة اليها . ولقد كان السيد جونفيى رجلا كريما ، شهما ـ بكل تأكيد ـ كما كان لطيفا فى نواح خاصة ، ولكنه كان محدود الذكاء .. وكان جميلا ، مزهوا بشكله الى حد ما ، وباعثا على الضجر .. **وكانت لديه مجموعة فريدة فى نوعها ، بل لعلها كانت وحيدة فى العالم ، فكان جد مشغول بها ، وكان يشغل بها ضيوفه الذين كانوا يجدونها ـ احيانا ـ اقل تشويقا مما كان يجدها هو . تلك كانت مجموعة جد كاملة من اغانى البلاط الملكى ، والاغانى الباريسية ـ منذ اكثر من خمسين عاما ـ توجد بينها كثير من الطرائف ، التى كان من المستحيل على الباحث أن يعثر عليها فى اى مكان آخر .. وانها لذكريات فى تاريخ فرنسا ، نادرا ما تخطر بالبال لدى كافة الأمم الأخرى !**

وفى ذات يوم ـ وقد كنا فى اوج وئامنا ـ استقبلنى استقبالا باردا ، جليديا ، لايماثل مسلكه العادى ، حتى اننى بعد ان أتحت له فرصة ليشرح هذا المسلك ـ بل وسألته ايضاحا ـ فلم يفعل ، خرجت من داره وقد قر عزمى على ان لا اضع قدمى فيها مرة اخرى ، اذ اننى لا اشاهد ثانية ـ على الاطلاق ـ حيث اكون قد حظيت باستقبال سيء مرة .. ولم يكن هنا ديدرو يشفع للسيد دى جونفيى . ولقد ارهقت عقلى عبثا ، كى اتبين اى ذنب يحتمل ان اكون قد ارتكبته نحوه ، اذ اننى لم استطع ان اتذكر شيئا . وكنت موقنا من اننى لم اتحدث قط عنه أو عمن يمت اليه ، الا باحترام كبير ، اذ اننى كنت صادقا فى ودى له . وبجانب اننى لم اكن أملك ما أقوله عنه سوى كل خير ، فقد كان من اكثر مبادئى صلابة ، ان لا اتحدث عن

البيوت التى ازورها ، الا فى اجلال وامانة .

واخيرا ، وبعد تخبط ، انتهيت الى الحدس التالى ، ففى آخر مرة التقينا فيها ، دعانى الى العشاء فى مسكن فتيات من معارفه ، مع اثنين او ثلاثة من موظفى وزارة الخارجية ، وكانوا رجالا متزنين ، لايبدو عليهم قط اى فجور او خلاعة .. وبوسعى ان اقسم على اننى ــ من ناحيتى ــ قضيت الامسية فى خواطر حزينة من اجل النصيب التعس الذى اوتيته هؤلاء الفتيات المسكينات . ولم اساهم فى نفقات العشاء ، لأن السيد دى جونفيى كان صاحب الدعوة .. كما اننى لم اهب الفتيات شيئا ، لأننى لم اتح لهن فرصة التكسب منى ، كما فعلت فى واقعة « البادوانا » (١) . وبعد ثلاثة ايام او اربعة ــ لم أزر فيها الفتيات مرة اخرى ــ ذهبت لتناول الغداء فى دار السيد دى جونفيى ، الذى لم اكن قد رأيته منذ تلك المناسبة ، فاذا به يستقبلنى على النحو الذى ذكرته . ولما لم استطع ان اتصور سببا سوى احتمال وقوع سوء تفاهم لأمر ما يتصل بذلك العشاء ، واذ تبينت انه غير راغب فى ان يشرح مسلكه ، فقد انقطعت عن زيارته ، ولكنى ظللت أرسل اليه مؤلفاتى ، فكان يبعث الى ــ احيانا ــ بتحياته .

وفى ذات مساء، قابلته فى غرفة الاستراحة بمسرح « الكوميدى » ، فاذا به يعتب على فى لطف اننى لم اعد أزوره، ولكن هذا لم يحملنى على العودة اليه . وهكذا ، بدا الأمر ــ فى هذه الحالة ــ مجرد احجام اكثر منه قطيعة ! .. على اننى لم اره قط بعد ذلك ، ولا سمعت عنه مزيدا بعد ذلك الوقت . وقد تكون الفرصة جد متأخرة ــ بعد ان انفصمت صلتنا لعدة سنوات ــ لكى نجدد صداقتنا. وهذا هو السبب فى اننى لم اذكر هنا السيد دى جونفيى ، بين الأصدقاء الذين ظللت

---

(١) وردت قصة « البادوانا » فى صفحة ٦٩ (٥٢٣) من الجزء الثالث .

احتفظ بهم فى باريس ، رغم اننى ترددت على داره فترة طويلة

* * *

• على اننى لن أضخم هذه القائمة بأسماء معارف آخرين اقل ألفة ، أو أسماء اولئك الذين قل توثق الفتى بهم تدريجا ، لتغيبى عنهم ، ولو اننى لا ازال اراهم فى الريف أحيانا ، سواء فى دارى أو فى دور جيرانى . ومنهم — على سبيل المثال — الراهبان دى كونديللاك ، ودى مابلى ، والسادة دى ميران ، ودى لاليف ، ودى بواجيلو ، وواتيليه ، وانسيليه ، وغيرهم ممن يطول سرد اسمائهم . كذلك اورد فى ذكر عابر ، السيد دى مارجينسى ، الأمين الخاص للملك ، والعضو القديم فى ندوة دولباخ ، والذى لم يلبث ان هجرها كما هجرتها انا ، وقد كان صديقا حميما للسيدة ديبيناى ، ولم يلبث أن انفصل عنها كما انفصلت أنا .. ثم اذكر صديقه «ديماهى» ، مؤلف المسرحية الفكهة : «السفيه» ، الذى اكتسب شهرة ، ولكنه لم يلبث ان غاب عن الأذهان والاسماع . **ولقد كان الأول — دى مارجينسى — جارا لى فى الريف ، اذ كانت ضيعة (دى مارجينسى) قريبة من (مونمورنسى) . وكنا على تعارف قديم ، ولكن الجوار ، وبعض التشابه فى تجاربنا فى الحياة ، قربا بيننا !** . اما الثانى ، فلم يلبث أن مات بعد تعارفنا بقليل . وكان ذا كفاءة وذكاء ، ولكنه كان يشبه بطل مسرحيته الفكهة ، فى بعض النواحى ، اذ كان ماجنا — بعض الشىء — مع النساء ، ولم يحظ بكثير من الأسف أو الحزن عند موته !

على اننى لا أستطيع أن أغفل علاقة جديدة بالمراسلة — فى تلك الآونة — كان لها من الأثر على ما تبقى من حياتى ، مالا يدعنى أتجاوز ذكر منشأها . واقصد بهذا السيد «دى لاموانيون دى ماليزيرب» ، اول رئيس لمجلس المعونة ، والذى كان — اذ ذاك — رقيبا على الكتب المطبوعة ، وقد ادى مهمته بكثير

من الحصافة وسعة الافق واللين ، فكان مصدر ارتياح كبير لرجال الأدب . ولم أكن قد زرته قط فى باريس، ولكننى كنت القى منه كثيرا من التيسيرات الجديرة بالتقدير ، فيما يتعلق بالرقابة .. وقد علمت أنه فى أكثر من مناسبة ، كان يؤنب - فى قسوة - أولئك الذين اعتادوا ان يكتبوا ضدى . ولقد وقعت على أدلة جديدة على كرمه واغضائه ، بالنسبة لنشر «جولى» . فان ارسال « بروفات » مؤلف ضخم كهذا من «امستردام» - حيث كان يطبع - كانت باهظة . ومن ثم فانه سمح بان ترد باسمه هو ، اذ كانت المراسلات الموجهة اليه معفاه من رسوم البريد . فكانت «البروفات» ترسل باسمه ، فيبعث بها الى دون نفقات كذلك ، بفضل والده السيد حامل الاختام . وعندما تم طبع الكتاب، رفض بيعه فى المملكة الا بعد طبعة دبر أمرها ، بحيث يؤول ربحها الى وحدى ، بالرغم منى .. ولما كان هذا الربح يعتبر- من جانبى- سرقة وجورا على حقوق الناشر « ريه » ، الذى كنت قد بعثه أصول كتابى، فاننى لم أرفض فحسب قبول هذه الهدية - التى دبرت لى بدون اذنه، وان كان قد أقرها فى كرم النفس - بل اننى رغبت فى أن أقتسم معه المائة «بيستول» التى تجمعت منها ، والتى أبى ان يقبل منها شيئا. ولقد ضايقتنى هذه المائة «بيستول»، اذ لم يكن السيد دى ماليزيرب قد شاورنى فى امرها ، ولم يمهد لدى حتى أكون على علم اذ أرى مؤلفى يستغل استغلالا بغيضا، فيمنع بيع الطبعة الجيدة ، ريثما تستنفد نسخ الطبعة الرديئة ! (١)

ولقد اعتدت ان انظر دائما الى السيد دى ماليزيرب كرجل أجمعت الشواهد على استقامته . فما حملنى شىء مما حدث

---

(١) الطبعة الجيدة هى التى طبعت فى (امستردام) ، اما الرديئة فهى التى دبر « دى ماليزيرب » اصدارها فى باريس لمصلحة « روسو »

على ان أرتاب فى أمانته لحظة واحدة ، ولكنه كان ضعيفا بقدر ما كان شريفـا ، ومن ثم فانه كان يسبب المضايقات أحيـانا ، لأولئك الذين كان يشغل بأمورهم ، رغبة منه فى حمايتهم، وفى سبيل هذا لم يكتف بأن امر بحذف اكثر من مائة صفحة من طبعه باريس، بل انه عدا على النسخة التى ارسلها الى السيدة « دى بومبادور » ـ من الطبعة الجيدة ـ بطريقة جديرة بأن تسمى انتهاكا للأمانة . **فلقد قيل فى سيـاق ذلك الكتاب ، ان زوجه الفحام أجدر بالاحترام من عشيقة امير . وانى لأقسم على ان هذه العبارة قد عرضت لى فى سياق التأليف ، دون ان يقصد بها أحد . وقد تبينت ـ عندما أعدت قراءة الكتاب ـ ان الخواطر قد تتجه الى شخص بالذات . غير اننى لم أشأ ان أحذف هذه العبـارة ، جريا على مبدئى الصلب المتعنت ، من عدم حذف أى شىء مراعاة لأى تأويل قد يحمل على محمله ، مادام ضميرى شاهدا على اننى لم أكن أقصد به ذلك التأويل عندما كتبته !.. واكتفيت بأن أبدلت كلمة ((ملك)) ـ التى كنت قد كتبتها فى بادىء الأمر ـ بكلمة ((أمير)) !**

ولم يرض هذا التعديل السيد دى ماليزيرب ـ على ما بدا ـ فحـذف العبـارة تمـاما فى طبعة جـديدة للصفحة فى ورقة مستقلة، الصقها فى عناية تامة على الصفحة الأصلية، فى النسخة الموجهة الى السيدة دى بومبـادور . على انها لم تجهل هذه الحيلة من حيل التعمية، فقد وجدت بعض نفوس « طيبة !» اطلعتها عليها . أما انا ، فلم أعلم بها الا بعد زمن طويل، عندما شرعت أحس آثارها !

او ليس هذا ـ بدوره ـ أصل كراهية مستترة ، ولـكنها مريرة ، من سيدة أخرى كانت فى وضع مشـابه (١) ، وان لم اعرف عنه شيئا، بل ولا كنت قد عرفتها هى عندما كتبت هذه

---

(١) يقصد الكونتة دى بوفلير ، التى كانت عشيقة الأمير دى كونتى !

لاموانيـــون
دى مالـــيزيرب
مراقب المطبوعـات
الذى ساعد روسو

الفقرة ؟.. ولقد تم تعارفى بها عنـدما نشر الكتاب ، فشعرت بكثير من القلق وعدم الارتيـاح ، وأعربت عن ذلك للشيفالييه دى لورنزى ، الذى ضحك ساخرا ، وأكد لى ان هذه السيدة لم تمس بما يجرح كرامتها فى شىء ، بل انها لم تنتبه الى الأمر . ولقد صدقت قوله ، ولعلنى كنت متلهفـا بعض الشىء عليه ، فاستعدت طمأنينتى فى وقت لم يكن من الملائم لى ان اطمئن فيه !

وتلقيت مع مقـدم الشتاء ، دليلا جـديدا على كرم السيد دى ماليزيرب ، قدرته كل التقدير ، وان لم أر من الحكمة ان

انتفع به . فلقد كان ثمة منصب خال فى صحيفة العلماء ، « جورنال ديه سافان » ، وقد كتب لى «مارجينسى » يعرض هذا المنصب على ، وكأنه كان يفعل ذلك بدافع من نفسه، بيد انه كان من اليسير على أن أرى من أسلوب خطابه (الملف«ج»ـ رقم ٣٣) انه كان يعمل بأوامر من سلطة فوقه .. . بل إنه أوحى الى بنفسه ، فى خطاب تال (الملف «ج» ـ رقم ٤٧) انه كان مكلفا بأن يعرض على المنصب. وكان العمل بسيطا ، يتألف من قطعتين تستخلصان شهريا من كتب ترسل الى ، ومن ثم فلن أكون بحاجة قط الى أن أذهب الى باريس ، ولو فى زيارة للمسئول ، أقدم فيها شكرى . ولقد مهد لى هذا المنصب سبيل دخول مجتمع أدباء الطبقة الأولى : السادة ميران، وكليرو، ودى جيينى ، والراهب بارثليمى . وقد كنت على تعارف سابق بالأولين ، فتطلعت فى غبطة الى التعرف بالأخيرين .

وفوق كل ذلك، كان لى أن أتقاضى عن هذا العمل غير المرهق ـ الذى كان من السهل على اداؤه ـ مكافأة قدرها ثمانمائة فرنك ، مخصصة لهذا المنصب .. وفكرت بضع ساعات ، قبل ان انتهى الى قرار. وبوسعى ان اقسم بأن ترددى ماكان راجعا الا الى الخوف من اغضاب مارجينسى ، وعدم ارضاء السيد دى ماليزيرب . على ان الضيق ـ الذى لم أقو على مقاومته ـ من عدم تمكنى من العمل فى الوقت الذى يحلو لى، واضطرارى الى أن أكون مقيدا بمواعيد معينة ، ثم تأكدى من عدم اجادتى للأعمال التى اكون مجبرا على ادائها .. **كل هذه تحالفت وتغلبت ـ فى النهاية ـ على كل اعتبار آخر، وحملتنى على أن أقرر رفض منصب لم أكن مهيأ له !.. فلقد كنت أعرف ان نبوغى لم يكن يأتى الا عن نوع معين من الاهتمام المشبوب بالموضوعات التى أرى علاجها ، وانه لم يكن ثمة ما هو أقوى ـ على اذكاء عبقريتى ـ من حب كل ما هو عظيم ، وكل ماهو صادق وحقيقى، وكل ما هو جميل !..** فما قيمة الموضوعات

التى كان على ان استخلصها من اغلب الكتب .. بل ما قيمة هذه الكتب ذاتها لدى ؟.. كان عدم اكتراثى بكل هـذا كفيلا بأن يجمد قلمى ، وان يبلد ذهنى !.. **لقد ظنوا ان بوسعى أن أكتب بحكم المهنة فحسب ـ ككل الأدباء الآخرين ـ فى حين اننى لم أكن قط أملك أن أكتب الا عن ايحـاء والهام !.. ويقينا ان هذا لم يكن بالمـادة اللازمة لصحيفة العلمـاء .** ومن ثم فاننى كتبت الى مارجينسى رسالة شكرته فيهـا ، وشرحت له ـ فى أكثر ما وسعنى من أدب ـ أسبـاب رفضى بالتفصيل ، حتى لايكون له ـ أو للسيد دى ماليزرب ـ ان يظن ان لسوء الطبع ، أو للغرور اثرا فى هـذا الرفض . ولقـد أقرنى كلاهما على ما ذهبت اليه ، دون ان يؤثر ذلك على ودهما لى .. وظل الأمر سرا مصونا ، فلم يتح للرأى العام ان يعرف أتفه شىء عنه !

* * *

• **والواقع** ان هـذا العرض لم يأتنى فى لحظة مناسبة لكى اوافق عليـه ، اذ أننى كنت قـد اعتزمت ـ منذ فترة ـ ان اهجر الادب هجرانا تاما ، بل اهجر مهنـة التأليف . فان كل الذى جرى جعلنى أشمئز تماما من أهل الأدب ، وقدثبت لدى انه كان من المستحيل أن أمضى فى هذه المهنة بالذات ، دون أن اتصل بهم . ولم يكن اشمئزازى من أهل المجتمع بأقل من ذلك .. بل اننى كنت قد برمت بالاختلاط الذى أقدمت عليه فى الحياة عامة ، سواء من ناحيتى أو من ناحية المجتمع ، فاننى لم أكن مهيأ لذلك . **وعلى ضوء التجـارب المتواصلة ، شعرت اكثر من ذى قبل ، بأن كل العلاقات القائمة على غير تكافؤ او مساواة ، تكون مضرة دائمـا بالجانب الضعيف فيهـا . ولقد كانت معيشتى مع قوم ذوى ثراء ، يمتون الى طبقة أخرى غير التى اخترتها ، دون أن أعيش على نمطهم ، ومع ذلك فاننى كنت مضطرا الى ان اقلدهم فى كثير من الأمور . وكانت النفقات**

البشرية - التى لاتعد شيئا مذكورا لديهم - عبءا مرهقا، بقدر ما كانت ضرورة لازمة ! .. فاذا ما ذهب رجل لزيارة بيت فى الريف ، اضطلع بخدمته - سواء على المائدة ، أو فى مخدعه - خادمه الخاص .. فهو يرسله وراء حاجاته ، دون ان يتصل اتصالا مباشرا بخدم البيت ، بل وربما دون ان يقع عليهم بصره، فلا شىء بينه وبينهم اللهم الا انه يمنحهم هبة كلما طاب له ذلك .. اما انا، فقد كنت وحيدا، بلا خادم خاص ، ومن ثم فاننى كنت تحت رحمة خدم البيت الذى أزوره ، وكان من الضرورات الماسة لى ان أكسب ودهم ، اذا شئت ان لا أعانى كثيرا من المضايقات .. ولما كنت أعامل كسيدهم ، على قدم المساواة ، فقد كان لزاما على ان اعامل الخدم كما يعاملهم السيد ، بل وان أبدى لهم أكثر مما يبدى اى امرىء آخر ، لأننى كنت - فى الواقع - اكثر من سواى حاجة الى خدماتهم!

ولم تكن هذه بالمسألة الجسيمة ، فى الدور التى لم يكن يوجد بها سوى نفر قليل من الخدم .. **ولكن الدور التى كنت أزورها، كانت تضم أعدادا كبيرة منهم، كلهم انذال، مسعورون، شديدو اليقظة .. لمصالحهم الخاصة !. وكان الأنذال يعرفون كيف يدبرون خططهم ، بحيث احتاج الى خدمات كل واحد منهم بدوره !**

وكل نساء باريس - اللائى أوتين ذكاء فائقا - لا يصبن اطلاقا فى آرائهن بهذا الصدد ، ومن ثم فقد استنزفن مواردى، فى رغبتهن فى الابقاء على هذه الموارد . فاذا كنت ذاهبا لتناول العشاء فى دار لاحداهن - على مسافة قليلة من بيتى - أمرت السيدة باعداد جيادها لتقلنى مركبتها فى عودتى ؛ بدلا من ان تدعنى أطلب مركبة بالأجر .. وكانت تغتبط لأنها توفر على بذلك الاربعة والعشرين « سو » ، أجر العربة . دون ان يخطر ببالها شىء عن «الايكو» الذى كنت أهبه خادم العربة والحوذى. ولو ان سيدة كتبت الى من باريس ، وشاءت ان تبعث برسالتها

الى (ليرميتاج) أو (مونمورنسى) ، فانها اشفاقا على من ان ادفع الأربعة « سو » ـ التى كان يكلفنيها خطابها (١) ـ كانت ترسله مع واحد من خدمها ، فيأتى به سيرا على قدميه ،وهو مبلل بعرقه .. وكنت اضطر الى أن امنحه غداء ، وأهبه « ايكو » لا شك انه كان أهلا لاكتسابه ! ..اما اذا هى دعتنى لقضاء ثمانية أيام ـ أو خمسة عشر ـ معها ، فى الريف ، فانها كانت تقول لنفسها : « لسوف يكون هذا توفيرا لبعض نفقات المسكين ، على أية حال ! .. فهو لن يتكبد شيئا من نفقات قوته ، أثناء مقامه هنا » ! .. **وكانت تنسى اننى لم أكن أقوم بأى عمل ـ فى تلك الفترة ـ واننى أظل مسئولا عن دفع ايجار مسكنى ، ونفقات من فيه ، والغسيل ، والكساء .. واننى كنت أدفع ـ فى سبيل قص شعرى وازالة لحيتى ـ ضعف ما اعتدت أن أدفع .. وان اقامتى فى دارها ، كانت تكبدنى فوق ما اعتدت أن أنفق فى دارى !**

ومع اننى اقتضبت المنح البسيطة التى كنت أهبها لخدم البيوت التى اعتدت أن أنزل عليها كثيرا ، الا انها ظلت ترهق مواردى . واعتقد اننى انفقت ما يزيد على خمسة وعشرين

---

(١) كان المرسل اليه هو المسئول عن نفقات البريد اذ ذاك

« ايكو » ، فى دار السيدة دوديتو ــ فى (اوبون) ــ حيث لم انم اكثر من أربع أو خمس مرات .. وأكثر من مائة «بيستول» فى (ايبيناى) و(لاشيفريت) ، خلال السنوات الخمس أو الست التى اعتدت فيها أن أكون ضيفا مترددا على القصرين .

* * *

• **ذلك** ان النفقات من الأمور التى **لا** مفر منها لرجل فى مثل حالى ، **لا** يعرف كيف يؤدى لنفسه شيئا ، **ولا** كيف يستعمل ذكاءه فى انجاز شىء ، ولا يستطيع ــ كذلك ــ ان يطيق رؤية وصيف يزمجر ويؤدى مهامه وهو ساخط .. بل اننى فى دار السيدة دوبان ــ حيث كنت فى مكانة اى فرد من افراد الأسرة ، وحيث أديت الف خدمة للخدم ــ لم أحظ منهم يوما بشىء ، ما لم تكن نقودى واسطة بيننا . ومن ثم فاننى لم البث ان اضطررت الى أن اتخلى نهائيا عن هذه المنح الضئيلة ، التى لم يعد مركزى يسمح لى بانفاقها .. **واذ ذاك فقط ، شعرت ــ أكثر من ذى قبل ــ بمضار الاختلاط بمن ينتمون الى غير طبقة المرء !**

أضف الى هذا ، اننى لو استمرأت هذه الحياة ، لشعرت بعزاء عن هذه النفقات الباهظة ، اذ انها تكون ــ اذ ذاك ــ ثمنا لمسراتى . ولكن الافلاس الذى لا يأتى بغير المضايقة ، أمر يفوق كل احتمال . **ولقد اشتد شعورى بوطأة هذا المسلك من مسالك الحياة ، حتى اننى انتهزت فرصة تلك الفترة من التحرر ، التى كنت أحظى بها ــ اذ ذاك ــ فعقدت العزم على أن أجعلها دائمة ، بأن انبذ ــ نبذا تاما ــ المجتمع الراقى ، وتأليف الكتب ، وكل صلة بالأدب ، وأن أعتكف ــ ما بقى لى من أيام فى الحياة ــ فى ذلك النطاق الضيق ، الوادع ، الهادىء ، الذى كنت أشعر باننى خلقت من أجله !**

ولقد أدت أرباح الكتاب الذى ضمنته مقالى « رسالة الى

داليمبير » ، وكتاب « هيلويز الجديدة » الى زيادة لابأس بها ، فى مواردى التى كانت قد اعتصرت فى (ليرميتاج) . فقد رأيت أمامى حوالى ألف « ايكو » . وكنت قد تقدمت كثيرا فى تأليف كتاب « اميل » ، الذى قصرت عليه اهتمامى بعد ان فرغت من « هيلويز » ، وكان دخله جديرا بأن يضاعف هذا المبلغ ، على الاقل . ومن ثم فقد فكرت فى مشروع لاستثمار هذا الرصيد بطريقة تجلب على ايرادا صغيرا يكفى — اذا ضم الى ما تدره على اعمال النسخ — لأن يوفر معاشى دون ماحاجة الى المضى فى الكتابة . كذلك كان لدى كتابان مؤجلان ، اولهما « المذاهب السياسية » .. **ولقد درست حال هذا الكتاب ، فوجدت انه لا يزال يتطلب عدة سنوات من العمل . ولم تكن لدى جرأة على المضى فيه ، وان أنتظر الى ان يتم ، قبل ان أنفذ ما اعتزمت . ومن ثم فاننى عدلت عنه ، وقررت ان استخلص منه ما يسعنى استخلاصه ، ثم أحرق ما يزيد .. واذ انهمكت فى هذا العمل بكل قوة ، دون أن أقطع استرسالى فى ((اميل)) ، قدر لى ان اضع — فى اقل من عامين — العبارات الأخيرة لكتاب ((العقد الاجتماعى)) ! (١)**

وبقى « قاموس الموسيقى » — أو « الموسوعة الموسيقية » — وكان العمل فيها مجرد جهد آلى ، يمكن القيام به فى اى وقت ، ولم أقدم عليه الا طلبا للنقود فحسب. وقد احتفظت لنفسى بحق نبذه ، أو اتمامه متى شئت ، وفقا لما اذا كانت مواردى الأخرى توحى بأن دخله ضرورى ، أو انه فائض عن الحاجة . أما كتاب « الأخلاق فى الشئون الحسية » — الذى كنت قد وضعت خطوطه الأولى — فقد نبذته نهائيا !

وكنت أعول على مشروع أخيرا ، اذا ما قدر لى أن استغنى

---

(١) قدم «كتابى» ملخصا لكتاب « اميل » فى عدده الرابع ، وملخصا لكتاب « العقد الاجتماعى » فى العدد ٣٢

عن اعمال النسخ .. ذلك هو أن أوغل فى الابتعاد عن (باريس) ، حيث كان سيل الزائرين يجعل نفقات معيشتى فادحة ، ويحرمنى من الوقت لزيادتها .. ولكى ادفع عنى فى عزلتى شعور الملل — الذى يقال أنه يعدو على المؤلف ، اذا هو ألقى قلمه جانبا — احتفظت لنفسى بعمل كفيل بان يملأ الفراغ فى وحدتى ، دون أن يستدرجنى الى الانسياق لاغراء نشر أى جديد ، خلال ما تبقى من عمرى . فما كنت أدرى أية نزوة تملكت ((ريه)) ، فراح — منذ زمن طويل — يستحثنى على كتابة ذكريات حياتى . ومع ان هذه الذكريات لم تكن — حتى ذاك الحين — مشوقة ، من حيث الأحداث ، الا أننى شعرت بأن من الممكن ان اجعلها مشوقة ، بفضل الروح التى أتناول بها الموضوع . ومن ثم صممت على ان اجعلها عملا فريدا فى نوعه ، بأن اكتبها بصدق لامثيل له ، حتى يتسنى — ولو مرة واحدة — ان يرى الناس رجلا على حقيقته ، كما يرى هو دخيلة نفسه !

ولقد اعتدت دائما ان اسخر من سذاجة ((مونتانى)) التى غررت به ، فجعلته يعنى عناية فائقة بأن لا ينسب الى نفسه الا كل مستحب ، فى حين انه كان يتظاهر بالاعتراف بعيوبه .. أما انا — الذى اعتدت ان أعتقد دائما أننى ، من كافة الاعتبارات ، خير الرجال — فقد شعرت بأنه ما من قلب بشرى ، مهما يكن نقيا ، الا ويطوى بين جوانحه عيبا ذميما . ولقد كنت ادرك اننى صورت للناس فى صورة تخالف تماما صورتى الحقيقة ، بل وتبدو فى بعض الاحيان مشوهة ، حتى اننى — رغم السوء الذى لا ابتغى اخفاءه قط — لن أبوء الا بالكسب ، اذا اطلعت الناس على حقيقة نفسى ! .. والى جانب هذا ، فما كان من الميسور أن اكشف نفسى ، دون ان اكشف الاخرين على حقيقتهم . ومن ثم فانه لم يكن فى الوسع نشر هذا المؤلف ، الا بعد وفاتى ، ووفاة كثيرين غيرى . ولقد زادنى هذا قوة على الاقدام على

تسجيل اعترافاتى ، التى لن يقدر لى أن أخجل منها أمام انسان . ولهذا فقد عولت على أن أخصص أوقات فراغى للمضى فى تنفيذ هذا المشروع ، وبدأت اجمع الرسائل والاوراق التى قد ترشد ذاكرتى او تعينها ، والأسف يملأ نفسى حسرة على كل ما كنت قد مزقته ، او احرقته ، او اضعته حتى ذلك الوقت !

* * *

• **ولقد** كان لمشروع الاعتكاف التام – وهو من أحكم المشروعات التى خطرت لى – أثر قوى على ذهنى ، وكنت قد شرعت فى تنفيذه ، عندما ألقت بى السماء – التى كانت تعد لى مصيرا آخر – فى دوامة جديدة !

ذلك ان اقليم (مونمورنسى) ، الميراث العريق الفخم – الذى كانت تتوارثه الأسرة ، صاحبة هذا الاسم – لم يعد ملكا لهذه الأسرة ، مذ صودر . وكان قد آل – بزواج أخت الدوق هنرى – الى اسرة «كونديه» ، التى أبدلت اسم (مونمورنسى) باسم (انجيان) . ولم يكن لهذه الدوقية من قصر سوى حصن قديم ، تحفظ فيه الوثائق ، ويتلقى فيه السادة امارات الولاء . على ان ثمة بيتا معينا يرى فى (مونمورنسى) – او (انجيان) – شيده « كروازيه » – الملقب بالفقير – ويضارع فى فخامته أعظم القصور ، حتى ليستحق ان يسمى قصرا .. **ان المنظر المهيب لهذا المبنى البديع ، والمرتفع الذى يقوم عليه ، والمنظر الذى يشرف عليه ، والذى قد لا يكون له شبيه فى العالم ، وقاعة الاستقبال الرحبة فيه ، التى ازدانت برسوم يد حاذقة ، وحدائقه التى غرسها «لونوستر» الذائع الصيت .. كل هذه تؤلف وحدة شاملة ، ذات جلال باهر ، يمثل – فى الوقت ذاته – بساطة لا أدرى مبعثها ، ولكنها توحى باعجاب باق !**

ولقد اعتاد السيد المارشال دوق دى لوكسمبورج ـ الذى كان يشغل هذا البيت ، فى ذلك الحين ـ أن يفد فى كل عام مرتين الى هذا الاقليم الذى كان آباؤه وأجداده سادة له فيما مضى ، فيقضى خمسة اسابيع أو ستة ، كأى ساكن عادى ، ولكن فى أبهة لا تقل رواء عما للبيت من روعة عريقة ! .. وفى أول رحلة جاء فيها ، بعد أن استقر بى المقام فى (مونمورنسى)، اوفد الى وصيفا يحمل تحيات السيد المارشال والسيدة زوجته ، ودعوة الى تناول العشاء معهما ، عندما يروق لى ذلك!

وما من مرة جاءا فيها واهملا ارسال التحيات ذاتها ، والدعوة عينها . وقد ذكرنى هذا بالسيدة دى بوزينفال حين همت ان ترسلنى لتناول الغداء مع الخدم(١) . ولقد تغير الزمن، ولكننى بقيت على حالى . ولم أكن راغبا البتة فى أن أرسل لتناول الغداء فى قاعة الخدم ، كما اننى لم اكن احفل كثيرا بموائد العظماء . وقد كنت أوثر لو انهم تركونى فى حالى ، دون ان يكرمونى ، ودون أن يحقرونى . ومن ثم فقد رددت فى أدب واحترام على مجاملات السيد والسيدة « دى لوكسمبورج » ، غير اننى لم اقبل قط دعوتهما. فان صحتى المعتلة ـ فضلا عن خجلى وتهيبى الطبيعيين ـ كانت تجعلنى اقشعر لمجرد التفكير فى أن اظهر فى جمع من اعضاء البلاط الملكى .. بل اننى لم اذهب الى القصر فى زيارة للشكر والتحية ، رغم اننى ادركت كل الادراك، ان هذا ما كان يبتغى منى، وان كل هذا الإلحاح لم يكن صادرا عن كرم وتلطف ، بقدر ما كان صادرا عن فضول !

على انهما واصلا مجاملاتهما، بل وراحا يضاعفانها . وكانت السيدة كونتة دى بوفلير ـ التى كانت وثيقة الصلة بالسيدة المارشالة ـ قد جاءت الى (مونمورنسى) ، فأرسلت تسأل عنى، وعما اذا كان لها ان تزورنى ، وأجبت كما كان ينبغى أن أجيب؛

---

(١) روى « روسو » هذا الحادث فى صفحة ١٦ (٤٧٢) من الجزء الثالث .

ولكنى لم أحرك ساكنا . وفى خلال رحلة عيد الفصح من السنة التالية ـ ١٧٥٩ ـ زارنى مرارا الشيفاليبيه دى لورنزى، الذى كان ينتمى الى حاشية السيد الأمير دى كونتى ، والى ندوة السيدة دى لوكسمبورج . ولقد توثقت المعرفة بيننا ، فراح يلح على بالذهاب الى القصر . ولكنى ابيت !

وأخيرا ، وفى أصيل ذات يوم ، رأيت السيد المارشال دى لوكسمبورج ، وكان آخر من توقعت رؤيته .. وكان يقترب وفى معيته خمسة أشخاص او ستة . ولم يبق لى من وسيلة للتهرب ، وما كنت املك ان اتحاشاه . كما اننى لم اكن املك أن أتفادى رد زيارته ، وتقديم آيات احترامى للسيدة المارشالة ـ التى أغرقتنى بما حمله الى من مظاهر تفضلها ـ والا اعتبرت متغطرسا سىء التربية .

وهكذا بدات ـ تحت انحس الطوالع ـ علاقة لم يكن بوسعى ان اتهرب منها أطول مما فعلت .. وان كان شعورا عميق الجذور ، قد اوحى الى بالتوجس مما اقحمت عليه !

★ ★ ★

• **كنت** فى خوف بالغ من السيدة دى لوكسمبورج ، فلقد كنت اعلم انها لطيفة مليحة ، وقد رايتها مرارا فى المسرح ، وفى دار السيدة دوبان ، قبل عشر أو اثنتى عشرة سنة ، حين كانت تلقب بدوقة دى بوفلير ، وهى بعد تتلألأ فى طلائع اضواء جمالها . ولكنها عرفت بالخبث وسوء السيرة ، وكانت هذه السمعة لسيدة فى مثل مكانتها العظيمة ، تثير ارتعادى !

وما ان رأيتها ، حتى وقعت اسيرها . فقد ألفيتها ساحرة .. اوتيت ذلك السحر الذى لا يعدو عليه الزمن ، والذى خلق لكى يفتك بفؤادى ! .. وكنت أتوقع ان اجد حديثها ساخرا، مليئا بالتوريات . ولكنه لم يكن كذلك ، بل كان افضل من ذلك بكثير . ذلك لأن حديث السيدة دى لوكسمبورج لا يتالق

السيدة
دى لوكسمبورج

بالذكاء ، ولا يكشف عن سمو الروح ، كما انه لاينم عن رقة مهذبة بمعنى الكلمة ، ولكنه مفعم بالفكاهة التى لا تؤذى اطلاقه ولكنها تبهج السامع دائما ! .. وكانت مجاملاتها وعباراتها المتملقة تعبث بالنفوس ، بقدر ماهى بسيطة ، توحى بأنها انما كانت تتساقط من بين شفتيها دون تفكير منها ، وكأنها فورات قلب مترع ! .. وخيل الى اننى لمحت ــ خلال زيارتى الأولى ــ انها استطابت مجلسى ، رغم انطوائى ، وثقل عباراتى .. ولقد كانت كل سيدات البلاط يحذقن احداث هذا الأثر ــ سواء كن فى ذلك صادقات ، او مصطنعات ــ عندما يحلو لهن ولكنهن جميعا لم يكن يحذقن احداثه بالطريقة الفاتنة التى كانت تجيدها السيدة دى لوكسمبورج ، فلا يقوى المرء على ان يرتاب فى صدقه !

ولقد كان من المحتمل ان تصل ثقتى فيها الى الكمال ، منذ

اليوم الأول ـ كما صارت بعد ذلك بوقت قصير ـ لولا ان السيدة الدوقة دى مونمورنسى ، زوجة ابنها ، كانت على شيء من الحقد ، وكانت ـ فيما اعتقد ـ شابة رعناء ، مشاكسة ، عقدت عزمها على ان تهاجمنى ،حتى جعلتنى ـ وسط مجاملات حماتها ومغازلاتها ـ اعتقد انهما انما كانتا تسخران منى !

ولعلنى كنت خليقا بأن أجد ارتياحها ، نظرا لهذا التوجس الذى داخلنى نحو السيدتين،لولا ان الكرم البالغ الدافق من السيد المارشال ، اقنعنى بأن ودهما كان صادقا . ولم يكن ثمة ما هو أدعى للعجب ـ اذا ما نظرنا الى طبيعتى الخجول ـ من مبادرتى الى اخذ السيد المارشال بكلمته ، من حيث المساواة التى أرادنى على أن اكون عليها معه .. ليس أعجب من هذا ، سوى مبادرته الى احترام رغبتى فى الاستقلال التام الذى اردت أن أعيش فيه . ومن ثم فانه والسيدة دى لوكسمبورج لم يبديا أى قلق ـ ولو للحظة واحدة ـ بصدد مواردى وأسباب عيشى ، اقتناعا منهما بأننى كنت على صواب فى ان اكون قانعا بمركزى ، غير راغب فى أى تغيير ! .. فمع اننى لم اكن أملك أن أرتاب فى الاهتمام العطوف الذى كانا يبديانه نحوى ، الا انهما لم يعرضا قط ان يسعيا لايجاد منصب لى ، أو ان يساعدانى بنفوذهما ، اللهم الا مرة واحدة ، عندما أبدت السيدة دى لوكسمبورج رغبة فى ان ادخل المحفل الفرنسى ، « الاكاديميه فرانسيز » .. ولقد أشرت الى ان عقيدتى الدينية تقوم دون ذلك ، فقالت ان هذه لم تكن عقبة تذكر ، والا فانها تتكفل بازاحتها ، اذا كانت كذلك ! .. وأجبت بأنه رغم الشرف الذى يضفيه على انتمائى الى مثل هذه الهيئة الموقرة ، فاننى ـ بعد رفضى دعوة السيد دى تريستان ، وملك بولندا ، بطريقة ما ، أن أنضم الى محفل نانسى ـ لا استطيع ان اقبل عضوية اى محفل آخر ، وانا مرتاح الضمير . ولم تحاول السيدة دى لوكسمبورج أن تمضى فى الالحاح ، ولا دار اى حديث فى هذا

الصدد ، بعد ذلك !

هذه البساطة في الصلات مع مثل هؤلاء السادة العظـام ، الذين كان في وسعهم ان يضفوا على المآثر - اذ كان السيد دي لوكسمبورج صديقا شخصيا للملك ، عن جدارة - تتناقض تماما ، وبشكل عجيب ، مع الاهتمام المستمر - الذي لم يكن اقل مضايقة مما هو اصطناعيا ورياء - الذي كان يبديه اولئك الأصدقاء الذين هجرتهم ، والذين كانوا يتظاهرون برعايتي ، ويسعون الى استذلالي ، اكثر مما كانوا يسعون الى خدمتي !

وعندما زارني السيد المارشال في (مون - لوي) ،استقبلته وحاشيته في غرفتي الوحيدة ، وانا محرج .. لا لأنني كنت مضطرا الى ان ادعوه الى الجلوس وسط صنجافي القذرة واواني المهشمة ، وانما لأن ارض الحجرة كانت متداعيـة ،

متساقطة ، وقد خشيت ان يؤدى ثقل مرافقيه الى انهيارها . وما خشيت على نفسي من الخطر ، وانما خشيت على هذا السيد الجليـل مما كان تواضعه يعرضه له ، فعملت على التعجيـل بابعاده عن الحجرة ، اذ اقتدته - رغم الجو الذى كان شديد البرد - الى شرفتي التى كانت فى مهب الرياح ، ولم تكن بها مدفأة ما ! .. وما ان صرنا هناك ، حتى اطلعته على السبب

الذى اقتدته من اجله الى المكان ، فرواه بدوره الى السيدة المارشالة ، والحفا معا فى حملى على الاقامة فى القصر — ريثما يتم اصلاح ارض الحجرة — او فى مبنى ملحقا بالقصر ، وسط المنتزه ، يطلق عليه اسم « القصر الصغير » ، ان شئت .

* * *

• **وهذا** المسكن الفاتن جدير بالحديث .. ذلك ان منتزه ، او حديقة (مونمورنسى) لم تكن فى مستوى واحد ، كحديقة (لاشيفريت) ، فهى تل غير مستو ، تتناثر فيه المرتفعات والمنخفضات ، التى استغلها الفنان الماهر ، ليخلق سلسلة من المتنوعات : من احراش ، ومياه ، وزخارف ، ومناظر متباينة ، وليضاعف — كما ينبغى ان يقال — المساحة المحدودة ، فى نظر الرائى . **ويتوج هذا المنتزه ، شرفة يعلوها القصر .. اما فى طرفه الادنى ، فانه يؤلف مضيقا لا يلبث ان ينفتح ويتسع ، فى اتجاه الوادى ، وتمتد فى زاويته صفحة شاسعة من الماء . وبين بساتين البرتقال — التى تملأ المساحة التى يتسع عندها المضيق — والماء ، وفى وسط كثبان تزينها الأحراش والأشجار ، يقوم ((القصر الصغير)) الذى أشرت اليه !**

ولقد كان هذا المبنى ، والاراضى المحيطة به ، ملك للوبرون الشهير (١) ، من قبل ، وقد جعل من انشاء هذا المبنى وتزيينه ملهاة له ، واقبل على ذلك بأفخم فنون العمارة والزخرفة ، اللذين برز هذا الرسام العظيم فيهما . ولقد اعيد بناء هذا القصر فيما بعد ، ولكن التصميمات التى وضعها صاحبه الأول ، روعيت عند التجديد . وهو قصر صغير ، وبسيط ، ولكنه انيق . ولما كان يقوم بين خزان رى بستان البرتقال ، وبين المساحة المائية الشاسعة ، فقد كان معرضا للرطوبة ، ومن ثم

---

(١) رسام فرنسى مشهور ، ولد فى سنة ١٦١٩ ، ومات فى ١٦٩٠

نقد كان يخترقه فى وسطه ، رواق مكشوف (منور) ، بين طبقتين من الاعمدة ، فكان الهواء الجارى فى المبنى كله ، يتخفف من رطوبته فى ذلك الرواق . وعندما ينظر المرء الى المبنى من عل - من زاوية الجانب المقابل - يراه محوطا تماما بالماء ، فكأنه جزيرة مسحورة ، او كأنه ابدع جزر (بوروميه) الثلاث - جزيرة (ايسولابيلا) - فى بحيرة (ماجيورى)

فى هذا المبنى المنعزل ، ترك لى حق اختيار احد الاجنحة الاربعة الكاملة ، التى كان يضمها ، فضلا عن الطابق الارضى ، الذى كان يتألف من قاعة للرقص ، واخرى للبلياردو ، ومطبخ. وقد اخترت اصغر الاجنحة وابسطها ، وهو الذى كان يعلو المطبخ ، الذى سمح لى باستخدامه . **وكان الجناح بديعا ، نظيفا ذا اثاث يشيع فيه اللونان الأزرق والأبيض . وفى هذه العزلة العميقة ، البهيجة - وسط الغابات والمياه ، وعلى شقشقة الطيور من كل نوع ، محوطا بعبير زهور البرتقال - وضعت الجزء الخامس من ((اميل)) ، وانا شبه ثمل .. ومن ثم فان اللون الجديد الذى يبدو فيه الشطر الاكبر منه ، يرجع فى الواقع الى الأثر الفعال الذى عكسه الوسط الذى كنت اكتبه فيه !**

لكم كنت اهرع ملهوفا - عند بزوغ الشمس ، فى الصباح - كى اتنسم الهواء العبق فى الرواق ! .. وما احلى القهوة الممزوجة باللبن ، التى كنت اتناولها مع « تيريز » هناك ! .. وكانت قطتى وكلبى يؤنساننا . وكانت هذه الصحبة وحدها ، كافية لاينساى طيلة حياتى ، فما كنت معها لأشعر بلحظة من الملل ! .. كنت فى جنة ارضية ، وقد عشت هناك فى حال من السذاجة والبراءة ، ورحت انعم بالسعادة !

ولقد ابدى لى السيد والسيدة دى لوكسمبورج ، خلال الزيارة التى قاما بها فى شهر يوليو ، كثيرا من الوان الرعاية ، وعاملانى فى كرم بالغ ، حتى اننى - وقد كنت اعيش فى

رحابهما ، مغمورا بمجاملاتهما ـ لم اكن املك ما اجازيهما به ، سوى ان اكثر من ترددي عليهما . فأصبحت لا اكاد افارقهما اطلاقا : اذ كنت اذهب في الصباح ، لأقدم تحياتي الى السيدة المارشالة .. وبعد ان اتناول غدائي هناك ، كنت اتمشى ، ابان الاصيل ، مع السيد المارشال .. ولكني لم اكن امكث للعشاء ، اذ كانا يدعوان الى مائدتهما دائما عددا من علية القوم ، فضلا عن انهما كانا يتناولان العشاء في ساعة متأخرة بالنسبة لي ..

والى ذلك الوقت ، كان كل شيء يمضي مواتيا ، وما كان ليقع شيء من الضر ، وانني عرفت كيف ادع الامور تجري في اعنتها . ولكني لم اكن يوما بقادر على ان انهج منهجا وسطا في علاقاتي الودية ، ولا استطعت يوما ان اكتفي بأن اؤدي واجباتي نحو المجتمع ، وانما كنت دائما انشد احد أمرين : اما كل شيء ، او لا شيء ! .. وما ان اظفر بكل شيء ، وارى نفسي مكرما مدللا لدى قوم من ذوي الجاه ، حتى اتجاوز الحدود ، فتتملكني نحوهم صداقة لا تباح عادة الا بين الانداد المتعادلين . وكنت اكشف عنها بالألفة المتحررة من الكلفة ، في حين انهم لم يكونوا ـ من ناحيتهم ـ يتخلون عن آداب اللياقة التي نشأوا عليها وتعودوها . ومع ذلك ، فانني لم اشعر يوما بأنني متحرر على سجيتي ، مع السيدة المارشالة ! ومع انني لم اكن مطمئنا كل الاطمئنان الى شخصيتها ، الا انني لم اكن اخشاها بقدر ما كنت اخشى عقلها .. وهذا وحده ما كان يكبح جماحي . فلقد كنت اعرف ان ارضاءها في الحديث صعب ، وكان من حقها ان تكون كذلك . اذ كنت ادرك ان النساء ـ وسيدات الطبقة الرفيعة منهن ، بوجه خاص ـ كن لا يشتهين من الحديث سوى التسلية والترويح ، وانهن يؤثرن التجريح على الاملال !

.. وقد حدست ـ من ملاحظات السيدة دي لوكسمبورج على احاديث الذين كانوا ينصرفون من لدنها ـ ما كان قد

خامرها ولا بد بصدد احاديثى السخيفة . ومن ثم فاننى فكرت فى حيلة لأعفى نفسى من حرج الحديث اليها .. تلك هى ان اقرأ عليها ! . وكانت قد سمعت عن « جولى » ، وعرفت انها طبعت ، فأبدت شوقا الى رؤية هذا الكتاب . واذ ذاك عرضت عليها ان اقرأه لها ، فوافقت .

واصبحت اذهب اليها فى الساعة العاشرة من كل صباح ، ولا يلبث ان يأتى السيد دى لوكسمبورج ، ويغلق الباب . واروح اقرأ الى جوار فراشها . وقد قسمت جلسات القراءة تقسيما

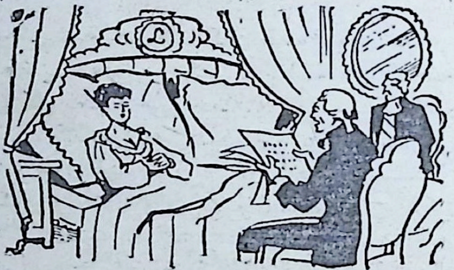

دقيقا ، بحيث تدوم طيلة بقائها ، لو انها لم تقطع حبل اقامتها ، اذ ادى خسران معركة كبرى ، الى استياء الملك فاضطر السيد دى لوكسمبورج الى المبادرة بالعودة الى البلاط . ولقد فاق نجاح هذه الحيلة كل ما توقعت ، اذ استولى على السيدة دى لوكسمبورج شغف طاغ بـ ((جولى)) وبمؤلفها . فاصبحت لا تتكلم الا عنى ، ولا تفكر الا فى طيلة اليوم ، وتعانقنى عشر مرات فى النهار ، واصرت على ان اجلس باستمرار الى مائدتها . وكانت ــ اذا حاول اى واحد من كبار السادة ان يحتل مكانى ــ تخبرهم ان ذاك مقعدى ، وتحملهم على الجلوس فى اماكن اخرى !

ومن السهل تصـــور الأثر الذى خلفته هذه التصرفات الساحرة ، فى نفسى ، انا الذى كانت تستعبدنى ابسط مظاهر العاطفة . فاذا بى اغدو شديد التعلق بها ، بقدر ما كانت هى تبدى لى من ميل . وكان المصدر الأوحد لخوفى ـ حين فطنت الى هذا الهيام ـ هو شعورى بأننى لم اكن مستملحا الى الدرجة التى تستبقيه حيا ، ومن ثم فانه قد ينقلب الى كراهيـة .. ولقد كان هـذا الخوف ـ لسوء حظى ـ قائما على اسـس سليمة جـدا !

* * *

◦ **ولا بد** ان ثمة تعارضا كان قائما بين اتجاه عقلها واتجاه عقلى .. فبغض النظر عن كثير من الهذيان الأحمق الذى كان يفلت منى فى كل لحظة من لحظات احاديثنا ، بل وبغض النظر عن خطاباتى .. كانت ثمة أشياء تكدرها ، حتى فى خير اوقات صفائى معها ، دون ان يقدر لى ان احدس سببها . ولن اذكر هنا سوى مثال واحد ، وان كنت استطيع ان اذكر عشرين !.. فلقدعرفت اننى كنتأعد للسيدة دوديتو نسخة من «هيلويز» تكلفت كل صفحة منها مبلغا كبيرا ، فرغبت فى انأعد لها نسخة على الاسس ذاتها . ووعدتها بأن افعل ، ومن ثم وضعتها فى قائمة عملائى ، وكتبت لها بضعة سطور رقيقة وصريحة ، او هكذا كانت نيتى ، على الاقل ، واذا بى اتلقى الرد التالى ، الذى ادهشنى كل الدهشة (الملف «ج» ـ رقم ٤٣) :

« **فرساى** : هذا الثلاثاء

« **انى** لمغتبطة ، وانى لراضية .. ولقد ادخل خطابك على نفسى سرورا لا حد له ، وانى لأبادر الى ان اعلنك بذلك ، والى ان اشكرك من اجله

« هاك نص تعبيرك فى خطابك : « بالرغم من انك عميلة جد طيبة حقا ، فاننى اجد بعض صعوبة فى قبول نقودك . والأحرى

ان يكون على ان ادفع ثمن المتعة التى سأحظى بها اذ اعمل من اجلك » . ولن اذكر هذا الموضوع مرة اخرى !

« يؤسفنى ويقلقنى انك لا تحدثنى قط عن صحتك ، فليس ثمة ما يهمنى اكثر منها . اننى احبك من كل قلبى . . وانه ـ كما أؤكد لك ـ لأمر محزن حقا ان اطلعك على هذا ، الا اننى كنت أؤثر ان احظى بغبطة قوله لك بلسانى !

« ان السيد دى لوكسمبورج يحبك ، ويقبلك من كل فؤاده ! »

وما ان استلمت هذا الخطاب ، حتى سارعت الى الاجابة عنه ـ قبل ان افحصه فحصا مليا ـ لأحتج ضد التأويل غير اللائق . وبعد ان عكفت عدة ايام على هذا الفحص ، فى قلق يسهل تصور مداه ، ودون أن افقه شيئا من الأمر ، وجدتنى فى النهاية اكتب ردى النهائى بهذا الصدد :

« مونمورنسى : ٨ ديسمبر ١٧٥٩

« فحصت الفقرة التى ترجمت اليها خطابى ، مائة مرة ومرة ، منذ رسالتى الأخيرة . ولقد تأملتها من حيث معناها الطبيعى الصحيح ، وتدبرتها على ضوء كل معنى يمكن ان تحمله ، وانى لأعترف ، يا سيدتى المارشالة ، بأننى لم أعد ادرى ما اذا كنت انا الذى يدين لك بالاعتذارات ، او انه يجدر بك أن تكونى انت المدينة بها لى »

ولقد انقضت الآن عشر سنوات مذ كتبت هذه الرسائل . وكم من مرة فكرت فيها ، منذ ذلك الحين . . ولا ازال ـ حتى فى يومى هذا ـ فى غباء من هذا الموضوع ، حتى اننى لم استطع ان افهم ما الذى يحتمل ان تكون قد وجدته فى تلك الفقرة . . ولن اقول انها وجدت شيئا ماسا ، ولكنه من المحتمل ان يكون مكدرا .

اما عن النسخة المخطوطة من « هيلويز » ، التى رغبت

السيدة دى لوكسمبورج فى ان تقتنيها ، فخايق بى ان اذكر هنا ما كنت قد عزمت على ان افعله ، لكى اضفى عليها امتيازا خاصا ، دون بقية النسخ جميعا . ذلك اننى كنت قد كتبت مغامرات اللورد ادوارد مستقلة،وكنت قد ظللت طويلا مترددا، لا اقطع بما اذا كنت اضمها ــ سواء كاملة ، او بعض فقرات منها ــ الى هذا الكتاب ، الذى كانت تلوح انها غير متمشية معه . ولقد قررت فى النهاية ، أن أحذفها كلها ، لأن عدم اتساقها مع اسلوب بقية الكتاب ، كان كفيلا بأن يفسد بساطته المؤثرة . ثم وجدت سببا أقوى ، عندما تعرفت الى السيدة دى لوكسمبورج. فلقد كانت فى تلك المغامرات مركيزة رومانية ذات شخصية بالغة التهتك . وكان من الممكن ان يحاول بعض من كانوا لايعيرون السيدة المارشالةالا بسمعتها ، ان يربطوا بين صفاتها وبعض صفات تلك المركيزة ، بالرغم من انه لم تكن ثمة علاقة بين الاثنتين . . لذلك غبطت نفسى على القدر الذى اتخذته ، وآليت أن أتشبث به . ولكننى فى رغبتى العارمة في ان أزيد من قيمة نسخة السيدة دى لوكسمبورج بشيء لم تتضمنه النسخ الاخرى . . ألم يكن يحسن بى ان اتذكر هذه المغامرات المشئومة، وان ارسم خطة لكى استخلص

لوحة رسمها الراهب جيرار ــ الذى كان ناقما على روسو والفلاسفة ــ وقد تمثل فيها الأسقف ، بطل قصة روسو ــ « أسقف من سافو » وهو يعود الى حظيرة الايمان .

←

شيئا منها اضيفه الى النسخة ؟ .. كان مشروعا اخرق،لايمكن للمرء ان يعزو الاندفاع اليه ، الا الى القـدر الاعمى الذى كان يجرنى الى هلاكى

Quos Volt Perdere Jupiter, Dementat (١)

ولقد كنت من الحماقة بحيث اعددت هذا الاقتباس بكثير من العناية ، وبكثير من الجهد ، وارسلتها اليها وكأنها اجمل شىء فى الدنيا . واخبرتها ـ فى الوقت ذاته بأننى قد احرقت النسخة الاصلية ، وهو ما كنت قد فعلته حقا ، ومن ثم فانها الوحيدة التى كانت تمتلك هذه القطعة ولن يقدر لانسان سواها ان يراها ، الا اذا اطلعته هى عليها . **ولكن هذا العمل كان ابعد من ان يثبت لها حكمتى وحصافتى ـ كمـا كنت اتوقع ـ اذ انه لم يوح اليها الا بالفكرة التى كانت قد خطرت لى، عن الشبه بين بطله المؤلف وبينها ، وهو مالا بد قد آذى شعورها .** على ان غبائى كان من الافراط بحيث اننى لم استشعر اى شك فى انها خليقـة بأن تبهر بما فعلت .. ولم تمتـدح لى عملى بالتحمس الذى كنت اتوقعه ، بل انها ـ لدهشتى البالغة ـ لم تتحدث الى قط عن المخطوط الذى ارسلته اليها . وما حدست الأمر ـ لفرط ما كنت مغتبطا بتصرفى ـ الا بعد امد طويل ، وبسبب ظواهر اخرى ، كانت مترتبة على ذلك !

* * *

• **أما** نسختها المخطوطة من الكتاب الأصلى ـ « هيلويز » ـ فقد واتتنى فكرة أخرى بصددها،كانت اكثر حكمة من سابقتها، ولكنها كانت ـ فى اثرها البعيد ـ تكاد تعادلها اساءة الى . فلكم

---

(١) بيت من الشعر القديم ، اعتاد كتاب القرن السادس عشر ـ فى فرنسا ـ ان يدسوه فى كتاباتهم ، ومعناه ان الاله « جوبتير » يطيش ـ او يمحو ـ عقل اولئك الذين يقضى عليهم بالهلاك .

يساهم كل شىء فى مساعدة القدر ، عندما يدفع بانسان الى الشقاء ! .. فلقد كانت فكرتى هى ان ازين هذه النسخة المخطوطة بصور من لوحات « جولى » ، التى تصادف ان كانت صفحاتها من عين حجم صفحات المخطوط . فطلبت هذه الرسوم من «كوانديه» اذ انها كانت ملكا لى بكل حق مشروع فضلا عن اننى كنت قد تركت له ما درته هذه الرسوم من ربح، اذ انها كانت قد لقيت رواجا عظيما . **على ان « كوانديه » كان اكثر خبثا ، مما كنت انا عكس الخبث ! .. وقد ادى الحاحى فى طلب هذه الرسوم ، الى ان يحدس الغرض الذى كنت اريدها من اجله . ثم أغرانى بأن ادعها معه ، زاعما انه سينقحها وما لبث ــ فى النهاية ــ أن قدمها الى السيدة بنفسه ! .**

(١) Ego Versiculos Feci. Tulit Alter Honores

ولقد ادى هذا الى دخوله قصر دى لوكسمبورج ، وحظوته بمكانة معينة . وكان ــ منذ استقرارى فى القصر الصغير ــ يكثر من زيارتى ، ويختار الصباح دائما موعدا لهذه الزيارة ، لا سيما عندما كان يتصادف وجود السيد والسيدة دى لوكسمبورج فى (مونمورنسى) . وكان هذا يؤدى الى ان لا اذهب الى القصر اطلاقا ، لكى اقضى معه سحابة الصباح . وكنت الام على هذا التغيب ، فأذكر السبب ، فأقابل بالحاح فى دعوة السيد « كوانديه » الى القصر .. وقد فعلت ، وكان هذا عين ما ابتغاه الوغد !.. وهكذا كان للأفضال الكريمة العارمة ، التى كانت تغدق على ، اثرها الكبير فى أن الكاتب الأجير لدى السيد « ثيلوسون » والذى كان يدعى احيانا الى مائدة مخدومه ــ عندما لا يكون ثمة ضيف آخر يؤنس السيد ــ وجد نفسه فجأة على مائدة احد قادة فرنسا العظام ، مع الامراء ، والسيدات الدوقات ، وكل اصحاب المكانة العليا فى البلاط الملكى !

---

(١) من شعر « فيرجيل » : « أنا انظم الشعر وغيرى يجنى المجد » !

ولن انسى البتة انه كان مضطرا الى العودة الى باريس مبكرا — ذات يوم — فقال السيد المارشال للحضور ، عقب الغداء : « تعالوا نسر على الطريق المفضية الى (سان — دنيس) ؛ لنرافق السيد «كوانديه». ولم يقو الفتى البائس على الاحتمال فدار رأسه لهذا الكرم . اما انا ، فقد اهتز قلبى ، حتى اننى لم اقو على ان انبس بكلمة واحدة . وسرت وراء القوم ، وانا ابكى كالطفل ، واموت لهفة على ان اقبل مواقع قدمى هذا المارشال الطيب .. على ان استئناف قصة ذلك الكتاب المنسوخ ، جعلنى استبق الزمن الى هذه الواقعة . فلنعد الى الأحداث وفقا لنظام ورودها ، بقدر ما تسمح لى ذاكرتى .

* * *

• لم يكد العمل فى البيت الصغير فى (مون — لوى) يفرغ ، حتى فرشته بأثاث مناسب وبسيط ، وعدت الى الاقامة فيه ، غير قادر على ان انبذ ذلك القانون الذى وضعته لنفسى اذ غادرت (ليرميتاج) ، واعنى به ان يكون مقامى دائما فى مسكن امتلكه . على اننى — مع ذلك — لم استطع ان اقطع بالتخلى عن مسكنى فى « القصر الصغير » ، ومن ثم فقد ظللت محتفظا بمفتاحه ، وكنت كثيرا ما انام هنــاك — لفرط ولعى بالفطور البديع فى الرواق — كما كنت اقضى فيه يومين أو ثلاثة ، فى بعض الأحيان ، وكأنه بيت خلوى للترويح عن النفس . ولعلنى كنت احظى — فى تلك الفترة — بمساكن اكثر اراحة ولياقة مما كان يحظى به اى فرد عادى فى اوروبا . ذلك لأن صاحب الدار التى كنت اسكنها — السيد متى ، الذى كان خير رجل فى الدنيا — ترك لى الاشراف الكلى على عمليات الاصلاح فى (مون — لوى) ، وأصر على ان استخدم عماله وفق ماكنت أهوى دون أى تدخل فيه . وقد وجدت ما مكننى من ان اجعل من غرفة واحدة فى الطابق ، الأول جناحا كاملا مؤلفا من حجرة

للنوم ، وحجرة اخرى ملحقة بها ، وخزانة كبيرة للثياب . وفى الطابق الارضى ، كان ثمة المطبخ وحجرة تيريز . اما الشرفة فقد تحولت الى حجرة للمكتب ، بعد اقامة حاجز زجاجى ، وادخال مدفأة عليها . ولقد رحت اتسلى - كلما كنت هناك - بزخرفة الشرفة الخارجية ، التى كانت تقبع تحت ظلال صفين من أشجار الزيزفون الصغير . فغرست صفين آخرين ، لأقيم ايكة دائمة ، وعملت على اقامة بضع ارائك حجرية هنـاك ، واحطتهـا بالشجيرات ذات الزهر الأبيض ، وباللبلاب ، وزهر الجبل . واقمت سياجا بديعا من الزهور ، موازيا لصفى الاشجار .. ولما كانت هذه الايكة اكثر ارتفاعا من شرفة القصر - وكان المنظر الذى تشرف عليه لا يقل عن ذاك الذى تشرف عليه الأخرى ، وقد عمرها عدد من الطيور التى استألفتها واستأنستها - فاننى جعلت منها حجرة استقبال اذا ما وفد على ضيوف ، كالسيد والسيدة دى لوكسمبورج ، والسيد الدوق دى فيلروى ، والسيد الامير دى تينجرى ، والسيد المركيز دارمنتيير ، والسيدة الدوقة دى مونمورنسى ، والسيدة الدوقة دى بوفلير ، والسيدة الكونتة دى فالينتينوا ، والسيدة الكونتة بوفلير . وغيرهم ممن كانوا فى مكانتهم ، والذين كانوا يتفضلون بتجشم عناء صعود طريق متعبة ، من القصر الى (مون - لوى) . **وقد كنت مدينا بالحظوة بكل هذه الزيارات ، الى السيد والسيدة دى لوكسمبورج وقد كنت المس هذا ، فكان قلبى يطفر بالعرفان بأفضالهما . ولقد حدث فى احدى نوبات التأثر العاطفى ، ان قلت للسيد دى لوكسمبورج : ((آه ، ياسيدى المارشال !.. لقد كنت أكره العظماء قبل ان اعرفك ، وانا الآن اكثر كراهية لهم ، منـذ جعلتنى اشـعر كم يسهل عليهم ان يجعلوا انفسهم موضـع حب واعجاب !))**

وفيما عدا ذلك ، فاننى اسائل كل اولئك الذين عرفونى

اثناءهذه المدة ، عما اذا كانوا قد لاحظوا ان هذه اللمحة من الذكاءقد بهرتنى لحظة ، وما اذا كان دخان هذا البخور قد صعد فى رأسى، وعما اذا كانوا قد رأونى اقل تمشيا مع طباعى، واقل بساطة فى مسلكى، واقل تلطفا مع الناس ، واقل الفة مع جيرانى ، واقل استعدادا لمعونة كل امرىء عندما يكون ذلك فى مكنتى ، دون ان اتعرض للضر الذى يترتب على السخافات والسفاهات التى لا حصر لها ، والتى كثيرا ما تنطلق فى غير حكمة ، فتورثنى الحرج دون انقطاع ؟ ..

واذا كان قلبى قد اعتاد ان يجتذبنى نحو قصر مونمورنسى، نظرا لصادق تعلقى بصاحبيه ، فانه كان لا يلبث ان يردنى بنفس الطريقة الى جيرتى ، لاتذوق حلاوة هذه الحياة المسترسلة البسيطة، التى لم يكن لى من سبيل الى السعادة خارج نطاقها. ولقد اتصلت روابط الصداقة بين تيريز وابنة واحد من جيرانى، كان يعمل فى البناء – ويدعى بيلو – فحذوت حذوها مع الاب ..
وكنت اتناول الغداء فى القصر ، فى الظهيرة – وانا كاره بعض الشىء – رغبة فى ارضاء السيدة المارشالة، وكنت أعود فى المساء، لأتناول العشاء مع بيلو الجليل واسرته ، فى بيته احيانا ، وفى بيتى احيانا أخرى

والى جانب هذين البيتين ، سرعان ماوجدت ثالثا فى قصر دى لوكسمبورج ، بباريس ، اذ راح صاحباه يلحان على فى اخلاص كى ازورهما فى بعض الأحيان ، حتى اننى استجبت لهما ، رغم نفورى من باريس ، التى لم اذهب اليها – عقب اعتكافى فى ليرميتاج – الا فى المناسبتين اللتين ذكرتهما من قبل .. وحتى اذ ذاك ، ما كنت اذهب الا فى ايام محددة من قبل ، لمجرد تناول العشاء ، ثم اعود فى الصباح التالى ، وكنت ادخل القصر واغادره خلال الحديقة المتصلة بالطريق المؤدية من الريف ، بشكل استطيع معه ان اقول – بكل صدق – اننى لم اضع

قدما على ارض باريس المرصوفة !

* * *

• وفى غمرة هذا الرخاء العابر، راحت النكبة ـ التى حددت نهايته ـ تتجمع على البعد . فلقد عقدت ـ عقب عودتى للاقامة فى (مون ـ لوى) ـ تعارفا جديدا ، بالرغم منى، كالمعهود .. تعارفا يعتبر بداية مرحلة فى تاريخى . ولسوف يبدو ـ فيما يلى ـ ما اذا كان هذا التعارف طيبا أو سيئا .

أما الطرف الآخر فيه، فكانت السيدة المركيزة دى فيرديلان، جارتى التى كان زوجها قد ابتاع منزلا ريفيا فى (سواسى)، على مقربة من (مونمورنسى) . ولقد كانت الآنسة «دارس» ، ابنة للكونت دارس ، الذى كان رجلا ذا مكانة ، ولكنه كان فقيرا .. ثم تزوجت من السيد دى فيرديلان، وكان كهلا، قبيح الشكل، أصم ، جاف الخلق ، قاسى الطبع ، غيورا ، مشوه الخلقة بالندوب ، أعور .. ولكنه كان ـ فيما عدا ذلك ـ رجلا طيبا ، اذا ما عرف المرء كيف يفهمه .. وكان يمتلك ما بين خمسة عشر ألفا وعشرين ألفا من الليبرات دخلا سنويا ، من اجله زفت الفتاة اليه !. **وكان هذا الرجل العجيب يتوعد، ويصرخ، ويزمجر ، ويفرى ، ويبكى امرأته طيلة النهار ، ولكنه ينتهى دائما بأن ينفذ ما ابتغت هى، بعد أن يكون قد أحنقها .. فلقد كانت تعرف كيف تجعله يعتقد انه هو ـ وليس هى ـ الذى كان يبتغى ذلك الشىء المنشود !**

ولقد كان السيد دى مارجينسى ـ الذى تحدثت عنه من قبل ـ صديقا للسيدة ، وأصبح صديقا لزوجها كذلك . وقد أسكنهما ـ منذ بضع سنوات ـ بالأجر ، فى قصره القائم فى (مارجنيسى) ، على مقربة من (أوبون) و (أرديى) وهناك ، كانا يقيمان فى فترة هيامى بالسيدة دوديتو . ولقد تعرفت كل من السيدة دى فيرديلان وهذه الأخيرة ، عن طريق صديقتهما

المشتركة، السيدةدوبيتير . ولما كانت حديقة قصر مارجينسى تقع على الطريق التى اعتادت السيدة دوديتو ان تسلكها — فى رياضتها المحببة اليها — الى (مونت اوليمب) ، فان السيدة دى فيرديلان اسلمتها مفتاحها ، لتستطيع ان تمر خلال الحديقة . **وبفضل هذا المفتاح ، كنت أسعى اليها فى كثير من الاحيان ، ولكننى لم أكن مولعا باللقاءات غير المرتقبة ، وكنت اذا قابلتنا السيدة دى فيرديلان مصادفة ، أتركهما دون أن أنبس بكلمة ، وأمضى فى سيرى . وما كان هذا المسلك غير اللبق ، ليعطيها فكرة طيبة عنى . ومع ذلك ، فانها سعت الى صحبتى عندما كانت فى (سواسى) !**

ولقد وفدت على (مون — لوى) عدة مرات لتقابلنى ، دون ان تجدنى فى البيت . فلما لم أرد زياراتها هذه ، رأت ان ترسل الى بعض اصص الزهور لأزين بها أيكتى، لكى تضطرنى الى ان أزورها . ووجدتنى مسوقا الى الذهاب اليها وشكرها. وكان فى هذا ما يكفى لأن يتم التعارف !

ولقد كانت هذه العلاقة عاصفة فى بدايتها ، شأن كل علاقة كنت أعقدها بالرغم منى .. بل انها لم تكن يوما هادئة ، فى الواقع ، فان اتجاه عقل السيدة دى فيرديلان ، كان مخالفا اكثر مما ينبغى لاتجاه عقلى . وكانت تطلق ألفاظ السوء والسخرية المتوارية بكثير من البساطة ، حتى انها كانت تتطلب من المرء انتباها مستمرا — ومرهقا بالنسبة لى — لكى يدرك متى كان يحلو لها ان تهزأ به !.. وتحضرنى احدى نوادر عبثها وسفاهتها ، التى تكفى للحكم عليها. فلقد حدث ان عين أخاها قائدا لسفينة حربية(فرقاطة)، كانت فى طريقها ضد الانجليز. وقدر لى أن أتحدث عن طريقة تسليح هذه الفرطاقة، دون ان أمس سرعتها بنقد ، واذا بها تقول ، بدون ان تغير لهجتها : «اجل.. ان المرء لايأخذمنالمدافع الا القدراللازملهزيمته» !..

ونادرا ما سمعتها تقول خبرا عن أى من اصدقائها الغائبين ،

اللهم الا اذا دست خلاله شيئا ضدهم . وكانت تسخر ممن لا تجد فيه سوءا ، ولم تستثن من ذلك صديقها مارجينسى !

ومن الأمور التى وجدت انها لاتطاق منها ، ذلك الازعاج المستمر الذى كان يتمثل فى رسائلها الصغيرة ، وهداياها البسيطة ، وقصاصاتها التى كنت اضطر الى ان اعتصر مخى لكى أجيب عنها، والتى كانت تسبب لى حرجا متجددا، سواء لكى أشكر ، أو لكى أرفض !.. ومع ذلك فاننى لم ألبث أن تعلقت بها، بحكم رؤيتى اياها باستمرار. **فقد كانت ـ مثلى ـ لها شجونها، وكان تبادلنا الفضفضة، يتيح لنا خلوات طريفة. فليس أقوى على ربط القلوب من لذة المشاركة فى اراقة الدموع! .. فكان كل منا ينشد الآخر ، لكى نتبادل التسرية والتعزية، وهذه الحاجة بالذات، كثيرا ما جعلتنى اغفل عن امور كثيرة .**

وكنت قد خشنت كثيرا فى صراحتى معها ، فكان لزاما على ـ بعد ان أبديت أضأل الاحترام لشخصيتها ، فى بعض الأحيان ـ أن أخشى عن حق، ان لايكون بوسعها ان تصفح عنى . وهاكم مثالا للخطابات التى كنت اكتبها احيانا اليها ، والتى يجدر ـ ونحن بصددها ـ ان أذكر انها لم تكن تبدى فى ردودها عنها ، اية بادرة من بوادر الغضب :

« **مونمورنسى** : ٥ نوفمبر سنة ١٧٦٠.

« **تقولين** لى ، ياسيدتى، انك لم تحسنى الافصاح عن نفسك، حتى تجعلينى ألمس اننى اسأت الافصاح عن نفسى . وتحدثيننى عن غبائك المزعوم ، لتنبهينى الى غبائى . وتتشدقين بأنك طيبة ، وكأنك تخشين ان تؤخذى بكلمتك ، كما انك تبدين الاعذار ، لتشعرينى باننى مدين بشىء منها اليك .

« اجل ، ياسيدتى ، انى لأدرك هذا تماما ، فأنا الذى كنت غبيا ، ساذجا ، وأسوأ من هذا ، ان أمكن !.. أنا الذى أسأت اختيار عباراتى ، دون ان أرعى رضاء سيدة فرنسية ، تبدى

كثيرا من الاهتمام الى الأقوال ، وتحسن الحديث ، مثلك . ولكن .. **لاحظى اننى أخذت هذه العبارات على محملها العادى فى اللغة ، دون ان أعرف أو احدس شيئا عن التأويلات التى تعلق بها أحيانا ، فى الأوساط الباريسية الفاضلة . فاذا كانت ثمة تعبيرات تحتمل تأويلات ـ فى بعض الاحيان ـ فاننى احاول بمسلكى ان أحدد معناها .. الخ . »**

وكانت بقية الرسالة بالأسلوب ذاته . فتأمل ردها (الملف « د » ـ رقم ٤١) ، واحكم على مدى الهدوء ، الذى يكاد يفوق التصور ، والذى أوتيه قلب امرأة ، لم تجد ما يستثير سخطها من خطاب كهذا ، سوى ما أوردته فى ردها ، وما ابدته بمسلكها! .. ولم يبطىء « كوانديه » ـ بما عرف عنه من انتهاز للفرص ، وجراة تذهب الى درجة القحة ، وتربص بأصدقائى ـ فى ان يتقدم الى السيدة دى فيرديلان باسمى ، وسرعان ما اصبح اوثق صلة منى بها ، دون ان ادرى .. **لقد كان هذا « الكوانديه » مخلوقا عجيبا ، لامثيل له !.. كان يتقدم باسمى الى جميع معارفى ، فيوطد مكانه فى دورهم ، ويأكل على موائدهم دون كلفة!** وكان فى وفائه المتحمس لى ، لايتحدث عنى اليهم الا والدموع فى عينيه ، ولكنه اذا ما زارنى ، تمسك بأشد الوان التكتم عن هذه العلاقات ، وعن كل شىء كان يشعرنى انه يثير اهتمامى .. وبدلا من ان يذكر لى ما سمعه ، او قاله ، أو رآه ـ مما يهمنى ـ كان يلزم الاصغاء الى ، بل ويوجه الى الاسئلة !وما عرف يوما شيئا عن باريس الا ما كنت انبئه به .. وقصارى القول ، انه لم يكن ليحدثنى عن أى امرىء ، فى حين كان كل امرىء يحدثنى عنه . وما كان مغلقا ، غامضا ، الا مع صديقه .. انا ! .

ولكن ، لندع « كوانديه » والسيدة دى « فيرديلان » فى الوقت الحاضر ، فلن نلبث ان نعود اليهما فيما بعد !

* * *

• **حدث** بعد عودتى الى سكنى (مون ـ اوى) بوقت قصير ، ان أقبل الرسام « لاتور » لزيارتى ، وحمل الى صورة رسمها لى بالطباشير « الباستيل » ، وكان قد عرضها بضع سنوات ـ قبل ذلك ـ فى صالة العرض . وكان يرغب فى ان يقدمها هدية لى ، ولكنى أبيت أن أقبلها . غير ان السيدة ديبيناى ـ التى اهدتنى صورتها ، وودت ان تأخذ هذا الرسم ـ كانت قد حملتنى على أن أعدها بأن أطلبه ، فاذا « لاتور » يستغرق بعض الوقت فى تنقيحه . وفى تلك الاثناء ، حدثت القطيعة بينى وبين السيدة ديبيناى ، فرددت اليها صورتها ، ولم أعد أفكر فى أن أهديها صورتى ، ومن ثم فاننى علقت هذه فى غرفتى فى « القصر الصغير » . ولقد رآها السيد دى لوكسمبورج هناك ، فأعجب بها ، ومن ثم فاننى عرضتها عليه ، فتقبلها .. وأرسلتها اليه !

ولقد ادرك والسيدة دى لوكسمبورج اننى خليق بأن أسر اذا ماحصلت على صورتيهما ، فعهدا الى فنان ماهر بأن يرسمهما فى صورتين دقيقتين ، زين بهما صندوقا للحلوى صنع من البللور الصخرى ، على قاعدة من الذهب ، وقدماه الى بطريقة لبقة ، طربت لها . **وما رضيت السيدة دى لوكسمبورج قط**

عن حرصي على أن أجعل صورتها فى الجانب الأعلى من الصندوق.. وكانت كثيرا ماتعتب على ، اننى كنت أكثر حبا للسيد دى لوكسمبورج منى لها . وما دفعت هذا عن نفسي يوما لأنه كان حقيقة . ومن ثم فقد شاءت ان ترينى فى لباقة - ولكن فى وضوح كاف - باصرارها على مكان صورتها ، انها لم تنس هذا الايثار منى لزوجها !

ولقد ارتكبت - حوالى هذه الآونة بالذات - حماقة لم تساعد على احتفاظى بودها ومجاملاتها . فمع اننى لم أكن على تعارف بالسيد دى سيلويت - المراقب العام للمالية - وكنت غير ميال اليه ، الا اننى كنت اعتنق فكرة جد طيبة عن كفاءته الادارية . فلما بدأت قبضته تشتد على رجال المال ، رأيت انه لم يشرع فى هذه الخطة ، فى لحظة مواتية . ومع ذلك ، فاننى رجوت له كل توفيق .. لذلك فقد بادرت دون ترو - حين بلغنى انه أقيل من منصبه - الى كتابة الرسالة التالية اليه .. وهى رسالة لا أحاول - فى الواقع - أن أبررها :

« مونمورنسى : ٢ ديسمبر سنة ١٧٥٩

« تكرم يا سيدى ، فتقبل احترام رجل معتزل ، غير معروف لديك ، ولكنه يقدر فيك مواهبك ، ويحترمك لكفاءتك الادارية ، وقد كرمك بأن أيقن بأن هذه الادارة لن تبقى فى يديك طويلا . انك جرؤت على ان تواجه صيحات جامعى المال ، اذ رأيت أن ليس فى وسعك انقاذ الدولة الا على حساب رأس المال الذى أودى بها الى الدمار ، ولقد غبطتك على منصبك ، اذ رأيتك تسحق هؤلاء الأنذال .. وانى اليوم لأكبرك ، اذ أراك تغادره دون أن تكذب نفسك ! .. فاهنأ بنفسك يا سيدى ، فقد اجداك موقفك شرفا ستظل تنعم به ، دون منازع ، أمدا طويلا .. ان ترهات الأوغاد لمجد للرجل المستقيم » !

سنة ١٧٦٠

• ولقد حدثتنى السيدة دى لوكسمبورج عن هذا الخطاب

ـ وكانت تعلم انني كتبته ـ عندما أقبلت فى عطلة عيد الفصح ، فأطلعتها عليه .. ورغبت فى الحصول على نسخة منه ، فأعطيتها بغيتها ، ولكنني كنت أجهل ـ اذ قدمتها اليها ـ انها كانت من «جامعي المال» الذين كانوا يهتمون بالمضاربات خارج «البورصة» ، والذين عملوا على اقالة «سيلويت» . **ومن الجدير أن يقال ، انني بدوت وكأنني كنت أستنهض عامدا بغضاء سيدة لطيفة وذات نفوذ ، كنت ـ فى الواقع ـ أزداد تعلقا بها يوما بعد يوم ، وكنت بعيدا كل البعد عن أن أرغب فى أن أجر على نفسي سخطها ، بالرغم من انني كنت ـ بتصرفاتي الرعناء المتكررة ـ أفعل كل ما يتطلبه ذلك** . واعتقد أن لا حاجة بي الى أن أذكر أن الى هذه السيدة بالذات ، تعزى قصة الدواء الملين للمعدة الذى وصفه السيد ترونشان ، والذى تحدثت عنه فى الجزء الاول من اعترافاتي (١) .. أما السيدة الأخرى ، التى كانت معها ، فهى السيدة دى ميربوا ، وما ذكرت لى أى منهما هذا الموضوع مرة أخرى ، ولا أبدت أية بادرة توحي بأنها تذكره ، ولكن افتراض ان تكون السيدة دى لوكسمبورج قد نسيته حقا ، أمر عسير ، وان لم يقدر للمرء ان يعرف الحوادث التى أعقبته . اما أنا ، فقد كنت أحاول أن أطمئن نفسي من أمر حماقاتي متوسلا لذلك بأنني لم أكن أصدر فى أى من هذه الحماقات عن قصد الايذاء ، وكأنما كان من المحتمل ان تغفر امرأة امورا من هذه القبيل ، ولو كانت على أتم يقين من انها لم تكن متعمدة !

ومع ذلك ، فبالرغم مما كان يلوح عليها من انها لم تكن ترى شيئا ، أو تحس بشيء ، وبالرغم من انني لم استشعر اى تضاؤل فى شعورها ، ولا تغير فى تصرفاتها الا ان هاجسا

---

(١) ذكرت القصة فى الكراسة الثالثة (صفحة ١٨٦ ـ الجزء الاول)

خفيا – لم يكن منبعثا الا عن اساس مكين – راح يوحى الى دون انقطاع ، بأن النفور لن يلبث ان يعقب هذا الهيام .
افكان لى ان اتوقع من سيدة عظيمة القدر – الى هذا الحد – ثباتا ووفاء يكون بمأمن من غبائى وضعف حيلتى ؟ .. اننى لم اكن أعرف أن أخفى عنها شيئا ، حتى هذا الهاجس الذى راح يقض راحة بالى ، ولم يزدنى الا جفاء وانطواء . وهذا مايمكن رؤيته فى الخطاب التالى ، الذى انطوى على نبوءة عجيبة

تنبيه : هذا الخطاب الذى لم تحمل مسودته تاريخا ، كتب فى شهر اكتوبر سنة ١٧٦٠ ، على أكثر تقدير

« **ما أقسى افضالك !** .. لماذا تعكرين طمأنينة شخص وحيد معتزل ، نبذ ملاذ الحياة لكى يستشعر مزيدا من الملل منها ؟.. لقد قضيت أيامى أبحث عبثا عن علاقات ودية ثابتة . ولقد عجزت عن أن أوطد شيئا منها ، فى الأوساط التى كنت أملك اليها وصولا .. أفكان على أن أبحث عنها فى أوساطك أنت ؟

« **ليس للطموح ولا للمصلحة الذاتية اغراء لدى ، فأنا مغرور بعض الشيء ، هياب بعض الشيء ، وبوسعى ان أقاوم كل شيء ، الا العواطف ! .. فلماذا تهاجماننى معا فى ضعف يجب أن أتغلب عليه ، ما دام تدفق القلوب الحساسة لن يقوى على ان يقربنى منكما ، نظرا للبون الذى يفصل بيننا ؟**

« أفيكون العرفان كافيا لقلب لا يعرف رياء ، ولا يشعر بأنه قادر الا على الصداقة ؟.. الصداقة ياسيدتى المارشالة !.. آه ! هنا مصدر تعاستى ! .. من الجميل منك ، ومن السيد المارشال ، ان تستخدما هذه الكلمة ، ولكنى احمق اذ أصدق انكما تعنيانها ! .. انكما تلهوان لتسريا عن نفسيكما ، أما أنا فأتعلق بوفاء ، فاذا نهاية اللهو تعدنى لحسرات جديدة ! .. لكم أكره كل ألقابكما ، ولكم أرثى لكما اذ تحملانها ! .. انكما لتبدوان – فى نظرى – جديرين بأن تتذوقا كل مفاتن الحياة

الخاصة ، المغمورة ! .. لم لا تقيمان فى (كلاران) ؟ .. اننى لأتوق الى ان انشد هناك هناء حياتى ، أما قصر مونمورنسى ، وأما قصر لوكسمبورج !؟..أفهناك تنبغى رؤية جان جاك ؟.. افهناك ينبغى لواحد من أصدقاء المساواة ان يروى عواطف قلب حساس ، يخشى ــ اذ يدفع بهذا الشكل ثمن التقدير الذى أبدى اليه ــ ان يعطى أكثر مما يتسلم ؟

« انكما طيبان وحكيمان كذلك ، وانى لأدرى ذلك، وقد رأيته. وانى لآسف على اننى لم استطع ان أصدقه قبل الآن . على اننى اذ أقدر الطبقة التى تنتميان اليها ، والأسلوب الذى تعيشان عليه ، أرى أن لا شىء يستطيع ان يترك طابعا باقيا فى نفسيكما . ومن ثم فان أشياء كثيرة تتعاقب لديكما ، فيمحو كل منها الآخر ، ولا يقدر لأحد ان يبقى دائما ! »

« لسوف تنسيننى ياسيدتى ، بعد ان جعلتنى أعجز ما أكون عن أن أحذو حذوك فأنسى أنا الآخر . لقد خلقت لكى تجعلين منى انسانا شقيا ، دون ان يكون لك العذر ! »

☆ ☆ ☆

• **وما** قرنت اسم السيد دى لوكسمبورج باسمها ، الا لأخفف من جفوة الرسالة ، وفيما عدا ذلك ، فقد كنت واثقا منه ، فلم أشعر بالقلق لحظة ازاء دوام صداقته ، وما قدر لشىء من الهواجس التى راودتنى بشأن زوجته ، ان يمتد اليه !.. ابدا ما شعرت بأقل تزعزع فى ثقتى بشخصيته ، التى كنت أعرف انها ضعيفة ، ولكنها أهل للثقة ، فما كنت اخشى فتورا من ناحيته ، الا بقدر ما كنت أترقب منه اقداما بطوليا!.. كانت بساطة وألفة علاقاتنا تبين كيف كان كل منا يركن الى الآخر . **وقد كنا معا على صفاء ، ولسوف أظل ما حييت أمجد ذكرى هذا السيد الفاضل وأعتز بها .. ومهما تكن المحاولات التى بذلت كى تباعد بينه وبينى ، فسأبقى مطمئنا**

الى انه مات وهو صديق لى .. كما لو كنت قد تلقيت آخر أنفاسه !

ولقد انتهت مطالعات «جولى» فى زيارتهما الثانية لمونمورنسى، فى سنة ١٧٦٠ . وكان على ان انتقل الى « اميل » لكى ابقى مع السيدة دى لوكسمبورج ، ولكن هذا الانتقال لم يكن موفقا، اما لأن الموضوع لم يرق لها ، واما لأنها كانت قد ملت كل هذه المطالعات . ومع ذلك ، فانها رغبت ـ وهى تلومنى على ان تركت نفسى لتغرير الناشرين بى ـ فى ان اترك لها طبع الكتاب ونشره حتى ، تستطيع ان تعقد صفقة أفضل . ووافقت على اقتراحها ، مشترطا ان لا يطبع الكتاب فى فرنسا .

وهذا ماقام بيننا خلاف طويل حوله . فقد كنت ارى ان من المستحيل الحصول على اذن بطبعه فى المملكة ، وان ليس من الحكمة طلب هذا الاذن .. وما كنت ـ فى الوقت ذاته ـ لأقبل ان يطبع فى فرنسا بغير ذلك . أما هى ، فكانت ترى ان هذا ليس بالأمر العسير ـ من ناحية الرقابة ـ تحت النظام الذى انتهجته الحكومة . وقد وجدت الوسيلة التى جعلت بها السيد دى ماليزيرب يقرها على آرائها ، فكتب الى رسالة طويلة ، لكى أقر بأن كتاب **« عودة أسقف سافوا الى الايمان »** هو عين ما يجب أن يقابل بالتحبيذ من كل الجنس البشرى فى كافة الأرجاء ، بل وفى البلاط الملكى ، فى تلك الظروف ! .. وعجبت اذ وجدت هذا الموظف المسئول ، الذى كان بطبيعته رعديدا ، قد تساهل فى هذه المسالة الى هذا الحد !

ولما كانت مجرد الموافقة منه كافية لاجازة طبع الكتاب قانونا ، فاننى لم أعد أملك أى اعتراض . على اننى ـ بسبب نذير خفى غريب هجس فى نفسى ـ ظللت أصر على أن يطبع الكتاب فى (هولندا) ، وبوساطة المكتبى « نياولم » ، الذى لم أكتف بأن أرشدت اليه ، بل اننى كتبت اليه استشيره .

ووافقت على ان تكون الطبعة لحساب ناشر فرنسى ، أى أن يتم

اعدادها فى (هولندا) ، وتباع فى باريس ، أو فى أى مكان آخر ، فما كان البيع ليعنينى فى شىء . وهذه هى عين النقاط التى اتفقت عليها مع السيدة دى لوكسمبورج ، والتى اسلمتها المخطوط بعد ابرامها .

* * *

• **وكانت** قد احضرت معها ـ فى هذه الرحلة ـ ابنة اختها ، الآنسة دى بوفلير ، وهى الآن السيدة دوقة دى لوزون . وكان اسمها « آميلى » .. ولقد كانت فتاة فتانة ، وكان وجهها ، ورقتها ، وخفرها ، تجمل براءة العذارة الحقيقية . فما كان ثمة ما هو ألطف ولا أدعى للاهتمام من وجهها ، ولا كان هناك ما هو أكثر طهرا من المشاعر التى كانت تثيرها فى النفس ! .. ولا غرو ، فقد كانت طفلة ، لم تتجاوز العام الحادى عشر من عمرها . واذ وجدتها السيدة المارشالة بالغة الحياء ، راحت تبذل قصارى وسعها لتخرجها من هذا الخجل . فسمحت لى مرارا بأن اقبلها ، الأمر الذى أقدمت عليه بحيائى المعهود . وبدلا من المداعبات اللطيفة التى كان اى امرىء آخر خليقا بأن يقولها ـ اذا ما كان فى موضعى ـ ظللت صامتا ،

عييا .. فلم أدر من كان أكثرنا حيـاء : الصغيرة المسـكينة ، أم أنا ؟ ..

وفى ذات يوم ،صادفتها وحيدة على سلم « القصر الصغير »، وكانت قد اقبلت لتزور تيريز ، حيث كانت مربيتها فى زيارتها . واذ لم أدر ما ينبغى أن أقوله لها ، سألتها أن تمنحنى قبـلة ، فلم تأبها على ، بكل ما فى قلبها من براءة وطهر ، لا سيما وانها كانت قد منحتنى قبلة أخرى فى صباح اليوم ذاته ، بأمر من خالة امها ، وفى حضورها .

وفى اليوم التالى ، صادفت ـ وأنا أقرأ «أميل» على السيدة المارشالة ـ فقرة حرمت فيها ، بحجة قوية ، عين الشىء الذى كنت قد فعلتـه ـ أنا نفسى ـ فى اليوم السابق . ووجـدت السيـدة ان ما ذهبت اليـه ـ فى تلك الفقرة ـ كان صوابا ، وأبدت بعض ملاحظـات معقولة ، جعلتنى اتضرج خجـلا .

لكم ألعن غبائى الذى يفوق التصور ، والذى كثـيرا ما جعلنى أبدو خبيثا ، آثما ، فى حين اننى لم أكن أكثر من أحمق ، سريع الارتباك ! .. ولقد كانت حماقتى من ذلك النوع الذى يؤخذ على أنه عذر زائف ، من رجـل عرف عنـه انه ذكى ! .. ان بوسعى أن أقسم على أن تلك القبلة كانت خالية من كل ما يستحق اللوم ، وان قلب الآنسة « آميلى » وعواطفهـا ، لم تكن ـ فى هذه الناحية ـ أطهر من قلبى وعواطفى أنا ! .. بل ان بوسعى كذلك أن أقسم اننى لو كنت قد استطعت ـ فى تلك اللحظة ـ أن أتحاشى لقاء الصبية لفعلت ، اذ اننى ـ بالرغم من سرورى لمرآها ـ كنت فى حيرة بالغة ، لا أكاد أجد شيئا مناسبا أقوله لها وأنا أمر بها .

ترى كيف يتسنى لطفلة ان تبعث الارتباك لدى رجـل لم يستطع سلطان الملوك ان يرهبـه ؟ .. أى قرار يتخذ ؟ .. وكيف يتصرف ، اذا هو تجرد فجأة من حضور ذهنه ؟.. اننى

ديدرو

اذا غصبت نفسى على الحديث الى من أقابلهم من النـاس ، فلست أقول سوى هذيان لا يفهم .. واذا انا لم اقل شيئا ، اتهمت بأننى انفر من البشر ، وبأننى حيـوان وحشى ، وبأنى دب ! .. لقد كان الغباء الكامل أحب الى من هذه الحال ، ولكن المواهب التى كانت تعوزنى فى صحبة الناس ، هى التى جعلت تلك التى أملك ، أداة لدمارى !

وفى نهاية مقام السيدة دى لوكسمبورج ـ فى هذه الزيارة ـ قامت بعمل طيب ، كان لى فيه نصيب . فقد حدث ان اهان «ديدرو» ـ فى تهور بالغ ـ السيدة الاميرة دى روبيك ، وكانت من بنات السيد دى لوكسمبورج . ولقد انتقم لها الأديب الذى

يتمتع برعايتها ، « باليسو »، بمسرحيته الهزلية « الفلاسفة »، التى تعرضت انا فيها للسخرية ، كما عومل فيها « ديدرو » بقسوة عنيفة . وما كان المؤلف اكثر اشفاقا على ، منه على « ديدرو » ، مراعاة لالتزامات كانت تفرض عليه ذلك نحوى، بقدر ماكان ذلك لخوفه من ان يغضب والد السيدة التى كانت ترعاه ، فقد كان يعرف ان السيد دى لوكسمبورج كان حفيا بى ، ودودا نحوى ! ..

ولقد ارسل الى « دوشين » الكتبى ــ الذى لم اكن قد تعرفت اليه ، اذ ذاك ــ نسخة من المسرحية ، عندما طبعت فحدست انه ما فعل ذلك الا بايعاز من « باليسو » ، الذى ربما خال اننى قد ابتهج لمرآى رجل ــ فصمت عرى الصلات معه ــ يمرغ فى التراب . **ولكنه اخطأ فى هذا خطأ مفرطا ، فمع اننى كنت قد قطعت مابينى وبين « ديدرو » ــ الذى كنت اؤمن بأنه ضعيف ، وغير أمين على الاسرار ــ اكثر منه خبيث ــ الا اننى احتفظت له فى قلبى بشعور من الولاء ، بل ومن الاكبار والاحترام، نظرا لصداقتنا القديمة، التى اوقن من انها كانت ــ لزمن طويل ــ خالصة صادقة ، من ناحيته ، كما كانت من ناحيتى .**

على ان الامر يختلف بالنسبة الى جريم، الذى كان غشاشا خادعا ، والذى لم يحبنى اطلاقا ، بل وما كان بقادر على الحب، والذى تحول فى الخفاء فأصبح أقذع الشانئين لى، دون اى مبرر، اللهم الا الرغبة فى ارضاء غيرته الحاقدة ! .. وما كان هذا بالشخص ذى القيمة لدى ، اما الآخر ، فسيظل دائما صديقى القديم . ومن ثم فقد تحركت فى فؤادى ارق المشاعر ، عندما رأيت تلك المسرحية البغيضة ، ولم اقو على المضى فى قراءتها ، بل اننى رددتها الى « دوشين » ولما اتمها ، وارفقت بها الرسالة التالية :

« **مونمورنسى** : ٢١ مايو سنة ١٧٦٠

« **ما ان** تصفحت المسرحية التى ارسلتها الى ، يا سيدى ،

حتى اشمأززت اذ وجدتنى موضع اطراء . وانى لأرفض هذه الهدية البشعة . وانى لأعتقد انك بارسالها الى ، لم تكن تبغى الاساءة ، ولكنك تجهل او انك قد نسيت اننى قد تشرفت بأن اكون صديق رجل جدير بكل احترام ، ولم يكن يستحق ان يذم وان يفترى عليه ، فى هذه المسبة المطبوعة »

* * *

• ولقد اطلع « دوشين » ديدرو على هذه الرسالة ، فبدلا من ان يتأثر بها ، اذا هو يستاء منها . فما كان لأنانيته ان تغتفر لى التصرف الكريم الذى يكسبنى تفوقا عليه . وقد سمعت ان زوجته راحت تحمل على فى كل مكان ، فى حقد لم يحزننى الا قليلا ، اذ كنت اعرف ان الناس جميعا كانوايعرفون انها سليطة !

ولقد وجد « ديدرو » بدوره ، منتقما له فى شخص الراهب «موريليه» ، الذى وضع كتيبا ضد « باليسو » ، ولقد قلد فيه « النبى الصغير » ، واسماه « الرؤيا » . ولقد اقدم فى تهور ، على اهانة السيدة دى روبيك فى كتيبه هذا ، فعمل اصدقاؤها على القائه فى سجن « الباستيل » .. اما هى ، فلم تكن بطبيعتها شديدة الحقد ، كما انها كانت على شفا الموت اذ ذاك ، ومن ثم فلست اعتقد انها كانت ذات يد فى هذا الانتقام .

ولقد كتب الى « داليمبير » ــ الذى كان وثيق الصلة بالراهب موريليه ــ وسألنى ان ارجو السيدة دى لوكسمبورج بأن تشفع له كى يسترد حريته ، واعدا بأن يطريها فى «الموسوعة» ، كرمز لامتنانه . وقد اختفى هذا الخطاب مع عدد آخر من الخطابات ، فى قصر دى لوكسمبورج ، عندما كانت اوراقى مودعة هناك . وها هو ذا ردى :

« لم أكن ارتقب خطابك يا سيدى ، حتى اشهد السيدة ، المارشالة دى لوكسمبورج على الألم الذى يكبدنيه سجن

الراهب موريليه . فهى تعرف الاهتمام الذى لدى نحو هذه المسألة ، ولسوف تعرف كذلك الاهتمام الذى تبديه نحوها . وسيكفيها ذلك لكى تهتم بالأمر نفسها، وتعرف انه رجل كفء.

« وفوق ذلك ، فبالرغم من انها والسيد المارشال يشرفانى بكرم هو عزاء حياتى ، وبالرغم من ان اسم صديقك(١) يعتبر - لديها - توصية فى صالح الراهب موريليه ، الا اننى اجهل الى اى مدى يلائمها ان يستغلا ، فى هذه المناسبة ، ما لمكانتهما من نفوذ ، وما لشخصيهما من اعتبار . ولست اميل الى الاعتقاد ، بأن العمل الانتقامى - فى هذا الموضوع - ذو علاقة بالسيدة الاميرة دى روبيك ، بالقدر الذى يلوح فى ظنك . **بل او ان الأمر كان كذلك حقا ، فخليق ان لا نفترض ان لذة الانتقام للنفس ، وقف على الفلاسفة وحدهم ، وانهم اذا اختاروا ان يكونوا نساء ، كان على النساء ان يصبحن فلاسفة !**

« ولسوف أوفيك بما ستقوله لى السيدة دى لوكسمبورج، عندما اطلعها على رسالتك . وفى الانتظار ، اعتقد اننى من المعرفة بها بالدرجة التى تمكننى من ان اطمئنك مقدما بأنها اذا استطابت ان تساهم فى اطلاق سراح الراهب موريليه ، فانها - يقينا - تأبى ان تقبل رمز الامتنان الذى تعد بأن تؤثرها به فى « الموسوعة » ، بالرغم من انها قد تشعر بأن فى هذا العمل تكريما لها .. لأنها لا تبذل الخير طمعا فى الثناء ، وانما لترضى قلبها الطيب فحسب »

ولم ادخر شيئا فى استثارة حماسة السيدة دي لوكسمبورج وعطفها فى سبيل السجين البائس ، واستطعت ان اوفق فى ذلك فقد قامت برحلة الى (فرساى) ، خصيصا لتقابل السيد الكونت دى سان - فلورنتان ، وقد أدت هذه الرحلة الى تقصير امد اقامتها فى (مونمورنسى) ، التى اضطر السيد المارشال

---

(١) يقصد «روسو» - بهذا التعبير - نفسه

الى مبارحتها ـ فى الوقت ذاته ـ ليذهب الى (روان) ، حيث اوفده الملك كحاكم لنورماندى ، من جراء بعض حركات من البرلمان أريد احباطها . وهاهو ذا الخطاب الذى كتبته لى السيدة دى لوكسمبورج ، غداة اليوم التالى لرحيلها :

(الملف «د» ـ رقم ٢٣)

« **فرساى** : يوم الاربعاء

« **سافر** السيد دى لوكسمبورج فى الساعة السادسة من صباح أمس ، ولست أدرى ما اذا كنت سألحق به . اننى فى انتظار أنبائه ، لانه هو نفسه لا يدرى كم من الوقت سيقضيه هناك

« لقد قابلت السيد دى سان ـ فلورنتان ، الذى وجدت عنده اشد الميل الى مساعدة الراهب موريليه ؛ بيد انه يلقى ـ فى ذلك ـ عقبات ، يرجو ان يذللها وينتصر عليها فى أول مرة يحظى فيها بلقاء الملك ، وسيكون ذلك فى الاسبوع المقبل . ولقد سألته صنيعا آخر ، ذلك هو أن لا ينفى الراهب ، اذ أن هذا كان موضع دراسة ، وكان من المراد اقصاؤه الى نانسى .

« هذا هو ، ياسيدى ، ما استطعت ان اصل اليه ، ولكنى اعدك بأن لا أدع للسيد دى سان ـ فلورنتان ، سبيلا الى الراحة ، الا بعد أن تنتهى المسألة وفق ما تشتهى

« والآن ، تعال اقل لك اى حزن اعانيه لفراقك بهذه العجلة ، ولكنى اعلل نفسى بأنك لا ترتاب فى ذلك !

«اننى احبك من كل قلبى ، وطيلة حياتى »

وبعد بضعة ايام ، تلقيت هذه الرسالة القصيرة من «داليمبير» ، فبعثت فى نفسى فرحة صادقة :

« **غادر** الراهب « الباستيل » بفضل عنايتك ، يا فيلسوفى العزيز ، ولن تكون لسجنه معقبات بعد ذلك . ولقد سافر الى الريف ، وهو يبعث ـ كما ابعث انا ايضا ـ اليك الف شكر وتحية . ولك تقديرى وودى »

كذلك كتب لى الراهب ــ بعد بضعة ايام ــ رسالة شــكر (الملف «د» ــ رقم ٢٩) ، لم يبد لى فيها أثر من شعور قلبى ، بل لقد لاح فيها انه كان يهون ــ الى حد ما ــ من قيمة الخدمة التى أديتها له . **وبعد زمن قصــير تبينت انه و «داليمبير» قد خلفانى ــ ولن اقول قد اقتلعانى ليحلا محلى ــ فى الحظوة لدى السيدة دى لوكسمبورج ، واننى فقدت من تقديرها بقدر ما كسبا .** على اننى جد بعيد عن ان ارتاب فى ان الراهب موريليه قد ساهم فى الحط من قدرى ، فانى اجله عن ذلك . اما السيد «داليمبير» ، فليس لدى ما اقوله عنه هنا ، وسأتكلم عنه فيما بعد

* * *

• **وكانت** لدى ــ فى ذلك الوقت بالذات ــ مسألة اخرى ، ادت الى آخر خطاب كتبته الى السيد دى « فولتير » .. وكان خطابا اطلق من جرائه الصرخات مدوية ، معلنا انه اهانة له منكرة ، ولكنه لم يطلع مخلوقا عليه قط . ولسوف اورده هنا .

ذلك ان الراهب « تروبليه » ــ الذى كنت على معرفة بسيطة به ، والذى لم اره الا نادرا ــ كتب الى ، فى ١٣ يونيه ســنة ١٧٦٠ ، (الملف «د» ــ رقم ١١) ، لينبئنى بأن السيد فورمى ــ صديقه ومراسله ــ قد طبع فى يومياته رسالتى الى السيد دى فولتير ، عن نكبة لشبونة . وقد اراد الراهب « تروبليه » ان يعرف كيف تسنى هذا النشر ، وسألنى ــ بدهائه الجيزويتى ــ رأيى فى اعادة نشر هذه الرسالة ، دون ان يريد مصارحتى برأيه هو !

ولمـا كنت اكره اصحاب المكر كراهية تامة ، فاننى شكرته ــ بقدر ما كان يستحق ــ ولكن فى شىء من الجفاء . ولقد لاحظ ذلك ، ولكنه لم يردعه عن ان يحاول استدراجى من جديد ، فى رسالتين او ثلاث ، حتى تبين كل ما كان يريد ان يعرفــه .

ولقد ادركت تماما ــ مهما يكن ما يقوله تروبليه ــ ان فورمى لم يكن قد وجد رسالتى الى السيد دى فولتير منشورة ، وانه انما نشرها بنفسه لأول مرة . وعرفت انه كاذب لا يخجل ، اعتاد ــ بصراحة ــ ان يكسب دخلا من وراء مؤلفات غيره ، وان لم يكن قد جرؤ بعد على الوقاحة المذهلة ، واعنى بها حذف اسم المؤلف من كتاب سبق نشره ، ليضع هو اسمه عليـــه ، ويبيعه لمنفعته الخاصة (١)

ولكن ، كيف تسنى لذلك الخطاب ان يصل الى يديه ؟ .. هذه هى المسألة ، التى لم تكن مستعصية الحل ، وان كنت من السذاجة بحيث حرت فى امرها . فبالرغم من ان فولتير كان قد نال تكريما ضافيا فى هذا الخطاب ، الا انه كان على حق فى ان يشكو ــ بالرغم من مسلكه النابى ــ لو اننى كنت قد نشرت الخطاب بدون موافقته . ومن ثم فقد رأيت ان اكتب اليه بهذا الشأن . وهاكم هذا الخطاب الثانى ، الذى لم يرد عليه اطلاقا، والذى تظاهر بالهياج ــ حتى الجنون ــ من جرائه، كى ينطلق فى فظاعته بكثير من التحرر

« **مونمورنسى** : ١٧ يونيه سنة ١٧٦٠

« **ما ظننت** قط يا سيدى ، اننى سأجد نفسى على تكاتب معك ثانية . ولكننى ــ اذ علمت ان الخطاب الذى كتبته اليك فى سنة ١٧٥٦ ــ قــد طبع فى برلين ، وجدت من الواجب ان اطلعك على تصرفى فى هذا الصدد ، وانى لأؤدى هذا الواجــب بصدق وبساطة

« **ان** هذا الخطاب ، اذ وجه اليك حقا ، لم يكن مقدرا له ان يطبع ، وما افضيت بمحتوياته ــ بقيود اشترطتها ــ الا لثلاثة اشخاص،لم تكن حقوق الصداقة لتبيح لى ان آبى عليهم شيئا من هذا القبيل ، كما ان حقوق الصداقة هذه بالذات ، لاتسمح

---

(١) اضاف روسو : « وبهذه الطريقة سطا على « اميل » فيما بعد »

لهم بأن يسيئوا استغلال الامانة ، بأن ينتهكوا عهودهم . . هؤلاء الاشخاص الثلاثة هم : السيدة دى شينونسو - زوجة ابن السيدة دوبان - والسيدة الكونتة دوديتو ، والمانى يدعى جريم . ولقد كانت السيدة دى شينونسو تواقة الى ان يطبع هذا الخطاب ، وسألتنى ان اوافق على ذلك . وقد قلت لها ان هذا يتوقف على موافقتك انت . وقد سألتك ذلك بنفسها ، فأجبت انت بالرفض ، ولم تثر المسألة بعد ذلك

« على ان السيد الراهب تروبليه ، الذى لاتربطنى به صلة ما ، كتب الى اخيرا ، بدافع من عناية مفعمة بالكرم ، فذكر انه تلقى صفحات من يوميات السيد فورمى واذا به يقرأ فيها ذاك الخطاب بالذات ، مع كلمة قال فيها المحرر - تحت تاريخ ٢٣ اكتوبر سنة ١٧٥٩ - انه وجد الخطاب قبل بضعة اسابيع، فى مكتبات برلين، وانه لما كان من النشرات التى سرعان ما تختفى دون أى رجاء فى عودتها ، فقد رأى ان من واجبه ان يفرد له مكانا من يومياته !

« هذا يا سيدى ، كل ما عرفته عن الأمر . ومن المحقق جدا ، ان هذا الخطاب لم يتسلل الى سمع احد - فى باريس - او لسانه حتى الآن . ومن المؤكد كذلك ، ان النسخة التى وقعت فى يدى السيد فورمى - سواء كانت مخطوطة او مطبوعة - لايمكن ان تصل اليه الا من طريقك انت ، وهو الامر غير المحتمل .. او من طريق واحد من الاشخاص الثلاثة الذين ذكرت اسماءهم .. واخيرا ، من المؤكد جدا ، ان ايا من السيدتين لايمكن ان تقدم على مثل هذه الخيانة للأمانة . وليس بوسعى - من معزلى - ان أصل الى مزيد من المعرفة فى هذا الصدد ولكنك على تراسل مع كثيرين ومن السهل عليك - من طريقهم وبمعونتهم - ان تتعقب المسألة حتى مصدرها الأصلى ، اذا رأيت انها تستحق العناء ، وان تعرف حقيقة الواقعة

« ولقد ذكر لى السيد الراهب تروبليه — فى رسالته هذه — انه يحتفظ بتلك الورقة من اليوميات ، وانه لن يعيرها لأحد بدون رضائى قط، وهذا ما لن يصدر منى قط !.. **غير ان هذه النسخة قد لا تكون الوحيدة فى باريس . ورجائى هو ان لا يطبع هذا الخطاب هناك ، وسأبذل قصارى وسعى من اجل ذلك . على اننى اذا عجزت عن الحيلولة دون طبعه ، ونمى الى النبأ — فى الوقت المناسب — فقد استطيع ان اتمسك بحق الاسبقية ، واذ ذاك ، فلن اتردد فى نشره بنفسى. وهذا — كما يبدو لى — مجرد تصرف طبيعى عادل**

« اما ردك عن الخطاب ذاته ، فاننى لم ابح به لمخلوق ، ولك ان تطمئن الى انه لن ينشر اطلاقا دون اذنك ، وهو ما لن اكون من الاستهانة بالسر بحيث اسألك اياه ، لاننى اعلم تمام العلم ، ان ما يكتبه انسان لانسان آخر ، ليس مما ينشر على الملأ . اما اذا شئت ان تكتب ردا موجها الى ، بغرض النشر ، فانى اعدك بأن الحقه بأمانة برسالتى ، دون ان اعقب عليه بكلمة واحدة .

« اننى لا احبك اطلاقا يا سيدى ، ولكنك وجهت الى من الاساءات ، مالا أملك سوى ان اشعر بأبلغ الآلام بسببها .. انا تلميذك ، واشد المعجبين تحمسا لك ! .. لقد اضعت (جنيف) جزاء لها على ما لقيته منها من ايواء .. ولقد نفرت منى ابناء وطنى ، فى مقابل الثناء الذى اضفيته عليك لديهم انك انت الذى جعلت حياتى فى وطنى ومسقط رأسى ، امرا لا اطيقه ! .. انك انت الذى ستضطرنى الى ان اموت على ارض اجنبية — محروما من كل ما يتاح للمحتضرين من تسرية ومواساة — وان لا القى من التكريم اكثر من ان القى فى حمأة .. بينما ترافقك فى وطنى، كل آيات التكريم التى يحق لانسان ان يطمع فيها ! .. **اننى — بايجاز — اكرهك ، ما دمت قد رغبت فى هذا ! .. ولكنى**

اكرهك كرجل لايزال خليقا بأن يحبك،اذا كنت ترغب فى ذلك . ان العاطفة الوحيدة التى تبقى ــ من كل الاحاسيس التى يزخر بها قلبى نحوك ــ لهى عاطفة الاعجاب الذى لايمكن للمرء أن يأباه على عبقريتك البديعة ، والحب لما تكتب . واذا كنت لا اقوى على ان اكرم فيك سوى مواهبك، فليس هذا ذنبى . ولن يعوزنى قط الاحترام الواجب نحو هذه المواهب، ولا السلوك الذى تتطلبه

« ووداعا ياسيدى »

. . . . . .

تنبيه : يلاحظ ان هذا الخطاب وان كتب منذ حوالى سبع سنوات ، الا اننى لم اتحدث عنه الى نفس حية ، ولا اطلعت عليه أحدا . وكذلك كان شأن الخطابين اللذين اضطرنى السيد هيوم الى ان أكتبهما له فى الصيف الماضى ، حتى أثار الضجة ــ التى يعرفها كل امرىء ــ بشأنهما . ان السوء الذى اضطر الى ان أقوله لأعدائى ، انما أوجهه اليهم فيما بيننا . اما الخير ــ اذا وجد شىء منه ــ فانى أقوله علانية وبقلب سليم .

. . . . . .

. **وفى** غمرة هذه المشاحنات الادبية الطفيفة، التى لم تزدنى الا اصرارا على عزمى ، قدر لى ان اتلقى اعظم تكريم اسدته الى مهنة الأدب . . التكريم الذى كنت أشد اعتزازا به منى بأى شىء آخر . **وقد تمثل هذا التكريم فى تنازل السيد الامير ((دى كونتى)) بزيارتى مرتين ، احداهما فى ((القصر الصغير))، والأخرى فى (مون ــ لوى) . ولقد اختار فى كل من المرتين ــ على السواء ــ الفترة التى لم تكن فيها السيدة دى لوكسمبورج فى (مونمورنسى) ، حتى يكون اكثر اظهارا لانه انما كان قادما من اجلى .** وما ارتبت يوما فى اننى انما كنت مدينا بأولى مكارم هذا الأمير ، الى السيدة دى لوكسمبورج، والى السيدة دى بوفلير . غير اننى لا ارتاب كذلك ، فى اننى مدين بالعطف

الذى لم يكف قط ـ منذ ذلك الحين ـ عن ان يشرفنى به، الى مشاعرى الخاصة ، والى نفسى

. . . .

تنبيه : لاحظوا اصرار هـذه التقية العمياء ، الغبيـة ، على البقـاء ، فى غمرة كل الاسـاءات التى كانت كفيلة بأن تجعلنى اسىء الظن بها . ولكنها لم تختف الا بعد عودتى الى باريس فى سنة ١٧٧٠.

. . . .

ولما كان مسكنى فى (مون ـ لوى) جد صغير، وموقع الأيكة جميل ، فقد اخذت الامير اليها، واذا به ـ لكى يتوج أفضاله ـ يرغب فى ان يشرفنى بأن يلعب دورا فى الشطرنج معى. **وكنت أعرف ان بوسعه أن يهزم الشيفالييه لورينزى، الذى كان امهر منى لعبا . على اننى كسبت الدورين اللذين لعبتهما ، بالرغم من اشارات وغمزات الشيفالييه واولئك الذين كانوا حضورا، فقد تظـاهرت بأننى لم اكن اراها .** وعندما انتهينا ، قلت له فى لهجة جادة ، مفعمة بالاحترام : « مولاى، اننى اوقر سمعك فى خشوع يفوق أى تورع عن كسبك فى الشطرنج دائما » .. فشعر هذا الامير العظيم ـ النابه ، المطلع ، الذى كان أهلا لأن يأبى التملق ، أو هكذا ظننت ، على الأقل ـ اننى الوحيـد بين الحضور ، الذى عامله كانسان ، ولدى كل ما يجعلنى اعتقـد انه شعر بامتنان حقيقى نحوى لذلك !

ولو اننى علمت عنه انه استـاء منى ، لمـا أنبت نفسى على اننى لم ارض بأن اخـدعه فى شىء ، ولست أجـد ـ يقينا ـ ما يحملنى على ان الوم نفسى على اننى أسـأت ـ فى قلبى ـ تقبل أفضاله ، وان كنت قد فعلت ذلك احيانا حقـا ، فى حين انه كان يبدى رقة لاحد لها فى مسلكه نحوى . ولقـد ارسل الى بعد أيام قلائل ، سلة مليئة بطيور القنص ، فتقبلتهابقبول سليم . وما لبث ـ بعـد ذلك بفتـرة ـ ان ارسـل الى سلة

أخرى ، مصحوبة برقعة من احد حراس صيده ، كتبت باملاء منه ، ليخبرنى بأن محتويات السلة من الطيور التى اصيبت بيد صاحب السمو نفسه . ولقد تقبلتها ، ولكننى كتبت الى السيده دى بوفلير ، انبئها بأننى لن أتقبل مزيدا من هذه الهدايا. وقد جلب على هذا الخطاب لوما عاما، كنت استحقه. فان رفض هدايا الصيد ، من أمير من الاسرة المالكة ، يبدى — الى جانب ذلك — فى اهدائها كل لطف ، انما ينم عن فظاظة من شخص سىء النشأة ، ينسى نفسه ، أكثر مما ينم عن شعور مرهف من رجل ذى كرامة وكبرياء ، يرغب فى ان يحتفظ باستقلاله . وما قرأت قط هذا الخطاب ، الا تضرج وجهى خجلا منه ، والا أنبت نفسى على كتابته .

على اننى لم أقدم على كتابة اعترافاتى ، لكى اسكت متكتما حماقاتى ، وان الواقعة الراهنة لتملأنى اشمئزازا من نفسى ، الى درجة تفوق كل ما يمكن ان يغرينى على تكتمها !

واذا كنت لم أضف الى ذلك حماقة جديدة بأن اغدو منافسا له ، فاننى كنت جد قريب من ان أفعل هذا ، اذ ان السيدة دى بوفلير ، كانت — فى ذلك الوقت — لاتزال عشيقته ، ولم أكن أعرف شيئا عن ذلك . وكانت تفد لزيارتى كثيرا ، فى صحبة الشيفالييه دى اورينزى . وكانت جميلة ، لاتزال فى شبابها ، وكانت تعجب بالفكر الرومانى ، فى حين اننى كنت دائما مولعا بالخيال الشاعرى ، وكان فى هذا تشابه كاف . ولقد كدت أفضح نفسى ، واعتقد انها لمحت ذلك . وكذلك لاحظه الشيفالييه ، فقد حدثنى بصدده — على الاقل — بطريقة لم ترم الى تثبيط عاطفتى !

ولكننى كنت فى هذه المرة حكيما ، وكان الزمن يستدعى ذلك ، اذ اننى كنت فى الخمسين من عمرى . ولما كنت مفعم النفس بالنصيحة التى اسديتها الى الشيب ، فى رسالتى الى « داليمبير » ، فقد خجلت من ان لا افيد منها . والى جانب

ذلك ، فاننى ـ بعد ان علمت كل ما لم أكن أعلم من قبل ـ كنت خليقا بأن اكون قد فقدت صوابى تماما ، لو اننى جرؤت على ان أصبو الى منافسة غريم فى مثل تلك المكانة الرفيعة .
واخيرا ، فاننى على ما يبدو لم أكن قد شفيت تماما من هوى السيدة دوديتو ، فكنت أحس بأنه ما من شيء بعد هذا الهوى يمكن ان يحتل محله من قبلى ، وودعت الحب ما بقى من عمرى .

لقدتلقيت ـ قبيل اللحظة التى أكتب فيها هذه السطور ـ ملاطفات خطرة ، من شابة لها اغراض لدى ، وقد كانت ملاطفاتها مصحوبة بنظرات زاخرة بالمعانى، ولكن .. اذا كانت تتظاهر بنسيان سنى عمرى الخمسين ، فان من واجبى ان اذكرها !.. وبعد ان انتزعت نفسى من فخها، لم يعد يساورنى أى خوف من الوقوع، بل اننى لأشعر بأن فى وسعى ان أثق من نفسى ـ فى هذا الصدد ـ بقية عمرى !

ولقد لاحظت السيدة دى بوفلير الانفعال الذى بعثه وجودها فى نفسى ، وكان بوسعها ان تلاحظ كذلك اننى قد انتصرت عليه . اننى لست من الطيش ، ولا من الغرور ، بحيث اعتقد اننى ـ فى هذه السن ـ اثير فى نفسها أى ميل نحوى ، ولكنى ـ على ضوء بعض عبارات استخدمتها فى حديثها الى تيريز ـ اعتقد اننى اثرت نوعا من الشعور الفضولى فى نفسها . فاذا صح هذا ، واذا لم تكن قد صفحت عنى لاننى لم ارض هذا الفضول ، فجدير بى ان أقر بأننى خلقت لأكون ضحية عيوبى وضعفى ، ما دام الحب المظفر مصدر تعاسة لى ، والحب المهزوم مصدر تعاسة اكبر !

* * *

• **هنا** تنتهى مجموعة الرسائل التى كانت بمثابة دليل لى فى هذين الجزءين . ومنذ الآن ، لن يكون لى سوى ان أقفو

آثار ذكرياتى. ولكنها – فى هذه المرحلة قاسية – لاتزال باقية، كما ان طابعها لايزال قويا ، حتى اننى أرانى عاجزا – رغم ضياعها فى بحر التعاسات البالغة – عن ان أنسى دقائق أول غرق منيت به سفينتى ، بالرغم من ان ما بعده ، لايوفر لى سوى ذكريات مرتبكة ، غير واضحة المعالم

وهكذا أستطيع السير فى كراستى التالية ، وانا لا ازال كثير الاطمئنان الى مواقع قدمى ..

فاذا اشتط بى النأى ، فلن يكون هذا مدعاة لأى عجب !

وفى الجزء الخامس والاخير من

« اعترافات جان جاك روسو »

فى منتصف شهر ديسمبر القادم :

• **يحدثنا** «روسو» عن تعاسات العظمة ، وما يجلبه المجد من محن وشقاء .. • **ويحدثنا** عن كتبه التى احدثت انقلابا فى الفكر العالمى ، وفى التاريخ السياسى لأوربا .. • **ويحدثنا** عن ثورة اوساط الفكر الأوربى ضده ، وتنكر الرأى العام له ، وهياج معارفه وجيرانه عليه ، وحرق كتبه فى الميادين . . • **ويحدثنا** عن عداء السلطات له ، وما اصلته اياه الحكومات من سياط الاضطهادات والجور .. • **ويحدثنا** عن فراقه لتيريز.. وموت النساء اللاتى لعبن اهم الادوار فى حياته وقلبه ..

اعترافات

جان جاك روسّو

إن أحداث هذا الجزء الرابع من أضخم أثر إنسانى فى تاريخ الأدب العالمى، تدور فى عهد سبق أيامنا الراهنة بمائتى عام .. فهل تغير العالم، وتغيرت نفوس البشر، وتغيرت مفاهيم القيم الإنسانية خلال هذين القرنين ؟..

هذا ما قد يتسنى لنا أن ندركه، ونحن نخوض مع "روسو" خضم ذكرياته مع أمثال أصحاب هذه الصور المنشورة هنا .. وعندما نقرأ عن المؤامرة الكبرى التى دبرها أعز أصدقائه وصديقاته لهدم عظمته وتشويه سمعته .. وعندما نلمس مواقف عندما ناصبته الحكومات الأوربية العداء .. لما تضمنته كتبه من آراء !

فلا تهمل اقتناء هذا الجزء الذى بين يديك، واطلب ما فاتك من الأجزاء الثلاثة السابقة، من ادارة "كتابى" (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة) قبل نفادها ..

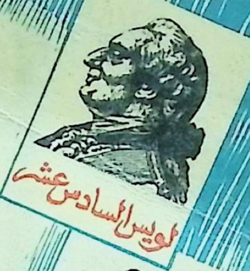

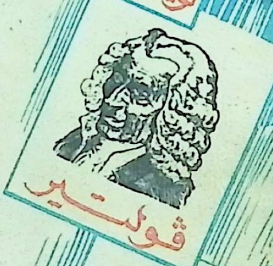

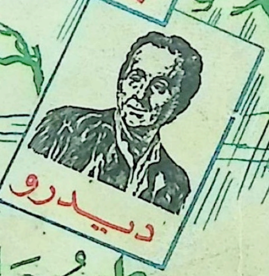

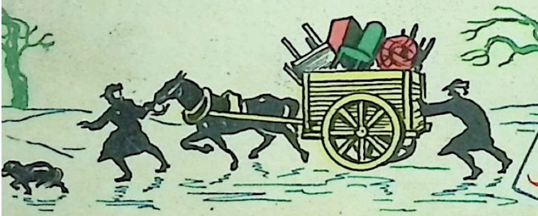

يصدرها حلمى مراد

مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية